

وجاء العيد

بعد العاشر من رمضان

مصطفى بهجت بدوى

كتاب الجمهورية

عدد خاص

اغسطس ١٩٧٤

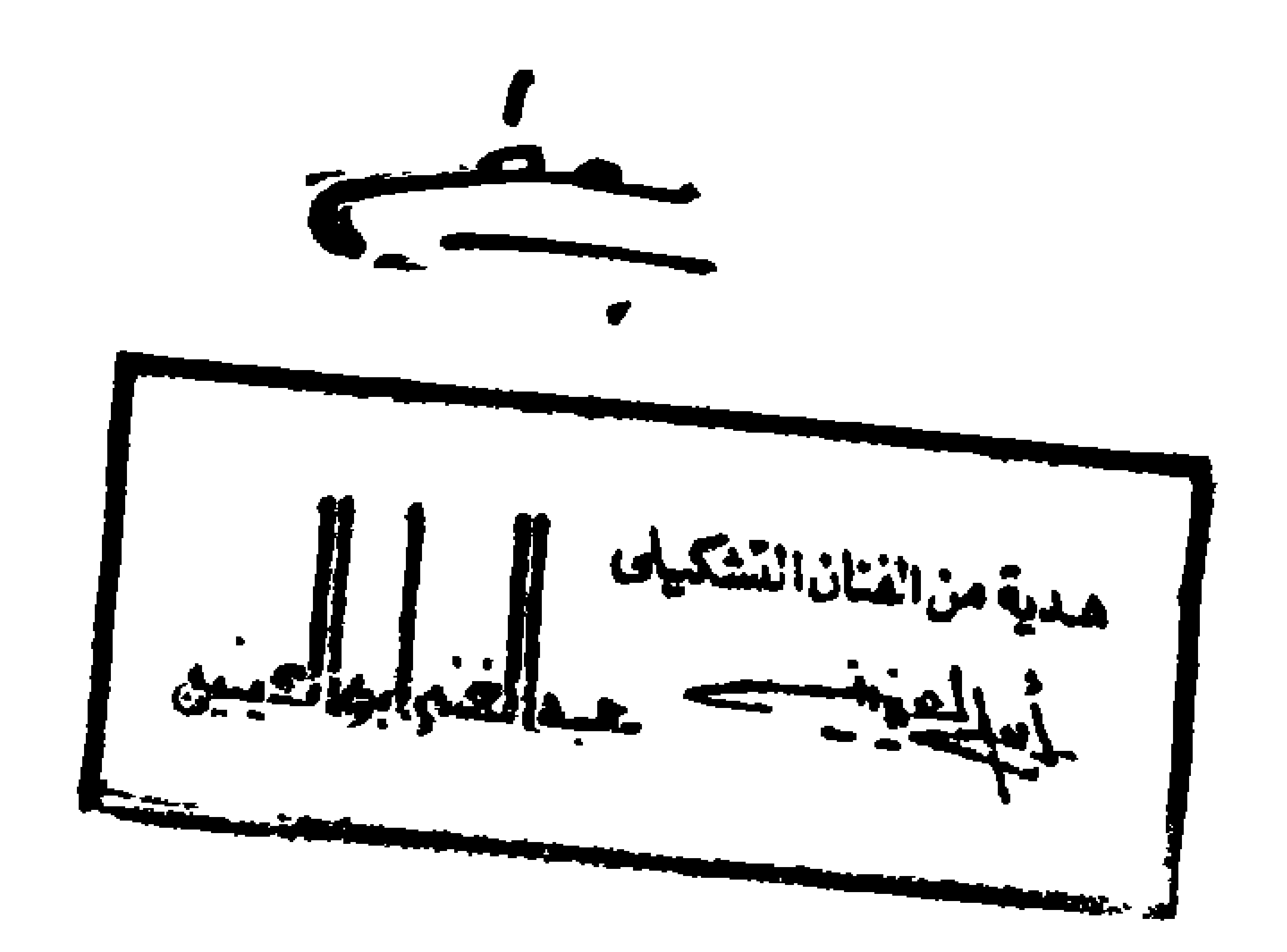
وجـــاء العـيـــد
بعد العاشر من رمضان

مصطفى بهجت بـدوى

الإهـــداء

إلى وطني.. حراً مطمئناً

إلى كل نفس حرة مطمئنة



تقديم

ربما كان « القاسم المشترك الأعظم » بين ما أصدره من كتب واحدا - مع اختلاف التناول والزوايا وتنوع المنهج و « الشطحات ». الجامع واحد : مصر وفلسطين والعروبة . هزة الهزيمة ومقاومة الهزيمة !

مثلا ، هذا هو الكتاب الثالث الذى أصدره خلال العامين الاخيرين منذ منتصف سنة ٧٢ .. وبينهما ، أى بين العامين والكتابين السابقين « فاصل موسيقى » — اذا جاز التعبير — هو ديوان من الشعر ، خماسياته حنين الى سيناء وفلسطين !

على أن ثمة اختلافا هاما بين « رحلات جادة » و « كلام عنا وعن اسرائيل » ثم هذا الكتاب .. « وجاء العيد بعد العاشر من رمضان » . قد نكون اختلاف المراحل . او اثر الزمن المتحرك الذى لم يعد راكدا . أو ما تعارفنا على تسميته بالمتغيرات الدولية

فالعربية . أو كون الرؤية أصبحت أكثر وضوحا ، أو أن التجارب نضجت فأنضجت وأفصحت بالكلمة والمدفع !

المهم أن كتاب الرحـلات فى يوليو ٧٢ – وقد شغلت رحلات الأوجاع أكثر من نصفه – كان يمثل المعاناة والصمود والأصرار . كما أن كتاب « كـلام عنا وعن اسرائيـل : من ٥ يونيو حتى ٦ اكتوبر » الذى كان يعـد للصـدور فى أول أكتوبر ١٩٧٣ ، كان يعكس المرارة والصـبر .. ونفـاد الصـبر ، والحث والتوثب والتنبؤ بالمعركة والنصر فيها ، ثم حدث قبل أن تدور به المطابع أن انطلقت المدافـع ودارت على العدو الدوائر ، فاستكمل الكتاب – قبل الطبع – فصولا حول معركتنا الظافرة وتحرر من المرارة !

أما هذا فهو كتاب اكتبـه من ألفـه الى يائه فى ظل العاشر من رمضان .. فى أحضان العيد !

وانه لعيد – لو تعلمون – عظيم .

صحيح أن مهمة هذا العيد الأولى والكبرى أنه كفكف الدمـوع وضمد الجـراح ، ولم نلبس به كل الثياب الجديدة القشيبة ، أو بالأحرى لم نستعد به كل اراضينا المحتلة ، ولكنا استعدنا به ما يمـكننا من تحرير كافة الأراضى العربية المحتلة ، وما يؤهلنا لاستعادة فلسطين ذاتها : استعدنا ثقتنا بأنفسنا ، وهى التى لها المحل الأول من الأهميـة ، ويأتى فى المحل الثـانى – على أهميتـه العظمى بلا شـك – احترام العالم لنا .

هو اذن « عيد صغير » .. يتطلع ونتطلع معه الى العيد الكبير الشامل .

وغنى عن البيان أن « التطلع » وحده « ليس كافيا » . فقد مكثنا نتطلع الى الضفة الشرقية لقناة السويس ـ فى ألم وشوق ـ ستة أعوام ونصف عام حتى جاء العاشر من رمضان ١٣٩٣ والسادس من اكتوبر١٩٧٣ فترجمنا التطلع المشروع الى عمل مشروع وانجاز كبير مشهود .

وهكذا فان تطلعاتنا المشروعة الحالية ـ وقد داوينا الألم وعززنا الشوق ـ لا يمكن أن « تجمد » العيد الذى جاء بعد العاشر من رمضان ، ولا يمكن أن تبلغ منتهاها بالعيد الكبير المنشود الا بعمل مشروع جديد على نسق واحكام ما حدث فى أيام رمضان والعيد الصغير .. وهو عمل بالتأكيد اكبر واشق واحكم ، ولكن لا خيار فيه ولا بديل .. وفى شتى مجالات العمل السياسى والتنظيمى والاقتصادى والعربى والدولى والعسكرى .

فى هذه المرة نتميز ـ أو ينبغى أن نتميز ـ بأن معنا هذه الثقة الغالية فى أنفسنا . ليست الثقة المفرطة المغرورة ، ولكن الثقة الواعية القادرة المتحررة المحسوبة .

وهى ـ بغير حاجة كبيرة الى تشبيه بمعارك فيتنام البطولية التى لم تكل ولم تمل حتى النصر النهائى ـ اقوى من أى قوة عدوانية مضادة صغرت أم عظمت . اقوى حتى من القنبلة الذرية . اقوى فى حرص

وداب واقدر على انتزاع النصر الحاسم المشروع ..
وان استغرق اجيالا . وان كان « حلم » حياتى
وحياتنا أن نشهده بأعيننا !

ونحن نعيش المعركة ـ التى لم تنته بعد ـ
بوجداننا وبأعصابنا وبمعاناتنا وبفكرنا وبعملنا . كل
فى المجال الذى هو قدره . ومن حملة هذه الأقدار
التى تزيد على المائة مليون يكتب قدر الامة العربية
ومصيرها .

والقدر الطيب يصنعه ابناؤه بعزيمتهم ،
وبمواجهتهم ، وبكشف السلبيات والضرب على
شراذمها . وبادراك ابعاد الصعاب وتحملها وتطويعها
وتجاوزها ، وبراب كل اسباب الصدع والفرقة بين
البلدان العربية حتى ننتزع خيوط فجر العيد
الكبير . وعندئذ لن تكون ثمة اسباب للفرقة ، لأن
هذا العيد الأعظم انما مسالكه العمل العربى المشترك
ضد بث الفرقة التى برعت فيها اسرائيل مندوبة
الاستعمار العالمى فى المنطقة العربية ، ونتيجته
حتما ان تختفى مع اختفاء الكيان العدوانى لاسرائيل
أسباب الفرقة فى الوطن العربى ، ثم اذا بقى للفرقة
أثر ـ ولا مانع عندئذ .. ولكن المانع هو الآن ـ فلن
تخرج عن كونها اختلافا فى مناهج التقدم وسبل
بناء المجتمع . وهو اختلاف مقبول ومعقول ومحتمل
فضلا عن انه « صحى » .. ويصح الا يحدث !

القدر الطيب اذن لا يهبط من السماء ، انما
هو ـ كما قال شاعرنا « الشابى » ـ يجيء بالاصرار

وبالعمل وبارادة الحيـــاة .. فتستجيب له وبه السماء !

وربما كان نصيبي في المعركة أن أعيشها ، وأن أفكر ، وأن أنفعل ، وأن أعمـل في مجـال قدرى الصحفى الذى أريده دائما أن يكون رسـالة وطنيـة عـربية ، وأن أكتب ، وأن أصـدر الكتب حـول قضايانا ..

ولقد رأيت أن أقسم هذا الـكتاب الى أبواب أربعة :

الاول عن هؤلاء الذين جاءوا بالعيـد واطلعـوه بصبرهم وكفاحهم ومبادرتهم وشجاعتهم منذ العاشر من رمضان ، وهؤلاء هم رجال قواتنـا المسلحة الباسلة وابطالها . ابناء الفلاحين والعمـال والمثقفين والراسمالية الوطنية .. أى تحالف قـوى الشعب العاملة . ومع هؤلاء .. الشعب نفسه الذى انجبهم ووقف معهم وتحمل وقاتل . وفي هذا الباب لقاءات تعـددت بهؤلاء الأبطـال وانلجت الخواطـر بالحاضر والمستقبل .

الثاني يتناول « الحرية والاشتراكية والوحدة » بعد العـاشر من رمضـان وماذا كان يريد بها من يريد ، وكيف وقف معهـا من وقف ، وكيف اكدتها جمهورية مصر ورئيس جمهورية مصر وقائـد مسيرة ثورة ٢٣ يوليو التى لم تجعل من هذه المبادىء مجرد شعارات وانما ممارسة ، تصحح ولا تتراجع وتوضح ولا تتهيب ..

الثالث اذا كنت قد عرضت لجانب من مضمونه بين البابين الأولين ، فانه بتأكيده المباشر على حقيقة أن « المعركة لم تنته » انما ينبه الى أن اسرائيل اذا كانت مؤسستها العسكرية قد نزفت — بالعاشر من رمضان — وبدا زيف صلفها وادعائها انها قوة لا تقهر ، فانها — حتى مع صراع جنرالاتها واختفاء من يطلقون على أنفسهم اسم « الصقور ».. بل ربما بسبب ذلك — ما برحت تصر على العدوان ، بل اقول ما زالت على الأرجح تعد للحرب الخامسة. ذلك أن اسرائيل هى اسرائيل لا تستطيع أن « تعيش » الا بهذا العدوان الذى قامت عليه .. والذى لا أشك فى أنه سوف يوردها موارد التهلكة بمشيئة الله .. ويقظتنا وبالدروس المستفادة من معركة العاشر من رمضان .

ولقد سبق لهذه الأبواب الثلاثة أن نشرت متفرقة . غاية الأمر اننى أعدت فيها النظر ونسقتها وبوبتها وأعددتها لهذا الكتاب .

الرابع الذى هو « تجربة ساخنة فى الصحافة المصرية » مكتوب بصفة خاصة ، ومعد لهذا الكتاب ، وبالتالى فلم يسبق نشره .

ولقد كان يمكن لهذا الباب ان يكون كتابا مستقلا وجديدا ، لأنه قد يحمل فى طابعه صفة الاستقلال والجدة .. وربما الجراة ..

على اننى ارتأيت أن اضمه الى كتاب « وجاء العيد بعد العاشر من رمضان » ، لأنه ليس بعيدا كل البعد عن المعارك التى سبقت معركة العاشر من

رمضان وصاحبتها واعقبتها ، بل وربما كانت صـورة هذه المعارك التي عشتها وكتبت عنها لا تتكامل الا بهذا البعد ـ أو الباب ـ الرابع .

وفى كل مرة أضع كتابا بين يدى القارىء أضع يدى على قلبى ، ثم ارفعها الى السماء واتمتم :

« رب : ادعـــو أن يكون ما أكتب هو ابتغـــاء مرضاتك .. فرضاؤك يا رب .. ورضاء القارىء ..
فلله ـ سبحانه ـ العتبى حتى يرضى .
وللقارىء المعذرة اذا لم يرض .
والله نسأل النصر والعزة لمصر وللأمة العربية .
ولنا الصحة والستر وحسن الختام ..

٢٤ يوليو ١٩٧٤

الذين جاءوا بالعيد

بعد العاشر من رمضان

● قاتلوا بشجاعة .. وتحدثوا ببساطة

انني أمد يدى بالسلام الى بلدى ، واشد على اليد التى تبنى وعلى اليد التى تحمل السلاح !

لقد صافحت فى يومين نيرين الشعب الصانع والجيش المحرر . رأيت مصر اليوم ومصر المستقبل وسعدت بها . التقيت ـ محتضنا معتزا ـ بأبطال مجمع الحديد والصلب فى حلوان ، وبأبطال قواتنا المسلحة فى القناة بضفتيها الغربية والشرقية .. وهى « فرحة » شديدة الكرم فى اسبوع واحد تساوى العمر كله !

ولست اغالى او اتصنع ـ علم الله ـ فاننى حقيقة كنت بين حبات العرق ودخان المصانع اتنفس الهواء النقى ، كما رحت بين رمال سيناء وساحة المعارك التمس الشهيق العطر بعد أن « زفرت » طويلا !

وكان اجتماع « البساطة » و « الثقة » و « انكار الذات » فيما أرى .. اجمل ما يهز النفس ويعجزها عن التعبير ..

كانوا هنا وهناك ـ مع سعادتهم الغامرة بما أنجزوا ـ يشعرون كأنهم لم يفعلوا شيئا كبيرا .. وان كان كبيرا جدا ..

وشهدت الثقة فى أعين صناع الحديد والصلب اذ يحتفلون ببدء المرحلة الجديدة من « المجمع » وبتشغيل « الفرن العالى الثالث » لزيادة طاقة الانتاج الى ثلاثة أمثال الانتاج الحالى ، ولكنهم كانوا يتذاكرون قواتهم المسلحة الباسلة اكثر مما يذكرون انفسهم . كان بعث « ٦ أكتوبر » هو الذى يفجر الطاقات الجديدة والمفاهيم الجديدة .

واذا كنت قد شاركت فى الاشادة والتذكير بالسد العالى فى اسوان ، واعتبرته فيما كتبت عند تمامه « نموذجا لاكتساب الثقة » ، فها هو ذا أمامى السد العالى الثانى فى حلوان ـ كما سماه الرئيس انور السادات بحق ـ نموذج آخر يقوم بعد ان اكتسبنا الثقة بالفعل ، واكدنا الجسارة والكرامة ، وأثبتنا ـ كما آمنت دائما ـ أن الشعب الذى استطاع اقامة سد اسوان برغم كل التحديات يستطيع أن يكرره ، كما يستطيع ان يعبر ويقتحم ويقاتل وينتصر برغم كل التحديات أيضا ..

وفوق « كوبرى » مثل الذى « عبرت » عليه فى نهاية سنة ١٩٧٣ من الضفة الغربية للقناة الى الضفة الشرقية كم ذرعت الخطوات منذ ثلاثين عاما .. ولكن شتان !

ليس أصدق تعبيرا عن معنى ٦ أكتوبر ـ برغم ما يلوح فى ظاهره من مبالغة ـ من أن أقول اننى احسست فى تلك اللحظات الجياشة اننى عدت أكثر شبابا أو حرارة من تلك المرحلة البعيدة فى الصبا الباكر . كانت خطواتى هذه المرة « عملية » أشبه بالعبادة .. بالسعى بين الصفا والمروة .. بالتجرد .. بالتحرر ..

كانت لقاء العيد بعد العاشر من رمضان !

ولأمض في تعمق الاحاسيس والأفكار التي تؤكد مدى ما تمثله معارك اكتوبر التي انتظرناها في شوق بالغ كظيم وجياش ، والساعل ـ في هذه « المقارنة » التي هي اشبه بالمفارقة ـ باستفهام يؤكد ويمور : اليس عجيبا أن يكون بلوغي الشاطئ الشرقي للقناة في سنة ١٩٤٣ حيث كنت اعمل ـ ولم يكن ثمة اسرائيلى واحد في سيناء ـ هو « بلوغ » لا يصل في لهفته ومغزاه عندى الى ما وصل اليه بلوغي نفس الشاطىء الشرقي للقناة الآن الذى حررنا منه ٢٠ كيلومترا فقط على طول المواجهة ، وما زالت بقية سيناء يحتلها الغاصبون المجرمون الاسرائيليون ؟ !

لعل المعنى يكمن في قضية السهل غير الممتنع مقارنا بالصعب المنتزع ! لعله الفارق بين أن تطلع الشمس كما تفعل كل صبح وبين أن تطلعها انت بيديك ! لعله ترجمة فكرية وعملية لقيمة تحرير سيناء شبرا شبرا . او لنقل بعبارة اكثر « واقعية » وحسما واقل « شاعرية » : لعله الاعتزاز ـ لا الاغترار ـ والثقة بقدرتنا وبقدرة قواتنا المسلحة على فرض ارادتها واستعادة اراضيها مؤكدة أن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، وان الثمن دم غال زكي يهرق في سبيل الوطن ضريبة راضية مرضية . ربما تلعن « ضريبة الدم » الاستعمار الذى انبت اسرائيل كما تلعن اسرائيل التي تواكبه فيركبها وتركبه ، ولكن ضريبة الدم « تتلذذ » بتحدى الاستعمار واسرائيل وبالعمل على الا يكون لهما أثر في بلادنا مهما طال الزمن وعظمت التضحيات .

ولكم تذكرت في كل خطوة خطوتها مع العبور الهادىء الساكن عظمة التضحيات والحسارة في العبور المتفجر الساخن بعد ظهر السادس من اكتوبر ، أو العاشر من رمضان كما يحب القائلون انفسهم أن يسموا معركتهم فيحسموا بذلك وبايمانهم « الغيبى » المتفتح وباجماعهم مسألة فرعية « سخيفة » حاول بعض الناس أن

« يقتحم » بها أو أن « يشوشر » أو أن « يتفلسف » بحسن نية أو بسوء نيـة ، كأننا فرغنـا من كل شيء الا ان نبحث هل ثمـة معجزات أم لا توجد فى هذا العصر ! واقل ما يقال أن تلك المسالة لم تكن مطروحة بالدرجة الأولى ، وانه لم يكن هناك داع لها ولا كان أوانها ، فقد سئمنا من محاولة فرض مناقشـات بيزنطية و « متاهات فكرية » يتصورها بعض « المثقفين » لازمة ! ببساطة ، لا ضير ولا تعارض بين أن توجد معجزة الهية وبين أن تقوم معها معجزة الارادة والعلم .. ولقـد كانت « المعجـزتان » قاعدتين راسختين فى معاركنا ، وستكونان كذلك دائما بمشيئة الله . ومن ناحية أخرى ، فليس أقل سخافة من هذا التفريع فى المسائل والخلط .. محاولة أخرين اقحام « دروشة » و « أحلام » « علم لدنى » و « غيبوبات » بعض « الطرق الصوفية » فى طريق سيناء ومعاركها البطولية التى تتوكل على الله ولا تتواكل . كان هذا الاتجاه غير كريم ولا يليق .. وكفى ! نعم كفى .. واذا كنت لم أرض احدا من « شراذم » هاتين الطائفتين بهـذا القول ، فيكفى انني أرضيت « ضميرى » ..

ها هـو ذا « خـط بارليف » باسـتحكاماته الحصـينة الاولى على حافة القناة بعد الساتر الترابى مباشرة .. دلالة أن العدو الاسرائيلى كان سريع الاستعداد « بالردع » شديد التصميم على منع اى عبور مصرى على طول المواجهة ومن اللحظة الأولى ، ولكنه أيضا سريع « الفـرار » الى الخط الثانى ليكر بالهجمات المضادة الشرسة وغير الهينة لولا تصميم أشد من المقاتلين المصريين البواسل على طرده واقتحام الخطـوط التالية .. وهو ما حدث تماما ، وبقدرة مصرية شجاعة مذهلة عبقرية كانت موضع تقدير العالم واحترامه ..

وفرق كبير ـ واكاد اقول .. و « مخجل » ـ بين ان اكتب هذا « الانطباع » والافكار فوق مكتب آمن ، وبين ما كتبه مقاتلونا

رعاهم الله ونصرهم وثبت أقدامهم ـ بالسلاح وبالعزيمة وبالفكر التكتيكى الذكى وبالدماء فوق خط بارليف وما بعده .

وتأملت « خط بارليف » وهو محطم أشبه بالأنقاض على مناعته ، وسرحت بخاطرى الى بورسعيد والاسماعيلية والسويس ومعامل الزيتية ومدرسة بحر البقر الخ ، وكأنما ارى على الطبيعة الفارق بين مصر واسرائيل . هنا فوق خط بارليف تدمير من جانب مصر شامل ، وهناك فوق مدن القناة وفى بعض الاعماق تدمير اسرائيلى . اليس ما فعلناه لا يعدو أن يكون « حضارة » تدمر العدوان والوحشية الاجرامية ، على حين أن ما فعله الاسرائيليون هو « وحشية اجرامية » تحاول أن تدمر الحضارة ؟ ! هل يستطيع العالم الغربى أن ينظر الى القضية تلك النظرة ؟ !

على أن أجمل ما يهز النفس ويعجزها عن التعبير ـ كما قدمت ـ هو تلك البساطة والثقة وانكار الذات فى روح المقاتلين الذين جلست معهم واستمعت لهم ـ وتشرفت ـ ساعات طويلة .

« لقد نفذنا ـ والحمد لله ـ ما عهد الينا بتنفيذه ، ولسوف ننفذ بمشيئة الله ما يعهد الينا به حتى تمام التحرير والنصر » ..

هكذا .. بلا تزويق ولا ادعاء ولا صلافة ..

« لقد كنت مسئولا عن اطلاق ٢٤ الف طلقة مدفعية لحماية قواتنا فى عبور القناة وعلى مسافة قريبة متداخلة ، وتقضى الاحصاءات المحسوبة انه من الضرورى حدوث نسبة ٨ فى المائة خطأ تصيب قواتنا ، وأشرفت على اطلاق هذا العدد كله ، ولكن « الله أكبر » .. فلم تسقط من هذه الطلقات بين قواتنا الا أربع طلقات فقط جرح من جرائها ثلاثة من مقاتلينا » ..

« تسألون عن البطولات الفردية ؟ صدقونا انها تكاد تصل الى مجموع عدد المقاتلين العابرين والآخرين الذين عملوا فى الشئون

الادارية والطبيـة . نسوا جميعـا كل شيء الا مصر وواجبهـم وشرفهم . بطولات فردية ! تجدونها ابتداء من هذا الذي رمى بنفسه فوق الاسلاك « الملغمة » ليدمرها ويستشهد مبرورا ليمكن رفقاءه من الاختراق .. الى هؤلاء الجنود القلائل الذين كانوا في « الغياب » أو قولوا « التزويغ والهروب » قبل ٦ اكتوبر وعادوا سراعا الى الجبهة ومن تلقاء انفسهم عند بدء المعارك ليشاركوا.»

.. بالله ماذا يمكن أن تقول امام هذا الاعجاز البليغ البسيط !

ما هي « نوعية » هؤلاء المقاتلين الشجعان الذين بذلوا ولم يبرحوا يبذلون في رضا وفي اصرار ؟

انهـم مصر البعث الجديد ، كما انهـم مصر العريقة المجيدة قاهرة الغزاة ».

●● العام الذى شهد الحدث الكبير

أمامى مجموعة ضخمة من « الكتابات الأجنبية » التى صدرت بها صحف ومجلات وكتب تناولت احداث سنة ١٩٧٣ سواء وهى ساخنة يوما بيوم ، او فى ضوء نظرة تقييم متأنية لسنة تعد من اهم السنوات فى مسار العالم ومن أبعدها اثرا على كيان هذا العالم واتجاهاته ومستقبله ربما لأجيال قادمة .

ان فكرة تقييم العام الماضى قد راودتنى بينما البعض يقرعون أو يترعون « كؤوس الشمبانيا » فى ليلة رأس السنة الجديدة ! على اننى قد اكون طرحت « الفكرة » جانبا لا لكونها تقليدية أو « روتينية » فحسب ، وانما لاحساس داخلى ، يفكر اكثر مما يتعصب ، بأن السنة — وربما العمر — بدأت يوم ٦ اكتوبر ، وما زالت تسترسل وتحقق اغراضها .. « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » !

ولقد اكون متنبها الى حقيقتين من المفيـد ومن المحتم ان نعيهما :

الأولى : اننا بعد لم نفرغ مما ينبغى أن نفرغ منه . اننا وسط الأحداث . نحن فى منعطف خطير حقا .. والخطورة هنا لا تعنى انه « محرج » على الاطـلاق ، بل تفيد اننا وقد امسـكنا بايدينا ـ لأول مـرة ـ « الخيوط » ، فان الموقف قد اصبح دقيقا بقدر ما هو عظيم . ذلك لأن اى « تشابك » أو « ارتباك » لا يتدارك فى هذه الخيوط قد يؤدى ـ لا قدر الله ـ الى اخراجها من بين ايدينا . ناهيك عن الأيدى « المعادية » التى تمتد وتحاول أن تشدها اليها هذا الخيط او أن تقصف ذاك ، آملة أن تستعيد السيطرة على الخيوط وعلى الموقف !

الثانية : ان جلال ٦ اكتوبر تم بالصمت أو بالأحرى ـ كما أعلن الرئيس السادات ـ بـ « سياسة الصبر والصمت ».واذا كان حق ٦ اكتوبر علينــا أن نعتز به ـ ولا نغتر ـ فمن واجبنـا نحوه الا يستغرقنا «الكلام» عنه أو «يسمرنا».والصمت فى مفهومى لا يعنى « اطباق الفم » بل اليقظة والاعداد والحـركة ومواجهة المستقبل بكل الاحكام . قد نتحرك بالكلام ـ وبالعمل المجدى ـ فى دعايتنا بالخارج .. بل نحن مطالبون تماما بهـذا « النشـاط » وبراعته وذكائه . ولكن هنـا فليكن الكلام ـ والعمل ـ اكثر عما سـوف يجرى لا عما تم .

وكان « اجمل » ما هـزنى لدى زيارتى لسيناء فى ديسمبر ١٩٧٣ ذلك الحوار الذى دار بين مقاتلينا البواسل وبينى والذى كان يدرك صعاب المـرحلة القادمة وتضحياتها وضرورة نجاحها حتى النصر ، اكثر مما يتوقف عند انجـازات العبور وتضحيات معارك ٦ اكتوبر وبطولاتها .

ولعله مما يطيب لى هنا أن الخص « المفهوم » الذى احاول التركيز عليــه فى هـــذه الحقيقــة الثانية ، « فأضمن » فيها ولها

«عبارة» كتبها واحد من أنقى الصحفيين الشبان الواعين وأنضجهم هو « محمد ابو الحديد » الذى كتب يقول : « قبل ١٩٦٧ كان كلامنا وزهونا هو الذى جعل الضربة الاسرائيلية تباغتنا وتفعل فعلتها فينا . وفى اكتوبر ١٩٧٣ كان صمتنا واستغراقنا فى الاستعداد والحشد الدؤوب هو الذى عكس الآية ، وهيأ لنا التفوق وتحقيق ما وصلنا اليه . ونحن لا نريد أن نتوقف فى بداية الطريق لنستكمل بالكلام ما بدأناه قتالا ونارا ودما .. حتى ونحن فى قمة احساسنا بقيمة انجازات اكتوبر العظيمة » .

غير اننى لم استطع ـ آخر الأمر ـ « مقاومة اغراء » الغوص فى مجموعة الكتابات الأجنبية العديدة التى تحيط بى وتدفعنى دفعا الى المقارنة بين ما قبل ٦ اكتوبر وما بعده ثم الى « تقييم عام ٧٣ » بالاستشهاد ببعض من كتابات الصحف والمجلات الاوروبية والامريكية التى بين يدى . ولست « أقتنص » موضوعا ولا أتباهى بما أنجزناه حتى الآن ، كما اننى لا أتصدى أو أعكف على « دراسة » شاملة و «بحوث» دقيقة مجهدة ، فما أحسبها مهمتى وما أحسبنى مجيدا لها .

واعترف ان « شرارة » تحريك قلمى فى هذا الصـــدد الذى « فتح الملف » كانت سلسلة من المقالات التى كتبتها فى نهاية ٧٣ مجلة « اوبزرفاتير » الفرنسية تحت عنوان « أهم أحداث العالم : حرب الســادات » وجاء فيها ـ من بين ما جاء ـ قول كاتبها :

« ان الحرب الرابعــة بين العــرب واسرائيل ستثبت فى المستقبل القريب أنها كانت أحد الأحداث الخمسة أو الستة الهامة فى التاريخ الحديث ، وربما فى التاريخ العربى باكمله . ان هذه الحرب يمكن من الآن وضــعها على قدم المســاواة ـ فى أهميتها السياسية والفلسفية ـ الى جانب الفتوح العــربية فى العصور الوسطى ، ومع النهضة التى حققها خلفاء بنى أمية ، ومع دخول

الصليبيين ، والنهضــة الوطنية العربية والمصرية ، وتأميم قناة السويس . وهى ليست مجرد نصر عسكرى ـ فذلك ليس واردا فى الحساب ـ وانما هى خطوة حاسمة قد تكون حدا فاصلا لافول نجم العرب الذى استمر خمسة قرون . فاذا كان الأمر كذلك ، فان ما يبعث على الحـزن انه تم بعـد أن سفك فى سبيله كثير من الدماء . وهو يبعث على الحزن كذلك لأن العـرب استطاعوا بالحرب فقط ؛ اذ دمروا ثلث سلاح الطيران الاسرائيلى الى جانب ثمانمائة دبابة اسرائيلية) أن يجبروا العالم على ان يأخذهم على محمل الجد . الا انه بفضل هذه الحرب استطاع العرب أن يجتازوا الهاوية التى تفصل بين التخلف والتقدم . وبها تمكنوا من ان يثبتوا للعالم اجمع ـ وقبل ذلك لأنفسهم ـ انهم لا يقلون فى شىء عن الاسرائيليين ، او عن أى شعب آخـر كائنا ما كان ، وانهم بقوتهم وعزمهم استطاعوا السيطرة على التكنولوجية الحديثة المعقدة ، وقبل كل ذلك انهم شجعان بواسل » .

ولربما تتعـدد الاحـداث الهامة فى سنة ١٩٧٣ ـ شأن كل عام .. فهى طبيعة التطور وسنته ـ غير اننا نستطيع ان نوجـز بعضا منها فيما يلى :

□ انسحاب القوات الامريكية من فيتنام بعد نضـال طويل طويل لشعب فيتنام .. والاتفاق على انهاء الحرب .

□ زيارة بريجنيف لواشنطن وتأكيد ضرورة « الوفاق الامريكى السوفييتى » كتطـوير لسياســة « التعايش السلمى » .. وان بقى الخلاف العقائدى .

□ الانقلاب اليمينى فى شيلى الذى اطاح بالنظام اليســارى الجاد لحكومتها وقتل رئيسها « سلفادور اللندى » .

□ واخيرا .. معارك ٦ اكتوبر التى دخلت التاريخ « لتطرد من تاريخنا ٥ يونيو وهزيمته المنكودة » ، ثم ما صاحبها ونجم

منها من بلورة « ازمة الطاقة » وتكريسها فى العالم الغربى كسلاح مشروع وعادل لاقرار السلام القائم على العدل فى الشرق الأوسط ، وما صاحبها من تاكيد التباعد بين أمريكا والقارة الأوروبية ، وعزلة الولايات المتحدة الامريكية عن العالم لتبقى اسرائيل ـ وحدها ـ معلقة بأذيالها .

ربما اكون قد « اغفلت » جوانب ملحوظة من احداث العام الماضى السياسية ، واسقطت من الحساب احداثا فنية وعلمية (سكاى لاب .. مثلا) وثقافية واقتصادية واجتماعية شتى ، غير اننى ـ فى النهاية ـ لست أقوم « بعملية حصر » ، ثم اننى لن اعرض تفصيلا الا لمعارك ٦ اكتوبر وأثرها الضخم على العالم ، ورأيه العام وصحافته قبلها وبعدها .

ولست أدرى ـ قبل الغوص فى « الاستشهادات » بما كتب هنا وهناك قبل وبعد ٦ اكتوبر ـ هل من المفيد أن أشير الى « اهم » أحداث العالم العربى ؟ ! انها ، على أى حال ، كانت ـ باستثناء ٦ اكتوبر ـ « لا تسر الخاطر » فى مجموعها ! فاذا نحينا جانبا عملا عظيما كتأميم العراق لشركات البترول فيها وتأميمات أخرى هنا وهناك ، فلربما لا يتبقى الا احداث دامية شهدتها لبنان ، سواء فى تلك « النزهة » الاسرائيلية الغريبة والاجرامية فى بيروت التى راح ضحيتها ثلاثة من خيرة أبطال المقاومة الفلسطينية ، أو ما اعقب ذلك من مواجهة مؤسفة بالسلاح ـ نود أن ننساها .. ولسوف ننساها ، ولن نعود ـ بين الجيش اللبنانى والمقاومة الفلسطينية .

وغيرها كثير مما نود أن ننساه ..

ربما اقول ـ بغير زهو ولا حرج ـ أن مصر كلما قويت وانتصرت فانها تقرب السبيل الى الوحدة العربية الشاملة ، وكذلك الامر فى كل بلد عربى ، فلنجعل القوة والنصر شعارنا

ولنعمل لهما حتى تنعقد الزعامة للعروبة ذاتها وليس لأحد بالذات ولا لبلد بالذات .. فليحدث اندماج أو فلتتم وحدة ، ولكن المهم فى هذه المرحلة أن نعمل يدا واحدة ولا نختلف ، وأن يحتفظ العرب بالمثل الطيب الذى ضربوه وقت معارك اكتوبر وهى مستمرة .

اكتوبر اذن هو أهم احداث سنة ١٩٧٣ بغير خلاف .

والآن .. نظرة الى ما كانت تلح عليه الكتابات الأجنبية ـ قبل ٦ اكتوبر ـ من خلال صحفها ومجلاتها .

مثلا .. تقول « جازيت دى لوزان » السويسرية فى ٧٣/٥/٣٠ تحت عنوان « مشكلة الشرق الأوسط ورابع المستحيلات » :

« يجتمع مجلس الامن مرة أخرى خلال الأيام القادمة ليناقش مشكلة الشرق الأوسط بعد مرور ست سنوات على حرب الأيام الستة . وللأسف يمكن أن نراهن على أن هذا الاجتماع لن يحل شيئا ، ان الاسرائيليين لا يقبلون الحديث عن أى شىء سوى المفاوضات المباشرة فى حين أن العرب يرفضون مبدأ اجراء أى مفاوضات مباشرة . ومن هنا يتضح أنه من السهل تحقيق رابع المستحيلات فى حين انه من الصعب حل مشكلة الشرق الاوسط » !

ويكتب « جون بلوخ » ريبورتاجا طويلا فى « الديلى تلجراف » البريطانية فى منتصف يونيو ٧٣ يبدؤه بحوار أجراه مع شاب عربى وفتاة اسرائيلية فى غزة . ويقول العربى بمرارة :

« الطرق .. هذا هو كل ما يفعلونه .. بناء الطرق ليس من أجلنا ، بل من اجل أن تتمكن دباباتهم من أن تصل وأن تواصل اجبارنا على السكوت . لا بد انهم اعظم بناة للطرق منذ هتلر » !
ويستطرد : « وفى الحال انفجرت فتاة اسرائيلية قائلة : واعتقد انه يتم أيضا بناء افران لاحراق الجثث » ! ! ثم ينهى تقريره بقوله : « ان اسرائيل قادرة ومستعدة للاحتفاظ بما لديها .

وتقول اللافتات التى تستقبل المهاجرين الجدد : « هذه الارض ارضنا . هذه الأرض أرضك » .. ولكن هذه الارض ارض عربية ايضا ، ولعلها حقيقة سوف يضطر الاسرائيليون للاعتراف بها فى يوم من الايام » .

وفى حديث أجرته « دى فيلت » الالمانية مع موشيه ديان قبل نهاية يونيو ٧٣ يسأله المحرر :

□ هل ترى ن الجيش المصرى يستطيع هزيمة اسرائيل ؟

□ ليس لديهم ادنى فرصة . انه فقط قد يستطيع ان يحارب افضل اذا حصل على طيارين المان !

□ لقد استشهدت محطة الاذاعة البريطانية بأنكم تؤيدون حق اسرائيل فى الاستيطان دائما بالأراضى العربية المحتلة فهل هذا استشهاد صحيح ؟

□ نعم . واضيف الى قولى عن الاستيطان الدائم كلمة : « والى الأبد » ! !

وتكتب « نيوزويك » الأمريكية فى ١٦ يوليو ٧٣ تحت عنوان « ريفييرا فى سيناء » :

مشيدة « بالاصلاحات » السياحية التى تجريها اسرائيل فى سيناء ، وتحويل هذه الأرض الى واحد من أعظم منتجعات الشمس والبحر للمستقبل ، والى نوع من « ريفييرا سيناء » . وتضيف انه « من البوادر الماكرة للزحف الاسرائيلى فى جنوب سيناء استمرار عملية احلال اسماء عبرية محل الأسماء العربية » . وتنهى مقالها بما يلى : « ويقول احد الاسرائيليين فى دهاء : يا لها من خريطة جميلة تلك التى اصبحت لدينا . ان شبه جزيرة سيناء تبدو كقلب كبير جدا . ثم يتساءل – وهو

المحتمل انه غير ساخر ـ أليس من العار أن نحطم القلب الى شطرين ؟ » ! !

. هكذا يمضى ديان ـ وكلهم فى اسرائيل ديان .. حمائم وصقورا ـ يحلم بمستقبل « اسرائيل الكبرى » بل يثق فى انها دائمة والى الأبد .. ولا قيمة لمصر وللعرب ولقرارات الامم المتحدة وللعالم كله ، ما دامت أمريكا تؤيد .. وما دمنا « بدورنا غافلين »!

وتكتب التايمز البريطانية فى أواخر يوليو ٧٣ عن « فلسطين .. وسوق المتاعب العالمية » :

« ان البترول هو امل العرب الكبير اليوم . لقد تخلى العرب بشكل عام عن الاعتقاد بانهم سيتغلبون على الاسرائيليين بمجرد ثقل العدد ، وتخلوا عن الاعتقاد بأن الفلسطينيين يستطيعون خوض حرب تحرير كلاسيكية على أراضيهم المحتلة ، وتخلوا عن الاعتقاد بأن الأسلحة والدبلوماسية السوفييتية يمكن أن تستخدم فى الضغط على امريكا لكى تمارس ضغطا على اسرائيل . ولكنهم بعد أن وجدوا أن المحللين الغربيين اعطوهم دورا كبيرا فى ازمة الطاقة والأزمة النقدية ، فقد كان من الطبيعى أن يأملوا فى تحويل ذلك الى رصيدهم . وأوضح طريق لذلك هو التهديد بمنع البترول عن الولايات المتحدة ما لم توافق على وقف المساندة العسكرية والمالية عن اسرائيل . ومن المؤكد ان الدول العربية المنتجة للبترول ـ باستثناء ليبيا ـ غير مستعدة فى الوقت الحالى للذهاب الى هذا المدى » ..

وفى هذا الصدد تنشر « التايم » الامريكية حديثا مع موشيه ديان « يلخص » فيه « ما يهمه » حول ازمة الطاقة بقوله :

« يتعين علينا أن نمر بفترة غير سارة لأن العرب يملكون النفط . واعتقد أن الامريكيين على درجة كافية من القوة والحكمة

بحيث لن يسمحوا بأن نتعرض للاجلاء بسبب النفط الوارد من الدول العربية » !

وتحاول جريدة «كوريرى ديلاسيرا » الايطالية فى ٢ اغسطس ٧٣ أن تبـدو كأنها « عالمة ببواطن الامـور » فتكتب تحت عنوان « السادات يهدد بالحرب » :

« يهـدد الرئيس السادات بالحـرب ولكنه فى حاجة الى السلام . ان هذا الاعتبار يبدو واضحا فى السياسة المصرية كلها خلال الأعوام الأخيرة .. غير أن المصريين اذا كانوا لا يشكون فى دخول المعركة فان المراقبين السياسيين يرتابون فى ذلك صورة أكبر لأن احاديث الحرب المتشددة يقابلها وضع عسكرى سيىء » !

ويحـدث اختطاف اسرائيـل لطائرة الركاب العـراقية فى اغسطس ٧٣ ـ بحثا عن جورج حبش ـ ردود فعل « عنيفة » لدى الصحف الغربية شأنه شأن اسقاط اسرائيل الطائرة المدنية الليبية فى سيناء خـلال فبراير ٧٣ ومصرع مـائة من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء ، ولكنه رد فعل عنيف اشبه « بزوبعة فى فنجان » أو بعاشق يشـد اذن عشيقته عند الخطأ الجسيم ـ كما تقضى الاصـول ـ ثم تخلع عليها المجوهـرات ومعـاطف الفرو ! أو لعله ـ كما قال شـاعرنا العـربى ـ : لسـانى عليه « مؤقتا » وقلبى معه !

وتحتفل « نيوزويك » الامريكية بمرور ثلاث سنوات على وقف اطلاق النار فى جبهة السويس فيكتب مراسلها الى محاته فى ٢٠ اغسطس ٧٣ بعنوان « كل شىء هادىء فى جبهة السويس » :

« ومن مركز اسرائيلى للمراقبة عند الطـرف الجنوبى للقناة رحت ارقب معاناة حارس مصرى فى معركته وحيدا ضد الرتابة . جلس ساعات متواصلة لا يدرا عنه الشمس الحامية سوى ستار صغير من الخيش ، واخيرا بدا أن الظـروف المضادة اقوى مما

يطيق فلم يلبث أن ادار ظهره الى الخط الاسرائيلى البالغ الحصانة ـ خط بارليف ـ واضطجع فى مقعده ، وهز ملازم اسرائيلى كتفه قائلا : انهم يكيفون حياتهم ونحن نكيف حياتنا ويبدو كأن كل شيء يهيأ لاقامة طويلة جدا » !

ويتعرض الاتحاد السوفييتى لحملات غمز ولمز من بعض الصحف العربية فتنبرى صحيفة « سوفييتكايا روسيا » للدفاع فى اواخر اغسطس ٧٣ :

« ان العالم كله يعرف السياسة الحازمة الثابتة التى ينتهجها الاتحاد السوفييتى فى مسألة تسوية ازمة الشرق الأوسط . فقد وقف الاتحاد السوفييتى دائما ولا يزال يقف الى جانب تسوية الموقف فى هذه المنطقة من العالم على أساس المبادىء التى تضمن حقوق ومصالح جميع الشعوب والدول الواقعة فيها وبينها مصالح الشعب الفلسطينى ، وعلى اساس سحب القوات المسلحة المعتدية الاسرائيلية من جميع الأراضى العربية المحتلة ، والجميع يعرفون المساعدة والتأييد اللذين يقدمهما الاتحاد السوفييتى للعرب » .

وفى منتصف سبتمبر ٧٣ كان الاسرائيليون واثقين من قوتهم ومن تفوقهم الجوى الى درجة الاستفزاز بهجوم اسراب من طائراتهم ـ بلغت ٦٤ طائرة ـ على سوريا . وتعلق « لوفيجارو » الفرنسية قائلة :

« وعدت سوريا بالا تجعل المعركة الجوية التى وقعت أمس بين سلاحى الطيران السورى والاسرائيلى ، تمر بدون عقاب . الا أن ردها يبدو انه سيكون ردا دبلوماسيا ، فقد قررت حكومة سوريا تقديم شكوى الى مجلس الامن . وعليه يبدو أن دمشق ارادت تجنب التورط فى الشرك الذى نصبته لها تل أبيب » .

وفى أول اكتوبر ٧٣ تكتب « صنداى تلجراف » البريطانية مقالها الافتتاحى بأسلوب بالغ الغيظ والحقد تحت عنوان « الجبن » :

« حين وافق مستشار النمسا على اغلاق طريق النجاة المنظم امام اليهود القادمين من روسيا الى الغرب فى طريقهم الى اسرائيل ، فانه سلم الفدائيين العرب ابشع جائزة قدمت لهم حتى الآن ، ذلك أن ارغام دولة متحضرة على التخلى عن الواجب الأساسى الذى يتمثل فى تقديم العون للأشخاص المضطهدين وهم فى طريقهم الى الحرية يعد انتصارا لم يسبق له مثيل للعنف غير القانونى بقدر ما يعد اذلالا لا مثيل له للسطة القانونية . ومن الصعب أن نتصور السبب الذى دفع مستشار النمسا ـ وهو يهودى ـ الى اتخاذ هذا المسلك المتسم بالجبن » !

وجاء ٦ اكتوبر .. العاشر من رمضان

وأصبح « جنرالات اسرائيل » الذين كانوا يكشرون عن انيابهم « يكشرون » فقط ، وينهارون ويتبادلون الاتهامات ! وضاعت كلمة « الى الأبد » التى اضافها ديان فى تعليقه على بقاء اسرائيل فى الأراضى العربية المحتلة ، وربما يضيع هو .. والى الأبد ! !

ودخلت غالبية الصحافة الغربية مرحلة « انعدام الوزن » من عنف الصدمة ! لم تصدق عينها بادىء الأمر ، وكانت « التلجراف » البريطانية ـ التى انهيت بها استعراضى « الطويل » « المقتضب » لما قبل ٦ اكتوبر ـ بالفة العنف والحقد على العرب كعهدها .. وان لم تكن وحدها للأسف بين صحف غربية ، أما واقعة تحت السيطرة الصهيونية ، واما فريسة سخائم فقدان النفوذ الاستعمارى فى المنطقة العربية ، واما بقية مما ترك « الصليبيون » وحربهم الاستغلالية التى لبست مسوح رجال الدين ، والتى دحرها صلاح الدين .

غير ان الصحافة الغربية ما لبثت ان افاقت وسلمت ببسالة العرب ... حتى « التلجراف » نفسها التى قالت فى ١٧ نوفمبر :

«ليس هناك ما يشين الجنود المصريين ، فكل الروايات تجمع على أنهم أبلوا بلاء حسنا فى القتال » كما قالت فى أواخر اكتوبر تحت عنوان « انتصارات السادات » :

« فمهما تكن النتيجة النهائية للحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة فان الرئيس السادات قد أحرز بالفعل نصرا شخصيا فريدا . فتلك الساعات الست الأولى من ٦ اكتوبر حينما عبر الجيش المصرى قناة السويس واجتاح خط بارليف قد غيرت مسار التاريخ بالنسبة للزعيم والدولة والجيش المصرى والشرق الأوسط كله » .

وتكتب « الجارديان » فى ١٢ نوفمبر ٧٣ كلاما غريبا ، لم نألف قراءته من قبل عن اسرائيل واحة الحضارة والديمقراطية والعلم والتكنولوجيا .. تقول الصحيفة :

« اسرائيل دولة صغيرة ، غالبا ما تتسم حياتها العامة بضيق الأفق .. فالصلات الشخصية تتدخل باستمرار حتى بين من يفترض انهم حلفاء . وكثيرا ما تكون آراء امرىء هى أقل شأنا من آخر كان من أنصار ديان أو آلون مثلا ، أو كان ممن يدعون الى مطبخ جولدا أو صالون سابير . فلكل وزير أصدقاء ذوو قدرة على اقناع أصدقاء لهم فى الصحف المحلية . والقرارات تتخذ بعفوية . والبيروقراطية مرتبكة وعديمة الكفاءة . فاسرائيل تمضى متخبطة . على أن قطاعا من الحياة فى اسرائيل كان يبدو ـ حتى هذا الخريف ـ فى حصانة من هذا الارتباك . فقد كان الجيش مختلفا عما عداه ، كانت قيادته تتجدد ، وكان سلاحه ومعداته تمثل كل ما يمكن للتكنولوجيا أن تقدمه . وقد اشتهر فى معاركه بالجرأة والسرعة . والصدمة الحقيقية الناجمة عن حرب عيد الغفران هى أن الجيش قد تبدى غير مختلف عن بقية اسرائيل . فلقد تخبط وتعثر اذ فوجىء فى اغفاءة وادعة » .

وكانت قد كتبت مقالا آخر فى ١١ اكتوبر بعنوان « العرب يحطمون اسطورة اسرائيل » تقول فى حماسة زائدة وحمية : « بالرغم من أن النصر والهزيمة يتم تقييمهما بعد الحرب ، الا أن الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل ابدت اسرائيل فى النهاية شيئا يقهر . فالعرب على الجبهتين المصرية والسورية يقاتلون كجنود وهم منظمون وقادرون على النزال كما أن المعارك تدار بذكاء » .

وتكتب « الموند » الفرنسية بعد حرب اكتوبر :

« ان القول بأن الشعب الفلسطينى قد ترك أرضه ودياره وفر هاربا ، لا يعني أن هذا الشعب فقد حقه فى بلاده . وانما هو فقط تسليم بأن هناك جريمة جماعية ارتكبتها اسرائيل ازاء شعب برىء . ان الحكومة الاسرائيلية والرأى العام الاسرائيلى نفسه يريدان الاحتفاظ بأكبر قدر من المكاسب وتقديم أدنى حد من التنازلات ، وهذه سمة من سمات اليهود . ولكن لأن « أصدقاء » اسرائيل المزعومين يستمرون فى تشجيع هذه الدولة على التقدم بمطالب مغالى فيها فهذا هو الأمر : انه لا يمكن لاسرائيل أن تحصل على السلام ولها هذا التاريخ الخطر » .

وهكذا نقرأ كلاما جديدا على أعيننا ونسمع نغمة ما تعودتها اذاننا .. والفضل يرجع الى ٦ أكتوبر فهو الفعل الذى حمل التاريخ والمتحكمين فى التاريخ على تغيير المسار طوعا أو كرها . وهذا ما يدعونا الى التمسك بـ ٦ اكتوبر وسلاح ٦ اكتوبر واستمرار ٦ اكتوبر بكل ما يعنيه من يقظة وبعث واصرار وتحرير فى مختلف المجالات .

وتقول « الفينانشيال تايمز » البريطانية فى منتصف نوفمبر ٧٣ :

« يختلف الموقف تماما الآن عما كان عليه بعد انتهاء الحرب الماضية فى عام ١٩٦٧ . لقد قدمت الحرب دروسا من المحتمل

أن تؤثر فى التفكير الاسرائيلى بل تغير منه . لقد تبدل الموقف العربى اليوم بالمقارنة بالشعور بالمهانة الذى ساد عقب حرب الأيام الستة ، ومن المهم جدا ضرورة ادراك الاسرائيليين لما يمكن أن يعنيه ذلك والا ندموا أشد الندم . ويرجع ذلك من ناحية الى اداء القوات العربية العسكرية الذى اجاد وأبلى بلاء حسنا ، ولا شك أيضا فى انه يرجع فى ناحية أخرى الى نتائج كسر الجمود الذى ران على الموقف خلال السنوات الماضية . وأخيرا فانه يرجع الى اكتشاف العرب لسلاح البترول واستخدامهم له بفاعلية ملحوظة » .

حتى « الفيجارو » أكثر الصحف الفرنسية يمينية تسمح بنشر مقال للجنرال بوفر فى ٢ ديسمبر ٧٣ تقول فى نهايته :

« لقد اقتنعت تماما بأن انتهاج اسرائيل لأى سياسة تنزع الى الحرب سيكون من شأنه القضاء على اسرائيل تماما بعد فترة . وانى أتمنى أن يتجاوزوا اعتبارات الدعاية والكبرياء وأن يتخذوا موقفا متبصرا » .

وتقيم « نيوزويك » الامريكية فى ختام العام .. سنة ١٩٧٣ فتقول :

« أوحت كل المظاهر بأن السادات قد أرجأ الى اجل غير مسمى عام الحسم الذى كثر الحديث عنه وما كان هذا سوى خيال خادع ، فان جو السكينة الذى دبر ببراعة ، تهشم بهجوم عربى كاسح يوم ٦ اكتوبر .. وفاجأت الحرب اسرائيل والغرب ومعظم العرب على غرة تماما ، وشهدت صورة الشرق الأوسط تغيرا جذريا بعد أن كانت لوحة ثابتة غير حية طيلة السنوات الست الأخيرة ، ولقد اعترف لنا دبلوماسى اسرائيلى بعد أن توقفت حرب يوم الغفران بقوله : « لقد انقلب كل شىء رأسا على عقب ، وظهر أن عالمنا الصغير الأنيق انما صنع من قشر البيض » !

وبعــد ..

الكلام كثير .. والاختيــار محير ، ولست أدرى ما اذا كنت قد احسنته أم تهت بين دهاليــزه أو اغرقتنى امواجه .. ربما يشفع لى أننى وددت الا يمر عام ٧٣ الذى نضر بيوم ٦ أكتوبر . وهو اليوم العاشر من رمضان ، بغير أن أحتضن العيد الذى أطلعنا فجره بعده ! وأن أرى حتى من خــلال الصحافة الأجنبية كيف تسللت خيوط الفجر المصرى العربى وانعــكست فى سطورها وهى تبدد الظلمات !

بقى أن أقول ما قلته فى تقــــديم كتــابى « كلام عنــا وعن اسرائيل » :

« ولربما كان ما كتب عن ٦ اكتوبــر مقارنــا بما كتب عن ٥ يونيه هو ـ بقصر زمانه ـ الجانب الأقل ، مــع كونه ـ طبيعته وبمتغيراته وبمعانيه الجليلة ـ الجانب الأهم !

غير أن فصول ٦ اكتوبر لم تكتمل ـ برغم كونهــا كمــالا فى ذاتها ـ ولم تصدر فيها بعد الكلمة الاخيرة ، وان ثقتنا لأكيــدة فى أنها ستكون كلمة عربية ، تمثل ارادة امة عربية ، وتنتزع نصرا عربيا بمشيئة الله » .

●●● .. وكلهم أبطال

في الساعة السادسة والنصف من صباح « يوم الابطال » — ١٩ فبراير ٧٤ — استيقظت على أصوات تأتى من بعيد ، ولكنها تهز النائم فتوقظه كما تهز المشاعر ! وحسبتها أول الأمر « الاذاعة » تنطلق من راديو الجيران . ولكنى لم البث ان تبينت — وشاهدت بنفسى — انهم صبية صغار فى سن العاشرة أو أكثر قليلا تجمعوا ليستعدوا « بطابور سير » للاصطفاف تحية لموكب الأبطال ، وكانوا يتناشدون بصوت له عذوبة وشفافية الملائكة كما يحمل دوى الرعود : خللى السلاح صاحى .. صاحى !

ما هذا الذى طرأ على حياتنا ؟ ربما كان هؤلاء الصبية انفسهم هم الذين يتسابون من قبل بأقذع الشتائم ، أو على الأقل يتغنون بأرقع و « أهيف » الاغنيات !

لماذا هذا النشيد بالذات ؟ وما سر ذلك الوعى المبكر ؟ لم يعبأوا بان يتركوا فراشهم الدافىء مع الفجر — وانه لفجر جديد

حقا ــ ولا هم اهتموا بأناقة الملبس فلعل بعضهم كانوا شبه حفاة ، ولا حتى عنوا بان يتناولوا طعام افطارهم .. فالذى يترقبونه من غذاء روحي أهم وأجل .. وان يكن الغذاء الروحى هو المقدمة والسبيل للغذاء والرخاء !

على ان « السر » لم يكن خافيا . انه ــ ببساطة ــ روح ٦ أكتوبر الذى هو على سبيل القطع امجد أيام مصر الحديثة واكثرها أملا ..

ولا داعي « للاعتذار » اذا مافتئت أردد تاريخ ٦ أكتوبر بكل ما يرجى منه وينفتح اليه ، فكلنا فى هذه المشاعر والافكار سواء ..

ولم تمض ساعات قليلة حتى كان قائد نضال هذه الامة الرئيس انور السادات يعلن « عهدنا ان نظل نحمل السلاح حتى تتحرر كل الارض العربية من العدوان والاحتلال .. عهدنا الا نفرط او نساوم على حقوق أهلنا شعب فلسطين » .

ذلك اذن هو « ضمير الشعب » من القاعدة الى القمة ..

ويحدد السادات ــ فى ايمان أصيل وفهم ديموقراطى صادق ــ بعض معالم الفجر الجديد ، وصلة الحاكم بالمحكوم فيقول « فجر يرفع فيه كل مواطن رأسه في كبرياء ، ويحنى فيه الحاكم رأسه طاعة للشعب بعد أن أصبحت السيادة للشعب » .

غير انني ــ من شرفة مجلس الشعب فى يوم الشعب والابطال والنصر ، وانه ليوم لو تعلمون عظيم ، وله ما بعده من مزيد فى الشعبية والبطولة والنصر ــ لم أستطع أن اسمع بوضوح ختام تلك الفقرة من الخطاب ، وان كنت أدركها جيدا. فما كاد الرئيس السادات يقول « ويحنى فيه الحاكم رأسه طاعة للشعب .. » حتى غطى التصفيق الحاد المتصل على الصوت الواثق المتواضع ، وكان

ممثلى الشعب وهم يحملونه بتصفيقهم فوق الأعناق ، « ينوء » هو بحملهم وحمل الشعب كله فوق الأعناق . قد ينوء فى بسالة وتضحيات وإصرار ، وقد يخفت فى جسارة وايماءات واضحة ، ولكنه لا يضيع . فما يضيع صوت ولا عزم رفعا نية خالصة تؤكد ان « السيادة أصبحت للشعب » ، وان عهدا سديدا قد تعزز ، وان فجرا جديدا قد بزغ ..

ووجدتنى كما وجدت الحاضرين والناس جميعا نكاد نشرق ببحر من الدموع النقية المشرقة. فالجلسة تاريخية بالمعنى الصادق للتوقيع على مرحلة من التاريخ بحروف من نور ، والمشاهد التى تتوالى مؤثرة .. بالغة التأثير ..

وابتداء نقف للشهداء ، فللشهداء جلالهم — وأى جلال — فقد كان عطاؤهم بالدماء والأرواح حتى الثمالة باستبسال المقاتلين الشرفاء ثأرا لهذا الوطن الكريم وحبا فيه ، واذا لم تكن صورتهم وذكراهم ورعاية اسرهم مقدسة وعظيمة لدينا فما استحققنا ان ننتمى لمصر العظيمة ، ويجب ان نستحق .. فينبغى أن تبقى مصر عظيمة كريمة بنا .

ولم تكن الخطب تقليدية .. فليست هذه مناسبة عابرة عادية ، ولكنها تحيى العبور وتسجل البطولة وتخلد المعركة التى ان لم تكن قد حققت بعد النصر كاملا فهى بالتأكيد أول نصر حقيقى — كما قال الرئيس السادات — منذ مئات السنين لهذا البلد الذى تحمل كثيرا .. البلد الذى وضع بصماته على السنين والحضارة فى العالم كله .

لكأنه يوم ٦ اكتوبر .. نعيشه من جديد فيعطينا جرعات دافعة ، وليست جرعات مخدرة أو مغرورة .

وبين التقارير العسكرية المحكمة أحكام المعركة العسكرية ، وبين الترقيات المستحقة بجدارة ، وبين الاوسمة والانواط التى

صنعت من حبات قلوبنا للقـادة والضباط والمقاتلين البسطاء ؟ وبين الحـوار الـرائع « المقصـود » ـ كان لا بـد أن يقصـد ويوضح ويعلن على الملأ ـ الذى دار بين القـائد الأعلى للقوات المسلحة وقائد الجيش الثالث والذى كان وساما اضافيا رائعا لمدينة السويس الباسلة الصامدة ولقـوات بـدر فى سيناء التى تقدمت وكسبت مساحات جديدة ولم يسلبها العدو شيئا ، وبين .. وبين .. مما لا يقف عند حصر ـ سبحت وسبحنا جميعا فى لون كاكى أصفر حبيب لعله رمز لقواتنا المسلحة التى هى أمل مصر ودرعها ، أو لعلنا كنا نتمثل أيضا رمال سيناء المحررة والتى ستحرر كاملة .. وبرتقال فلسطين !

هذا يوم البطولة وعيدها . فكلهم أبطال بحق : كل من شارك .

وجديرة بالاشادة هنا كلمة بديعة معبرة ومليئة باحساسات قائد ثائر مقاتل جياش المشاعر مرهف الحس هو الرئيس هوارى بومدين عندما قال :

« ان اهم الجوانب الايجابية لمعركة العاشر من رمضان هى وحدة الصف العربى ... كانت وحدة تلقائية بلا قرارات ، واثبتت أن هناك قوة كامنة فى هـذه الأمة تبرز وتتألق فى كل منعطف تاريخى .. فقد هب العرب جميعا : منهم من حمل السلاح ليقدم دمه ومنهم من دعم المعركة بتوفير الاسلحة أو باستعمال سـلاح البترول أو بمختلف طرق الدعم . حتى تبرع المواطن العادى بدمه لجرحى المعركة او بالحياة ٢٤ ساعة متتبعا اخبار المعركة .. »

وفوق هذا الضوء الكاكى الأصفر الذهبى كان يعلو نور الفجر الجديد الذى بدد ظلمات الهزيمة ، والذى طلع علينا مع العبـور الجسور الخالد لقواتنا المسلحة الباسلة التى اجتازت يوم السادس من اكتوبر الموانع المائيـة والسواتر الترابيـة والاستحـكامات الحصينة .. واجتازت معها التحديات ، وصنعت ـ فى سخـاء

كم ترقبناه ـ ذلك الفجر الجديد الذى ترجم عنه الرئيس أنور السادات فى ١٩ من فبراير ١٩٧٤ ـ كما ترجم بقراره يوم ٦ اكتوبر عن نبضات شعبه ـ بقوله :

« فجر تتدعم فيه قلاع الحرية لتندك فيه كل دعاوى واطماع الاقوياء . فجر الحب والبناء .. فلا مكان هنا بعد اليوم للحقد أو الضغينة والبغضاء . فجر لا ذل فيه ولا اذلال ولا ظلم ولا طمع ولا استغلال .. فجر .. السيادة فيه للتحالف العظيم لقوى شعبنا العاملة . الارض لاصحابها والخير كل الخير لمن يزرع الخير ويرعى القيم » ..

خيوط الفجر الجديد متجمعة اذن .. وكلمات القائد تعبر فى صدق . وحق لتحالف قوى الشعب العاملة ـ بزعامة الرئيس المناضل ـ ان يواصل المسيرة ويلتقط الخيوط ويحرص عليها وينميها ويخلدها ..

ان تحية « قصة بطولة مثاليـــة وحقيقيـــة » حـرية بالتناول . لمثل هذه البطولة ينبغى أن « تصـدق » الكلمات وتكرس وتردد الأناشيد وتقام الاحتفالات . فبمثلها تتحرر الامم وتتقدم وتكتب تاريخها . انها ليست « رمزية » ، ولكنها بالفعل رمز حى لعل نماذجه لا تعد ولا تحصى بمثل عدد القوات المسلحة المصرية البرية والجوية والبحرية .. عدد خط القنـاة الصامد المشرف : سويسه واسماعيليته وبورسعيده .. عـدد الشعب المصرى .

غير ان هذه القصة « غير الخيالية » ـ والتى تبدو أغرب من الخيال ـ ما دامت قد عرفت فوجب أن نقف عندها ، ونقف لها اعزازا واحتراما وشكرا وأملا ، ونصيح بأعلى صوتنا وبأخلص وجداننا : هذه هى مصر !

امتنا « ملأى » بالايجابيات ، ولكنها أيضاً « ظمأى » لأن تمارسها ، وان تبدو هذه الايجابيات للعيان لا « تباهيا » وانما « حفزا » .

ولقد كان ٦ أكتوبر « الشرارة » لتكشف مصر – أكثر واكثر – عن معدنها الأصيل . و ٦ أكتوبر ليس « حكرا » لأحد ، ولا هو – تحت اى شعار – « تكأة » أهواء ، ولست « أرمى » هنا على أحد بذاته – طبعا – فلعلنا ان نكون قد تعلمنا من المقاتلين شجاعة المواجهة . انما ٦ أكتوبر ملك للشعب المصرى كله .. للشعب العربى كله . انه أعظم ما انجزه البطل المناضل الرئيس انور السادات وأكثره املا وانفتاحا لتحرير الأرض والارادة والمجتمع ، كما أنه أيضا أعظم انجازات الشعب المصرى والعربى وأكثرها أملا .

فكيف لا نسعد – كما سعدنا بمعارك أكتوبر ويوم الأبطال وحييناهما – بفدائية هؤلاء « الخمسة » ونحييها !

ففى التاسع من شهر مارس ٧٤ التقى بى وتوافد الزملاء محمد حسين شعبان وابراهيم عمر واحمد عبد القادر ، وهم من « قوة الجمهورية الضاربة » الذين غطوا – باقدام واقتدار – الأنباء والتحقيقات المصورة لمعارك أكتوبر المجيدة وما بعد أكتوبر كمراسلين عسكريين ، فضلا عن الزميل رياض سيف النصر – صريع هوى السويس « ومؤرخ » بطولاتها الفردية والجماعية – وكثير من العاملين الدائبين فى « الجمهورية » الذائبين كلا فى واحد ، وواحدا فى الكل .. الذائبين فى حب مصر والعروبة ..

وسألونى : ماذا تقول لو علمت أن ثمة خمسة رجال مقاتلين من رجال الصاعقة ، ظلوا يعملون خلف خطوط العدو الاسرائيلى « المقهور » منذ الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر الخالد : يقطعون مواصلاته ، ويدمرون دباباته وحصونه ، ويقتلون العشرات بل المئات من جنوده المجرمين ، ويغنمون أسلحته وطعامه ، واذا

نفذ الطعام يقتاتون أحيانا بالحشائش ، ويختبئـون نهـارا من طائرات الهليكوبتر التى تفتش عنهم والقوافل المجندة التى جنت بحثا عنهم ، ويعودون بالليل الى هوايتهم المفضلة فى اقلاق راحة العدو وتكبيده خسائر فادحة ... ماذا تقول لو عرفت انهم مكثوا هكذا خلف خطوط العدو ينالون منه ولا ينال منهم حتى عادوا وانضموا الى قواتنا فى ٦ مارس ٧٤ .. اى خمسة اشهر نادرة وجليلة بالتمام والكمال ؟!

هل يمكن الا ان أقول ويقول كل انسان : مصر بخير ، وهذه هى مصر الحقيقية عبر التاريخ .. مصر الصابرة القاهرة ، التى هزمت التتار ، وطردت الصليبيين ، ودحرت الحملة الفرنسية ، وكافحت الاحتلال البريطانى ابتداء من ثورة عرابى الى ثورة ١٩١٩ ، الى ثورة ١٩٣٥ ، الى أعمال الفدائيين الباهـرة فى المعســكرات البريطانية بالقناة ، الى اباء جنود الشرطة التســليم للهجـوم الاستعمارى الشرس بالاسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، الى عشرات وآلاف المواقف المضيئة التى تعالت على خيانات نفر قليل من اعداء مصر فى الداخل ومؤامرات اعدائها من الخارج .. الى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى قضت ـ بمحصلة النضال الطويل ـ على الاحتلال البريطانى وعلى كل أثر للاستعمار والى الأبد ، الى تصديها للغزوة الصهيونية الهمجية التوسعية التى لن تلقى ـ وعلى سبيل التأكيد وبمشيئة الله ـ الا مصير اخوات لها من قبل مقتولات أو منتحرات !!

وليس يهم ما نقول ، بل ماذا يمكن ان نفعل لهـؤلاء الخمســة العائدين ولأمثالهم ـ بعد خمسة أشهر بالغة الروعة والاعجاز ـ كنموذج فذ ، وهم بقية من مجموعة باسلة اشــتاقت ان تقـاتل بأسلوبها الفدائى للثأر من السفاحين المغتصبين ، كما اشتاقت الى شرف الاستشهاد فى سبيل هذا البلد العظيم .

وددت لو أنعم بعناقهم .. لو ألثم بدموع الفرح والعزة والكبرياء التراب الذى حرروه وقتلوا فوقه الغاصبين وسجلوا عليه بجذع

ملاحم البطولة . وددت لو أبذل روحى وافتديهم .. فانني أرى فيهم مصر ..

قالوا : لا عليك ! ان منتهى امانيهم ان يعودوا للخدمة فى قوات الصاعقة وان تتاح لهم الفرصة لقتال العدو مرة اخرى حتى النصر النهائى .

ثم استطردت مجموعة المراسلين والمصورين العسكريين بالجمهورية قائلة : لقد فاتنا ان نذكر شيئا لم يفتهم !! هل تعلم أن هؤلاء الابطال ـ وبرغم الظروف العصيبة التى كانوا يجتازونها ، وخلال المعارك الدائبة التى خاضوها ـ لم يفتهم اداء فرائض الصلاة كاملة وفى مواقيتها ؟ .

« بعد » جديد يضاف ، ويؤكد ويرفع علم دولة العلم والايمان ، ويطوع النصر ويعزز ايماننا بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » « ولينصرن الله من ينصره » ..

ولقد كانت هذه الروح الجادة المتبتلة ـ والجدية والتبتل غير التواكل و « الدروشة » ـ هى التى لمستها ـ باعجاب لا بتعجب ـ لدى زيارتى للجبهة ، وهى ذاتها التى سمعتها مصادفة من فم « العميد أبو غزالة » يرويها فى برنامج « فنجان شاى » بالاذاعة ، وهو يصف استعدادات المدفعية والتدريب الشاق والتصويب الدقيق المرفق الذى شارك فى معركة أكتوبر ، ثم لا ينسى ان يذكر الله عز وجل مرددا قوله : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .

ان هؤلاء المقاتلين « البسطاء » الذين آثرت ان اكتب عنهم ، والذين هم « واحدهم بألف » ، العاملين فى صمت ، الذين ينكرون ذواتهم ولا يتطلعون لشىء الا لأداء الواجب المقدس ، هم « دليل جديد على شجاعة المقاتل العربى » على حد تعبير وزير الحربية المشير احمد اسماعيل على .

صورة متكررة تصنع الشرائقة تاريخنا وتبدد الظلمات . تجدها فوق « كوبرى عباس » فى زمان بعيد .. فى ساحة من ساحات

الاسكندرية .. فى موقعة رشيد .. فى موقف خالد للمنصورة .. فى نضال دائب بالصعيد . فى تحد فدائى ببورسعيد .. فى اصرار صامد بالسويس .. فى ملحمة بالفالوجا .. فى ملحمة اخرى بكبريت .. فى كل مواقع الكفاح التى ينتظمها خيط واحد نقى سخى الصفاء يختلف تماما عن شىء آخر لا نعرف كيف نصفه ، وربما كان اسمه « فن اختيار المواقع وتغييرها » !

هذه الصورة المضيئة المتفانية ـ غير الفانية ـ تطبق بايمان قول العزيز الحكيم : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ..

ولعله من توافق التواريخ اننى فى النصف الأول من مارس سنة ١٩٧٢ كتبت مشيدا بالفيلم المصرى الأمثل عن معارك ٦٧ .. فيلم « اغنية على الممر » الذى يصور قصة « مؤلفة » عن صمود خمسة من المقاتلين المصريين فى مواقعهم . وقلت « اننى غير مستطيع ان احبس صيحة اعجاب ؛ غير قادر على ان اكتم الشهادة ، اننى امضى انشد مع أبطال الفيلم : « ابكى . انزف . أموت . وتعيشى يا ضحكة مصر » ..

وبعد عامين نرى القصة واقعا لا خيالا ، وفى الهجوم وليس فى الدفاع فحسب ، فكيف نحبس صيحة اعجاب ؟!

كيف لا نشعر انه عيد جاءنا بعد العاشر من رمضان ؟ !

ان هذه الصيحة مزيج من « الرومانسية » و « الليبرالية » و « النزعة المصرية العربية » و « العقلانية » .. قد أتصورها كذلك وقد لا يرى غيرى فيها هذا المزيج .. ولكنها فى النهاية تريد ان تقول ما نقوله جميعا : هذه هى مصر .. وتحيا مصر ..

شدتني اليها أشياء واشياء . شدتني ذكريات عامة وخاصة .. شدتني معايشة مواقف صلبة جليلة انتفض فيها نبضها وعلا - تحفزا ومقاومة واصرارا ، لا فزعا أو جزعا أو حتى استنجادا - وهى تواجه منذ الثلث الأخير من اكتوبر ١٩٧٣ حتى رحيل الذئاب المحيطة المأجورة المسعورة ، حملات عدوانية ضارية .. عسكرية ونفسية ، فتقف على قدميها ثابتة وترفع علم مصر وتصونه ، بل تفقأ بساريته عيون اعدائها ! شدتني على هذا كله تأملات فى حاضرها ومستقبلها كى اراها وأفكر فيها ولها على الطبيعة ..

والكلام هو - كما لا يخفى - عن السويس الباسلة وقناتها ومنطقتها الصامدة غربا وشرقا ، وقوات بدر العظيمة التى استحقت اسم الغزوة الفاصلة الخالدة .. واسم عملية العبور المجيد فى العاشر من رمضان ..

ولا موجب للاعتذار . لن اسأم ـ ولن يسام أحد ـ الحديث عن المعركة ، فنحن لا نزال في قلب المعركة ! وشعار « المعركة مستمرة » مستمر ، وهو يترجم عن مشاعرنا وأفكارنا وعزيمتنا جميعا . فاذا كنا قد فرغنا ـ الى حين ـ من مواجهة عسكرية ، ونتصدى الآن لمواجهة سياسية ، فاننا نستعد ايضا ـ كما أكد الرئيس السادات ويؤكد دائما ـ لأى مواجهة عسكرية قادمه ، ما دام العدو لم يستوعب الدرس بالقدر الكافى فيما يلوح .

وكنت كما كان غيرى كثيرون قد دعونا الى تنظيم رحلات جماعيه لزيارة الجبهة ومنطقة القناة وسيناء ـ وبالاخص السويس ـ ليشاهد شعبنا وجيله الجديد بالتحديد كيف جرت « معجزة » العبور وكيف يمكن ويتحتم ان تبلغ ارادة « التحرير » غايتها حتى آخر حبة رمل محتلة (ولست أريد هنا ان « اتزيد » كثيرا فأقول أن من حقنا ـ نحن أصحاب هذه المنطقة العربية الخالصة منذ الاف السنين ـ الا نحدد ما هي آخر حبة رمل محتلة ،وليس « اسرائيل » التى « تبلطج » بالعدوان والتوسع وتزعم ان من حقها الا « ترسم » على الخريطة « حدودها » المزعومة) !

وكنا وما زلنا ندعو باصرار الى التعمير والبناء والانفتاح ، ولكن ربما رأينا ان « نتريث » في تعمير مدن القناة قليلا ـ بطبيعة الحال ـ لنتيح الفرصة لأضخم عدد مستطاع من شعب مصر كي يشاهد « الدمار » الذى أحدثه أعداء الانسانية في منطقة القناة بالذات حتى « تتعمق » المشاعر « الانسانية الواجبة » تجاه هؤلاء الاعداء المدمرين ..

ولقد « عبرت » القناة في ديسمبر ١٩٧٣ من الاسماعيلية الى سيناء والقنطرة شرق ، ولكنى لم أر السويس وبورتوفيق و « اعبر » الى الشط وعيون موسى الا في ابريل ٧٤ .. ويا لها من رؤية !

ولسنا ندرى كيف استطاع قائد السيارة ـ والدليل الذكى ـ ان يحجبا عنا آثار التخريب الرهيبة ـ التى هى ابشع من ان تصدق ـ منذ ان توقفنا امام « المثلث » فى مدخل السويس الى ان بلغنا الشط وعيون موسى ثم عدنا لنشاهد المدينة ـ أو بقاياها وحطامها ـ وكأنما نشاهدها لأول مرة ؟!

ربما كان مرجع ذلك الى اللقاء المشوق الشائق ـ الذى كان « براعة استهلال » الرحلة ـ مع بطلين من أعز أبطال حرب رمضان اذ استولى على البابنا ومشاعرنا . لقد كان حلما أن نصافح وان نجلس لنستمع الى اللواء احمد بدوى سيد أحمد قائد الجيش الثالث(العابر ، الصامد ، الملىء بالثقةوالجسارة ، المتقدم ، المتحدى لمحاولات الحصار) ، والى اللواء حسن أبو سعدة (القائد الذى حارب كأصغر مقاتل وكأكبر مقاتل على السواء ، وحطم اللواء الاسرائيلى المدرع ٩١ وأسر قائده عساف ياجورى) ولكن ها هو ذا الحلم يتحقق ، وها نحن أولاء نعانقهما وكأننا نعانق مصر الباسلة ، ونسمع اليهما وكأننا ننصت الى ضمير مصر الواعية ..

ربما أخذنا بالشعارات الغالية العملية الصادقة التى طالعتنا فى مدخل المدينة مكتوبة على دعائم جدران آيلة للسقوط فلا تسقط ، وكانت هى من بين ما « فتننا » وشغلنا عن تأمل آثار العدوان . الا تهزك كلمات تقول : « تدمير ٣٣ دبابة للعدو .. نيشان على صدر السويس » و « بالشعب والجيش .. صمدت السويس » و « عايزين اللى راح .. قدامكم الميدان » و « ٢٤ اكتوبر يوم خالد فى تاريخ السويس » ؟!

ربما كان السر يكمن فى هذا الشرح العذب المتدفق الذى تبارى فيه رفقاؤنا عن تفاصيل صادقة للمعركة والصمود تفوق فى غرابتها واسطورتها قصص « الحروب السينمائية » « المحبوكة » ، لولا ان هذه قصة نسيج وحدها ـ لا من نسج

الخيال – سالت فيها الدماء الحقيقية الشريفة ، واستمدت ارادتها الصلبة البطولية طاقتها من جذور عميقة فى هذه الارض الطيبة .
واشتقنا ان نعرف اسم هذا المقاتل الجندي البسيط الذى تسلل الي سطح المبتى « وحصد » بمدفعه الرشاش « ثلة » من جنود الاعداء المحيطين ، فدب الفزع في جموعهم ، وولوا الادبار ، وتغير الميزان . ولكنه استشهد ولم يسجل احد اسمه ، وذهب واحدا من جنودنا المجهولين الابطال .. « وما يعلم جنود ربك الا هو » !

ربما اختفى « التخريب » عن عينى – بعض الشيء – بتلك « السرحة » التى عادت بي ثلاثين سنة الى « خلفية » الزمن والذكريات ، وأنا اجتاز منطقة الشط حيث قضيت فيها سنتى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ضابطا صغيرا في فجر ربيع العمر وازهى ايامه اتولى قيادة « تروب مدفعية » فأطلق النار – بحكم الظروف – جنبا الى جنب مع قوات الاحتلال البريطانية فى نهايات الحرب العالمية الثانية ، وأمارس في نفس الوقت هوايتى الصحفية فأكتب لصحف « مصر الفتاة » بتوقيع مستعار مقالات « نارية » ضد الاحتلال البريطانى والاستعمار الجاثم ! واخلد فى سكون الليل الى القراءات والاشعار والوجدانيات على « لمبة جاز نمرة ١٠ » فى بطن « خيمة » بصحراء الشط .. تلك الاشعار الوجدانية التى طبعتها فى ديوان « تجرات » فأهديته لابى لا لمقام « جلالة » قائد الجيش الاعلى – وما علينا من « المتخصصين » فيه : كما كان غالبية المتبع عادة فى ذلك الحين – وأصدرته « قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بقليل .. » .. وهذا « القليل » هو خمس سنوات – شديدة التغيرات – أى أنه صدر فى سنة ١٩٤٧ .. ! ولم أكن بعد قد بدأت دراسة القانون فى كلية الحقوق لاعرف ما هى اركان « القذف » والتحريض والاتهامات الباطلة والبلاغات الموتورة !
ولم اكن ادرك انه سوف يأتى بعد ثلاثين سنة حاكم فى مصر يعلى « سيادة القانون » ، وينتصر للمقذوف فى حقهم بأن يرد كيد الكائدين الى نحورهم ، ويصفعهم بكلماته على الملا !

وربما شغلتني التجربة السخية المتجردة لمصر وكرامة مصر التي راح يحكيها لنا قائد لواء يجمع بين شفافية الملائكة وصلابة المقاتل . كان يذوب خجلا من نتائج هزيمة يونيو ٦٧ الظالمة المظلومة. وكان يذوب وجدا في حب هذا البلد وشرف قواته المسلحة . لم يهرب سنة ٦٧ ولكنه طيلة ستة اعوام وأربعة أشهر كاد يهرب من نظرات اسرته ـ أمه وابنائه ـ واسئلتهم : متى هو ؟! لم يستطع ان يواجههم الى أن تمكن أخيرا في ٦ أكتوبر ٧٣ من مواجهة العدو . وعبر .. بغير التفاف ، وانما باختراق مباشر لاقوى نقطة حصينة في خط بارليف شرقي السويس .. وبغير دبابات (لم تصل اليه الدبابات الا في ٩ اكتوبر) وانما بصدر مفتوح وبقلب حديد ! واستطاع مع قواته ان يستولي على الموقع ، وان يتقدم في العراء ، وان يحطم دبابات لا تحصى كان يشير الى حطامها امامنا ذات اليمين وذات اليسار . وكان يقص علينا نماذج نورانية فدائية مستبسلة لاصرار المقاتلين المصريين وكفايتهم وبطولاتهم المقتدرة ، حتى وددنا معه لو نقتل في سبيل الله وفي سبيل هذا الوطن العزيز ثم نحيا ثم نقتل ثم نحيا .. وهكذا مائة مرة ! وعندما وصل بنا الى مشارف موقع عيون موسى البالغ التحصين ـ وكان القائد المصري قد عزز بالدبابات يوم ٩ أكتوبر ـ أخذ يروي لنا كيف اتبع « تكتيكا » لم يرد في كتب عسكرية .. بل لعلها تخطئه . ولكن هذا التكتيك المبتكر « الخاطىء » الشجاع كان هو نفسه السر في استسلام الموقع واندحاره .. وأي موقع ! ترسانة محصنة مسلحة ، كأنه « المؤسسة العسكرية الاسرائيلية » ذاتها في قلب الصحراء بالازرار الكهربائية والالكترونية وآلاف أطنان الحديد والأسمنت المسلح التي صممت بحيث لا تؤثر فيها قنابل المدفعية والطائرات مهما يبلغ وزنها ! وفي ذات الوقت زوده « السفاحون » بستة مدافع ضخمة عيار ١٥٥ ملليمترا صممت ووجهت فوهاتها وقنابلها بحيث تغطي قطاعات السويس .. قطاعا قطاعا « وتتسلى » عليها و « تقسم » وتهدم .. قاتلهم الله اني

يؤفكون ! غير ان هذه المدافع نفسها كادت تصبح « الآن » أثرا بعد عين ، فقد قهرتها الارادة المصرية .. والانسان المصرى . وماذا يمكن ان يقال عن « الانسان المصرى » أجمل ولا أدق ولا أصدق مما عبر عنه الرئيس السادات فى خطابه العظيم الحاسم الصادر عن ثائر وزعيم ورجل دولة وانسان حر واسع الافق .. وابن مثالى الاخلاص لمصر وشعبها والاعتزاز بهما ، والذى قال فيه مساء الاربعاء ٣ أبريل ٧٤ :

« وكما أن الانسان المصرى هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو فى البداية وسيلة هذا التقدم .. فان الانسان المصرى نفسه هو الضمان . ننطلق الى هذه المرحلة آخذين بأحدث معطيات العصر فى شتى المجالات دون ما خشية . لا نفقد خلال هذه المرحلة هويتنا أو ننسى الفضائل التى كان هذا الشعب دائما يعتز بها ويمجدها . فهذا الشعب كما أقول دائما يحمل فى أعماقه قيم حضارات عمرها سبعة آلاف سنة . وكانت تلك الحضارات تنهض به وتكبر . تنطلق وتنقطع .. تتغير وتتجدد .. ولكن الشعب كان يعرف فى النهاية دائما كيف يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظا بخصائصه الاصيلة فى فطرته الصافية السليمة . لقد مرت على هذا الشعب قرون بكاملها كان فيها لا يكاد يملك شيئا من أرضه ولا من رأيه ، ولكنه بقى مع ذلك محتفظا بشخصيته المتماسكة وبنسيجه الوطنى المنسجم . يفنى فيه غزاته ومستغلوه . كانت صفته المميزة على الدوام هى انه كان دائما شعبا صانعا للحضارة ، بانيا للعمران . ولم تكن الشعارات التى قدمها للدنيا أبدا من مهارات الغزو والتدمير ، بل مهارات البناء والتعمير . كذلك فقد كان من أبرز صفات هذا الشعب تمسكه بالايمان واعتزازه بالاصالة .. »

على أننا عندما عدنا ثانيا من عيون موسى والشط وسيناء الى بور توفيق والسويس ، بدأ يحتل الصدارة امام عينى وفى

« نفسيتى » ما اشاهده من « حضارة التدمير » التى صنعها العدو ..

ورحت مهموما مثقل النفس اتوجع واتمزق و « أغلى » وانا اشاهد بيوتنا ـ كل بيوتنا ـ ومصانعنا ـ كل مصانعنا ـ مهدمة تماما ، وأموالنا مهدرة تماما ، وحبات قلوبنا واكبادنا ممزقة معتدى عليها امام أنظار الدنيا والضمير العالمى قرابة سبع سنين طوال عراض . وهذا قطاع واحد . وتضم اليه قطاعات اخرى على طول منطقة القناة .. فى الاسماعيلية وفى بورسعيد ، ناهيك عن الاعماق . خسائر وحشية غير مبررة تعجز كل « الكومبيوترز » فى العالم عن حساب جسامتها المادية والمعنوية . ومع ذلك تحملنا وصبرنا وتماسكنا وتحدينا ووقفنا على اقدامنا وعبرنا واستحققنا احترام الدنيا والضمير العالمى اخيرا !

ولكن .. ماذا ـ بحق السماء ـ فعلنا لنكابد كل هذا الدمار والتخريب والعدوان وخسارة الاموال والارواح ؟!

من اجل اى شيء ؟ من اجل شهوة توسع بربرى شرس وحشى قام فى رأس الافعى اسرائيل تساندها ضباع الصهيونية والاستعمار العالمى ؟!

ومن الذى يدفع ثمن كل هذه الجرائم والدمار والخسارات والتخريب ؟ الاف ملايين الجنيهات ـ أو الدولارات ـ التى لو كانت انفقت من مصر على مصر ـ واهبة الحضارة القديمة ـ لتحولت الى دولة صناعية زراعية من الطراز الاول والعصرى .

نعم . من يدفع الثمن ؟ ولنتوقف هنا قليلا ونسأل هذا السؤال آلاف ملايين المرات بقدر عدد ما تحملنا من خسائر تجل عن الوصف والحساب . فان الموضوع كله ـ موضوع اسرائيل وما فعلته ـ لا ينبغى ابدا ان يمر بغير حساب .

ان ما نراه الان من هزات وخلافات وانقسامات وردود فعل وارتباك فى السياسة الاسرائيلية ووزارتها وقيادتها العسكرية

بسبب هزائمها فى حرب اكتوبر ليس هو الثمن . ان الثمن أعظم من ذلك كثيرا كثيرا ، ولا بد ـ وآن الوقت .. « وكفاية » ـ ان تتحمله اسرائيل و « خالقوها » جزاء وفاقا . عدالة « سماوية » و « بشرية » ، وانصافا و « ثأرا » للعذابات التى عاناها العرب الابرياء المظلومون المعتدى عليهم ـ استهانة وابتلاء وتعسفا وتجبرا ـ ابتداء من مذبحة دير ياسين ، الى نزع الاراضى واغتصابها ، الى عدوان ٥٦ ، الى عدوان ٦٧ ، الى قصف « الزيتية » وجعل « السفلة » عالى منطقة القناة سافلها ، الى غاراتهم على بيروت وضربهم جنوب لبنان ، الى انتزاع الجولان السورية والغارات المجنونة على دمشق وسوريا الحبيبة ، الى احتلال الضفة الغربية للاردن وتخريبها ، الى العصف بزهرة المقاومة الفلسطينية ، الى التجرؤ على المقدسات كالمسجد الاقصى وكنيسة القيامة فى القدس العربية ـ والتى ستظل عربية برغم انفهم وبارادة القرار الجماعى للامم المتحدة .. وأهم من ذلك بارادة الله عز وجل ـ الى الآف وآلاف الحوادث والجرائم الصغيرة والكبيرة التى تشكل كيان اسرائيل ..

وقد ذكر لى أحد الاصدقاء المصريين الذين اقاموا فى « تايلاند » فترة من الزمن .. كيف رجعت تايلاند على اليابان بتعويضات خسائر الحرب التى أحدثتها الاخيرة ، وكيف احصت كل صغيرة وكبيرة حتى « الواح الزجاج » التى تهشمت من جراء الغارات اليابانية فى الحرب العالمية الثانية وطالبت بها اليابان فدفعتها بالفعل ..

وليست بعيدة عن الذاكرة ملايين ملايين الماركات والدولارات التى حصلت عليها « اسرائيل » ـ تدليسا واجتراء وضغط « عقد » ومتاجرة وتعمل ـ من المانيا الغربية تعويضا عن اضطهاد المانيا النازية لليهود مع انقطاع الصلة القانونية والشرعية بين اليهود الالمان وبين اسرائيل « المصنوعة » عمدا فى منطقتنا العربية

«.. ناهيك عن مليارات المليارات من الدولارات التى بذلتها وتبذلها أمريكا لاسرائيل ابتداء من رغيف العيش حتى الطائرة الفانتوم ..» كما يقول ـ بحق ـ الرئيس السادات .

هذه « المطالبة » الفلسطينية المصرية العربية ليست أوهاما أو خيالات ، ولكنها مشروعة مائة فى المائة ..

من يدفع الثمن .. ثمن الخسائر والمعاناة الفلسطينية المصرية العربيـة ؟ الجـواب الـذى لا جـواب غيره هو : اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل ..

نحن نتحدث الآن عن « التعمير » وهو ضرورة حتمية لاعادة بناء ما تهدم ، وعن « الانفتاح » وهو أيضا واجب لازم لتعويض ما فاتنـا من تنميـة تراخت أو تعطلت بسبب العـدوان علينـا والاستعدادات المجهدة المكلفة لازالة آثار هذا العدوان . ولكن ثمة سؤال قد يبدو ساذجا ، وهو فى حقيقته مطروح وقانونى الالحاح والاستجابة ، وهو ليس بالهزل .. ولا التسول : لماذا « القروض » فى حين أن « التعويضات » أبدى وأحق ؟!

●●●●●● هكذا جـاء يونيه الجديد

في ليلة ٥ يونيو « الجديد » ؟ ومع ختـام يوم حافل مشـبوب المشـاعر ، وخـلال الزيارة الاولى للرئيس السادات الى السويس وسيناء بعد انتصارات معـارك أكتوبر ؟ وجدتني ـ كشاهد عيان .. وشاهد تاريخ ـ حائراً كيف وماذا اكتب ؟ ! اقول الحق : راودتني فكرة القصيدة ، وربما هممت بها وهمت بي أعانقها بالحب كله .. وتعانقني ! ولكن الشعر لا يسعف هكذا بمثل هذه « السرعة » ، مع أن اليوم كان ـ في نظري وأعماقي ـ شاعريا ! وقلت : بل هو مقال سياسي . بل قصة حقيقية . بل « سيناريو» ملىء باللقطات الصادقة الخالصة الزاهـرة . ولست أدري ماذا كتبت . لعلي لم أفعل الا ان أسجل واقعا أو انطباعا ، أو مجرد نفس يتردد ويعايش مصر العزيزة الكريمة التي تعيش بها ولها النفس ..

العبــــور

لعل اللحظات التاريخية فى حياة الانسـان ـ وبالأخص اذا كان هو القائد الأعلى ـ وفى حياة الأمم ـ وبالأخص اذا كانت أمة نضال ومواجهة ـ هى تلك اللحظات التى تصنع التاريخ أوتغيره وتصححه ! انها تلك التى تحدث نتائج بالغة الأهمية . ولكن هذه لحظة تاريخية تجمع النتائج وتجسدها وتبقى ـ مع ذلك ، بل بسبب ذلك ـ لحظة تاريخية خالدة بكل دقائق المعنى الجياش لكلمة .. « اللحظات التاريخية » .

انها لكذلك ـ لحظة تاريخيـة ـ فى فـكره الشخصى وفى نبضاته . على أننا نتساءل : أتراه فـكره الشخصى ونبضـاته فحسب ؟ الجواب لا يتأخر ثانية واحـدة : الخواطر خـواطره وخواطر هذا البلد العظيم ، والنبضات نبضاته ونبضـات هذا الشعب الكريم . ولعل التعبير ليس جديدا ، وانما هو يتأكد تأكيدا : أمة فى رجل ، ورجل كان أمة .

كانت أعز لحظاته التاريخية المجددة ، وهو يخطو خطـوته الأولى على « المعبر » . تدافعت الأفكار والمشـاعر فى راسه وفى قلبه . استمرت على طول المعبر وبعرض القناة ، تتدافع وتتداخل ، بعفوية حبيبة مؤثرة .. بغير توقف عند ذكرى معينة ، وبتوقف لدى كل الذكريات ! ربما سبق اللاحق منها السابق أو العكس ، ربما اختلطت الآلام والآمال والانتصارات فهى « وشيجة » واحدة متكاملة . ربما لفت حول الأمس البعيد والأمس القريب واليوم وعبرت الى الغد المأمول . ولكنها جميعا تندفع أسرع من سرعة الصوت والضوء .. وان كان يجدر أن يشار الى صوت المعارك الباسلة المدوية ، وضوء الفجر الجديد .

أكاد اسمعه يستهل ذكريات العبور بخلجات فؤاده يرددها بلسانه ذكرى وسحرا ، وشكرا وعهدا : الله أكبر ! كان هذا الهتاف

المؤمن الساحر الدافع على طول المواجهة (١٨٠ كيلو مترا) هو العابر الأول والأكبر ! بارادة الله ومعجزاته ، وبارادة المقاتل المصرى وايمانه واصراره واستعداده و « معجزاته » تم العبور ونجح . وفى غمضة عين ـ ربما دمعت من شكر الله وخشيته ـ يستعيد « السادات » البيان الصعب الحميد ، ومعه القرار الاصعب والأحمد .. وفى وقت واحد ! يسترجع البيان العسكرى رقم ٥ بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر المجيد : نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس الى الضفة الشرقية للقناة ورفعت فوق سينائنا العزيزة الاعلام المصرية العزيزة ..

ويسترجع معه قراره الخطير القاطع فى صيف ٧٣ : لا بد من المعركة والعبور والتحرير فى خريف هذا العام .. فى الأسبوع الأول من اكتوبر ! وتغيم « سحابات خاطفة » من « بقايا » الآلام والمعاناة كيف تشكك من تشكك فى نوايانا وقدرتنا ، وزايد من زايد على الواقع والاعتبارات العملية ، وبين « الهجوم » الملتف بأقنعة الاستخفاف والتيئيس والتعطيل ، وبين « سوء » القصد » و « حسن القصد .. تقريبا » من جانب الأعداء والأصدقاء على السواء ، كان الاعداد ووضوح الرؤية والقصد من جانبنا ـ شعبا وزعيما مناضلا ـ وكان الصبر والصمت ! وغامت ايضا ـ كلمح البصر ـ زيارات ووقفات طويلة للرجل الذى يعبر القناة فى ذكرى ٥ يونيو ، واطئا بأقدامه ذكرى النكسة التى الغيناها من تاريخنا ، مكرسا العبور الكبير الذى اعد له وآمن به ووفق اليه ودفع أجناده المستبسلين فى السادس من اكتوبر المجيد .. العاشر من رمضان الكرم نعم .. غامت فى ذهنه ـ لثانية واحدة ـ ساعات طويلة قضاها بين الضباط والجنود المصريين البواسل سنة ٧٠ وسنة ٧١ وسنة ٧٢ وحتى سنة ٧٣ يطمئن عليهم ويطمئنهم ، يعد لهم ويعدهم ، يخطب فيهم ويسمع منهم ويلقى ببصره من الضفة الغربية للقناة ـ وبالمنظار المعظم ـ على الضفة الشرقية للقناة واستحكامات العدو الاسرائيلى الجسر .

وتحركاته ، ورباياته المستفزة ثم يلقى بالمنظار جانبا ، ويطـرح الم « وغيظه » جانبا ، ويستعين بالصبر « وبالحسابات » التى لا ينبغى ان تتعجل أو تخطىء ، فقد كفانا مرة « واعدكم ان تكون نكسـة يونيو ٦٧ استثناء فى تاريخنا .. وليست قاعدة » .. ولكن يبقى السؤال دائما قائما يساور الصدور أو تفصح عنه الالسنة : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا !

ويطالعه على « المعبر » اسم « اللواء الشهيد المهندس أحمد حمدى » الذى سمى « الكوبرى » باسمه ، فقد كان هـو بانيه وشهيده وكان مثلا من أكرم الأمثلة للضابط المصرى المثقف (كان من اكثر الناس اطلاعا وتنوعا فى القراءات) الذى يطبق العـلم على العمل ، ويتقدم الصفوف ويقف الى جوار جنوده بل يتقدمهم حاملا روحه على كفه .وتدمع عينا القائد الأعلى ، ويذكر مع هذا الشهيد البطل شهداءنا الأبطال الابرار فى معركة اكتوبر المجيـدة ويترحم عليهم ..

ويتذكر : لطالما نادى بأنه لو استطاع ان يصل الى حل القضية بغير اراقة دم جندى مصرى واحد لما تردد . ولكن لم يكن هناك بد مما ليس منه بد . « والصلافة » الاسرائيلية ــ التى ساندتها قوى الاستعمار والصهيونية ــ كانت قد جاوزت المدى وكان لا مفر من ان يتلقى العدو هذه « الضربة الجريئة الموجعة » حتى يفيق أو لا يفيق .. المهم ان ينحسر عدوانه ! ويتذكر « السادات » معزيا نفسه .. وبحق : شتان بين شهداء ظلمناهم سنة ١٩٦٧ .. وشهداء ثأرنا بهم ــ وبالضرورة ــ سنة ٧٣ ، وعليهم رحمة الله ورضوانه جميعا ..

ويصل القائد المقاتل الى نهاية المعبر ، ويخطو باقدامه لاول مرة فوق الشاطىء الشرقى للقناة منذ ان تولى رئاسة الجمهورية فى اكتوبر ٧٠ ، وكانت هذه الضفة الشرقية « محتلة » منذ يونيو ٦٧ حتى حررت فى اكتوبر ٧٣ ، فيكاد يلثم رمال سيناء الحبيبة

المحررة . ويطلق « زفيرا » فيه الرضى والشكران والأمل ، وكأنه يردد : « الحمد لله وحده صدق وعده . ونصر عبده . واعز جنده .. »

فــوق خــط بارليف

الموقع ١٤٩ .. واحــد من المواقع الحصــينة في خط بارليف « الاسطورة .. سابقا » الذى تكلف ــ كما يقول كتاب « كيبور .. التقصير » للصحفيين الاسرائيليين السبعة ــ ألف مليون ليرة اسرائيلية !

والغرض من بنائه هكذا « متاخما » لقنــاة السويس في ضفتها الشرقية هو ــ كما قال لى الفريق الجمسي ــ ان « يؤكد » استحالة العبور المصرى للمانع المائى الصعب بل ان ييئس المصريين من مجرد التفكير في العبور واختراق الساتر الترابى والاقتراب من الخط المتجبر !

ولكن المصريين « فعلوها » وعبروا الحاجز المائى ، و « أذابوا » الساتر الترابى ، واجتاحوا خط بارليف وهدوه فــوق رؤوس الذين بنوه تحديا لارادتنا ، وطمعا في استمرار الاحتلال ، أو على الأقل « املاء الشروط » من خــلال الأمر الواقع . ولم يزلزل المصريون الاستحكامات البارليفية وحدها ، ولكنهم زلزلوا المؤسسة العسكرية الاسرائيلية كلها ، والحــكومة الاسرائيلية ، والــكيان الاسرائيلى المغرور .. وراسا على عقب !

وأمام الموقع « المدكوك » الذى استسلم لنا في مساء ٦ اكتوبر ٧٣ . يجلس الرئيس الســادات ، وعن يمينــه المشــير احمد اسماعيل ، وعن يســاره الدكتور حجازى ، ويحيط به نــواب رئيس الوزراء والوزراء والقــادة والضــباط ، والصحفيون ، والمراسلون الاجانب .

ولقد زرت هذا الموقع من قبل ، ولكن لزيارة اليوم « طعم » آخر جديد ورائع .

اللواء أحمد بدوى سيد أحمد قائد الجيش الثالث يرفع يده بالتحية للقائد الأعلى فيرد تحيته بالحب والاعزاز . ويبدأ اللواء سيد أحمد فى شرح اجمالى لهجوم الجيش الثالث وعملياته فى هذا القطاع .

ثم يبدأ الملازم الأول سمير عبد الرحمن الشرح التفصيلى : كيف تم الاستيلاء على الموقع .. بالجسارة وبالذكاء و « بالكبت » الطويل الذى لم يكن يتنظر الا « شرارة » اكتوبر لينطلق به ـ كالصاروخ ـ المقاتل المصرى الصامد الذى يتحرق شوقا للهجوم وللتحرير . لقد استشهد الرائد البطل محمد زرد خلال عملية الهجوم ، فأتم الملازم سمير العملية باقتدار ملحوظ وبالتفاف وسعة حيلة وعلو عسكرية المصرى على الاسرائيلى .. وباصرار . ولقد أصيب فى ساقه أثناء المعركة ولكنه اتمها ، وقتل العشرات وأسر العشرات . وانتهى من الشرح فى تواضع من ادى الواجب ، وفى اعتزاز من اتيحت له فرصة المخاطبة والتحدث بنعمة الله أمام القائد الأعلى بطل العبور وصانعه ..

ويسأل السادات المشير اسماعيل : لقد اتم هذا الضابط الشجاع المهمة بنجاح عظيم واستولى على النقطة الحصينة ، فكيف قدرته القوات المسلحة ؟ ماذا حصل عليه من تقدير ؟

قال المشير : نوط الشجاعة .

قال السادات : لا .. مش كفاية !

واعلن قراره : يمنح الملازم سمير عبد الرحمن « نجمة الشرف » .

واهتز وجدان الحاضرين جميعا لهذا الموقف الجليل الذى يكاد « يلخص » و « يبلور » أمجاد معارك اكتوبر وذكرياتها فى حوار عظيم يجيش بالعواطف المشحونة .

واعتبر هذا القرار « تكريما عاما » لشجاعة القوات المسلحة المصرية وشرفها .

الاستعراض العسكرى

يصل الرئيس السادات بالهليكوبتر الى قيادة الجيش الثالث الميدانى فى الظهيرة . أكثر من خمسمائة دبابة . أكثر من خمسمائة مدفع وصاروخ . أكثر من خمسمائة عربة مسلحة بالمعدات الحدنثة الميدانية والالكترونية واعداد أخرى لا تحصيها العين والحصر تقف فى أرض الاستعراض العسكرى وفى نظام بديع خارق للعادة ، لا أحسب انه شوهد بمثل هذا الحشد والنسق فى تاريخ المنطقة .

لكأنه يترجم عما يعلنه السادات فى كل خطاب : المعركة لم تنته بعد . لا تزال أمامنا معركة التحرير حتى نستخلص آخر شبر من الأرض العربية المحتلة ، وحتى تعود للشعب الفلسطينى حقوقه .. ان معركة التحرير لا بد أن تسير جنبا الى جنب مع معركة البناء والتنمية والتعمير ..

ويستقل الرئيس السادات القائد الأعلى سيارة مكشوفة ؛ وعن يساره المشير أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة يستعرضان القوات المصطفة ويحييانها . وتشارك مئات الطائرات . « تمرق » وتشق عباب السماء خلال الاستعراض .. ويعود السادات ومعه أحمد اسماعيل الى « سرادق » الضيوف المبهورين .. عسكريين ومدنيين وأدباء وفنانين وصحفيين .

ويلقى المشير كلمة « تفتح الشهية » وتؤكد الواقع ، وتجدد العهد .

« يسعد شعبنا كله ان تبدل ذكرى الخامس من يونيو على يديكم وبفضل حكمتكم .. من شعور بالحزن والألم الى احساس حقيقى بالفخر والعزة ولتصبح هذه الذكرى اليوم عيدا من أعياد قواتنا المسلحة نمجد فيه بطولاتنا ونحيى به أرواح شهدائنا الابطال ونفخر بما بذله جرحانا من دماء على أرض المعركة . ونجدد العهد نحو المزيد من الجدية ومواصلة الاستعداد لتنفيذ ما تكلف به من مهام حتى نحقق اهدافنا المشروعة » .

ويهدى للرئيس درع القوات المسلحة تقديرا واخلاصا ووفاء للقائد الأعلى .

غير ان النـاس فى انتظار سماع القائـد والزعيم المقـاتل الحصيف .

وقبل ان يهم الرئيس بالقاء كلمته المرتقبة ، يهب — فجأة — أعصار حلزونى غـريب زاحف يقتـرب من وسط السرادق ، ويتساءل الأدباء والفنانون والكتاب فى رهبة : ماذا هو صانع ؟ ويقف السادات أمام الميكرفون فى ثبات . ويتمهل قليلا . وتقترب الزوبعة العجيبة . ثم يبدأ السادات كلمته قائلا كعادته : بسم الله

وأمام أعيننا — ولست أروى هذه « الجـزئية » بوصـفها « كرامة » من الكرامات ، ولكنى فقط أسجل ظاهرة لفتتنا جميعا وصفقنا لها جميعا — أمام أعيننا ، وفجأة ، بعد ذكر « اسم الله » ذهبت العاصفة الحلزونية « الرهيبة » بددا كأن لم تكن ! وتمتم من تمتم « يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » ! و « الا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

القى السادات خطابه ..

وسعد العسكريون والمدنيون بالسادات وخطابه ، وسعد السادات ، وسعدت مصر .

وفى المساء كان المؤتمر الشعبى الكبير .. الكبير حقا أكثر مما كنا نظن ، واضعين فى الاعتبار « قلة العدد » الحالى من اهل السويس المقيمين فيها .

ومارس الشعب المصرى ـ ممثلا فى شعب السويس ـ هوايته فى « ابتداع » الهتافات ، وفى البديهة الحاضرة !

يقول محافظ السويس وأمين الاتحاد الاشتراكى العربى بها أنهما يدعوان الرئيس السادات للحضور الى السويس فى ٢٤ أكتوبر القادم .. وفى « نفس واحد » يرد على التو الحاضرون ويرددون : مرحب مرحب يا سادات !

يقول المحافظ فائق البورينى ان دور شعب السويس فى المقاومة قد ساند القوات المسلحة .

فيردد آلاف الحاضرين معا وعلى الفور : السويس : شعب وجيش . السادات : شعب وجيش .

يقول السادات ان العدو حاول ان ينال من حجم انتصاراتنا وان يقلل من حجم هزائمه بأن يستولى على السويس باذلا فى سبيل ذلك كل ما يملك من ثمن .

فيصيح الآلاف صيحة رجل واحد : بعينه يا ريس .. بعينه يا ريس !

ولا يكتفى السادات باجابة طلب أهل السويس البواسل الصامدين « المفخرة » باعتبار يوم ٢٤ اكتوبر من كل عام عيدا قوميا للسويس ، ولكنه يعلن أنه قرر اعتبار يوم ٢٤ أكتوبر عيدا قوميا لمصر كلها يجرى الاحتفال به فى كل انحاء مصر وتعطل دوائر الدولة فيه كعيد من الاعياد الرسمية « فان دين كل مدينة

وكل قرية فى مصر نحو مدينة السويس دين لا ينسى ولا بد من الوفاء به . ان ملحمة السويس الخالدة سوف ترويها الكتب وتتناقلها الأجيال . ان مدينة السويس لم تدافع عن نفسها فقط ولكنها كانت تعبر عن بطولة كل مدينة فى ارض مصر ، وكانت تعرف انها تحمل فى عنقها اسم الشعب المصرى كله .. »

ولا يكتفى السادات بهذا الكلام السخى والعيد الرسمى ولكنه يعطى عطاء سخيا بقراراته الـ ١٥ تكريما وتقديرا لشعب السويس وتخفيفا عن أبنائها الذين تحملوا الكثير .. ويحث السادات المهندس عثمان أحمد عثمان ـ وزير التعمير .. ورجل التحديات ـ على أن يعجل بتعمير السويس ، وان على ابنائها ان يعاونوه فى مهمته الدقيقة .

وفى الحق انه كان يوما حافلا ... كان يوما عزيزا من ايام النصر .. من ايام مصر !

الحرية والاشتراكية والوحدة

بعد العاشر من رمضان

القول بأننا قبل رفع الرقابة عن الصحف كنا فى سجن كبير .. « عيب » ، كما أراه تجاوزا .. الظن بأن رفع الرقابة يعنى حرية مطلقة للصحافة .. فلا يوجد شيء اسمه حرية مطلقة بلا حدود ! ..

ولعلى فى السنوات الماضية ، وبالتحديد منذ ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، كنت اكتب كثيرا مما أريد التعبير عنه بحرية وبالتزام معا ، كما كان الزملاء فى « الجمهورية » ينشرون ـ وأوافق من موقع المسئولية واحترام الآراء المختلفة ـ كثيرا من الكتابات والآراء ووجهات النظر . وكانت « الرقابة » ـ طيلة هذه الفترة ـ قائمة حتى يوم ٩ فبراير ١٩٧٤ .

ربما اعترضت الرقابة على بعض سطور لى ولغيرى . ربما منعت ـ أحيانا ـ بعض مقالات . ربما تناقشنا طويلا فيما يصح

وفيما لا يصح أن ينشر ، وأقنعتها بسلامة الرأى والنشر : أو أقنعتنى بوجاهة الحظر ، أو غلبتني على امرى !

ولقد كتبت عنها فى احدى المرات « ان الرقابة لم تعد ثقيلة ولا حامية ، وانما أضحت مجرد شبح أو ضيف يستعد للرحيل ! » ولقد نكون صحيحا انها اشتدت بعدها ـ لظرف أو لآخر ـ وصحيحا أيضا انها تخففت .

وليس هذا ـ بطبيعة الحال ـ دفاعا عن الرقابة او مطالبة بها ـ لا سمح الله ـ وانما هى كلمات « متزنة » تناشد المعالين « المتشوقين » للكلام ـ اى كلام .. والسلام ـ أن نخشع قليلا فى استخدام الفاظ واستطرادات ومبالغات « العبيد والاحرار » !

ومن المؤكد ان قرار الرئيس أنور السادات برفع الرقابة عن الصحف قد أسعدنا جميعا ـ معشر الصحفيين والقراء ـ كما اسعد روح مصر ٦ اكتوبر والعاشر من رمضان وتجاوب معها . ومعذرة اذا ما فتئت أردد دائما تاريخ ٦ أكتوبر فيما أفكر وأتحدث وأكتب ، فهو على سبيل اليقين امجد ايام مصر الحديثة وأكثرها املا .. وكفانا طول ما رددنا تاريخ ٥ يونيو وتمررنا به .

أوفى الرئيس ـ مشكورا أخلص الشكر ـ بوعده أن يرفع الرقابة عن الصحف ، وعلينا ان نفى بدورنا لميثاق الشرف الصحفي .. حتى لو لم يكن مكتوبا ومعتمدا ، فهو مفهوم تضمه الضمائر وتعيه قبل الكراسات !

وسيبقى الولاء لمصر والعروبة هو المعنى الحقيقى ـ لا القيد ـ لكل حرية هنا : حرية الحركة ، وحرية العمل ، وحرية المجتمع ، وحرية النقد ، وحرية الصحافة !

ومن الواضح أن هذا اطار واسع جدا قد لا نختلف عليه ، وانما الخلاف ـ اذا كان هناك خلاف بصورة أو بأخرى ـ في التفاصيل وفى التطبيق !

ولنأخذ مثلا .. ميثاق العمل الوطنى الذى صدر فى مايو سنة ١٩٦٢ ..

انه يتحدث عن الديموقراطية وعن الحرية السياسية والحرية الاجتماعية والتطبيق الاشتراكى .. والنقد والنقد الذاتى وعشرات المسائل والقضايا التى لا تكتفى بأن تهز رأسك بالموافقة عليها ، وانما تكاد ترقص طربا !

فماذا حدث ؟ هل استغرقتنا فى تلك السنوات « الفلسفات » والشروح حوله وشغلتنا عن الممارسة الحقيقية ؟

خلق القطاع العام وكان قويا وقادرا وضروريا ومنقذا . ولكن هل لم يلبث أن ملىء بالثقوب ؟ وهل ساعدنا نحن على ذلك ؟ وهل اتسعت مع هذه الثقوب .. الذمم ؟ وهل أثرى من اثرى من المال الحرام ؟ وهل استغل من استغل نفوذه ؟ هل هانت محظورات واستحلت فى سبيل التطلعات والكماليات ؟ وما هذا الذى دهانا ان كنا ندرى أو لا ندرى ؟

« وولد الاتحاد الاشتراكى كبيرا وفضفاضا وهزيلا فى الوقت نفسه ، ثم استلزم الأمر اجراء جراحة جسيمة له سنة ١٩٦٨ ثم جراحة جسيمة أخرى فى سنة ١٩٧١ ليصحو ويصح . على انه يمكن التساؤل : هل أسباب فشل الاتحاد الاشتراكى السابقة تعود الى قيام مراكز القوى فحسب ، أو تمتد الى جبهة عريضة أخرى اسمها مراكز الضعف ؟ وبتعبير آخر : الم يكن بنيان القواعد من الضعف بحيث يجعلها بلا فاعلية ولا هدف محدد أو وضوح رؤية ؟ الم تكن هذه القواعد فى متاهات ، تجد سلواها فى الاستسلام وانتظار التعليمات للتأييد ؟ الم تكن كلها جراثيم تخلق الجو المناسب وغير الصحى لنمو مراكز القوى وتسلطها ؟ » .

والفقرة السابقة التى وضعتها بين قوسين لست اكتبها فى ظل حرية الصحافة فحسب ، وانما كتبتها ونشرتها — وفى ظل

الرقابة ـ فى النصف الثانى من شهر يونيو سنة ١٩٧١ ، وأعدت نشرها فى كتاب طبع مرتين خلال شهر يناير ٧٤ !

ولا يتصور أحد اننى أحاول ـ كما قد يحاول البعض ـ الطعن فى عهد مضى « عمال على بطال » أو لحاجة فى نفس يعقوب ..

اننى والملايين من أبناء هـذا الشعب آمنـا بالثورة وقيادتها الأولى ، لأننا وبلادنا جنينا من خيرات الثورة وافـكارها التقدمية وتحولاتها الاجتماعية ما لا يمكن ان ننسى ..

قد تـكون لنا ملاحظـات وتحفظـات ، وقد نكون صدمنا بانحرافات ، ما كنا نتمناها أو ننتظرها ، ولكن « التجربة والخطأ » ربما كانا ضروريين وان زادا أكثر مما يجب ، كما أن المحصلة كانت ايجابية فى بعض جوانبها أو فى كثير منها ..

غير أن الذى لم أستطع أن « أغفـره » ـ ببساطة ـ هو يوم ٥ يونيو « السيىء الطالع السيىء السمعة » بكل ما سبقه وأدى اليه ـ وقد كتبت فيـه الـكثير ـ حتى تاب الله علينا منـه بيوم ٦ أكتوبر بكل ما يرجى منه وينفتح اليه ، وبما يمثله العيد الذى جاءنا بعد العاشر من رمضان !

هل كل شىء على ما يرام الآن ؟ أظننا نخـدع انفسنا لو قلنا بذلك .. ولا احد يقول ..

هل هى « ازمة أخلاق » ؟ على اتسـاع التعبير وقدمه وغموضه وعدم الاتفاق التام على معاييره ، فلا بد لنا من التسليم بوجـود مثل هذه الأزمة وانتشارها ..

ولقد أوجزت وافضت أحيانا فى الكلام عن هذه الازمة وتصور الحلول لها .

والخص ما اتصوره حلا فى أننا محتاجـون الى تربية متبتلة ومتفتحـة لسـلوك وطنى ودينى واشتراكى .. ولا بأس من ان

نواجه انفسنا من جديد وأن نصلحها وأن نضرب الأمثلة والقدوة الحسنة على كل المستويات ..

ولست أهون من صعوبة هذا البناء الذى هو فى واقع الأمر « بناء الانسان الجديد » ، ولا احسبه يتم بين يوم وليلة ولا سنة وسنتين .. المهم أن نفكر ونخطط ونبدأ ونفتح صدورنا للهواء النقى الذى هبط من السماء يوم ٦ اكتوبر أو لعله كان كامنا فى أعماقنا ولم اتخل أبدا عن الايمان بعراقة الشعب المصرى وأصالته وطيبته وقدرته برغم نماذج تلوح أحيانا وتبعث قتامة فى النفس ثم لا نلبث أن نتفاءل حتى بامكان اصلاح هذه النماذج بشتى الطرق من الردع الى التهذيب الى « لايصح الا الصحيح » .

واذا كانت المصارحة فى هذه الشئون السلوكية واجبة ، فان المصارحة فى الشئون المعيشية والمصيرية لا تقل وجوبا ، بل هما متكاملتان .

لا بد اذن أن نعرف الحقائق .. كل الحقائق ونتصارح بها دون خوف ، فبهذا نستطيع ادراك ابعاد المشكلات وتقدير الموقف واحتماله ومواجهته ثم التغلب على الصعاب واحدا تلو الآخر .

نحن شعب فى معركة بدأت ولم تنته بعد ، وما زال أمامنا طريق طويل ولا مفر منه ما دمنا حريصين على حريتنا كاملة وعلى احقاق الحق .. وكلنا حريصون ..

وهى معركة متشابكة .. ولا سبيل - فى هذا المجال من التشابك السياسى والاقتصادى والعسكرى - الى « فك اشتباك » ..

الميزانية مثقلة أو منهوكة القوى بلا يأس .. والموارد حتى الآن محدودة نسبيا ، فى حين أن الاحتياجات العسكرية والتموينية

والخدمات المختلفة ملحة وحيوية . الموازنة عسيرة ، وان كانت للشئون العسكرية ــ بالاجماع ــ الأولوية بوصفها قضية القضايا ومسألة حياة ومصير ..

والقائد الصابر المقاتل الواعى أنور السادات تحمل كثيرا في سبيل الاعداد المعبور وللتحرير ثم ضرب ضربته في ٦ اكتوبر ، وكان الله والشعب والجيش والتوفيق معه .

أكد ــ ولم يكن الأمر محتاجا الى تأكيد ــ انه من اكثر القادة والزعماء وطنية وحصافة ..

ولقد انتهت مرحلة صعبة ، وبدأت مرحلة أشد صعوبة . ونحن نثق اننا قادرون على اجتيازها بنفس الارادة والوطنية والحصافة ..

ومع ضرورة الاهتمام والتحقيق للاحتياجات الجماهيرية من مواد التموين الاساسية التى تعانى هى وغيرها من نقص ملحوظ ، ومع أهمية انقاذ الناس من « جحيم » المواصلات وقطاعات اخرى في الخدمات ، فانه لا ينبغى أن نضع صورة « وردية » عاجلة لها . نتحمل .. نعم ، وانما ندبر الممكن سريعا مع وضع المهم قبل الاقل أهمية ..

وسياسة الانفتاح واستثمار الأموال العربية والأجنبية سوف تعين بلا شك في حل بعض المشكلات وتوفير رخاء ينبغى أن يتناول كل الشعب ، غير ان التطبيق الاشتراكى والمنجزات والمكاسب الاشتراكية مسائل لن تتراجع الدولة عنها ، فهى حتمية لأمة نامية مثلنا . وليس استثمار الأموال الاجنبية « بدعة » أو مبعثا للتشكيك ، فلطالما استخدمت هذا الأسلوب وتستخدمه دول العالم ــ غربه وشرقه ــ ما دام فى أطار مصلحتها وحرية ارادتها ..

ومن التفاؤلات التى لم أتنازل عنها اننا سوف نصبح أمة منتجة للبترول فى عداد الدول الأولى غزيرة الانتاج ، فما زالت

صحراؤنا الغربية ـ على سبيل المثال ـ لم تكتشف تماما ولم تبح بأسرارها . وعندما نفعل ـ وسنفعل فى القريب بمشيئة الله ـ فسيكون لها شأن كبير .

اننا ندخل مرحلة جديدة أعطتها حرية الصحافة ضمانات انفتاح ، ومناقشات تفكر ولا تزايد ، ومساندة نقد بناء لا يجرح ولا يهاتر .

تقول الصحافة التى تعبر عن الشعب كلمة الحق لوجه الحق والصالح العام ولا تنافق . ان النفاق والتزلف والترخص مسائل كريهة حقا .

لقد جاء زمان على الصحافة كان الضمان هو أن يكون هذا الصحفى أو ذاك « بتاع » فلان .. وكان آخرون لا يعبأون بأن يكونوا « بتوع » أحد أو شلة حتى لو فقدوا أرواحهم فالأرزاق على الله ، والموت نهاية كل حى . أما الآن فكلنا لمصر .. ومصر لنا .

وسيبقى الولاء لمصر والعروبة ، كما قدمت ، هو المعنى الحقيقى ـ لا القيد ـ لكل حرية هنا : حرية الحركة وحرية العمل وحرية المجتمع وحرية النقد وحرية الصحافة .

•• كيف نعالج أمراضنا الاجتماعية ؟

عجبت حقا للصدى البعيد الذى أحدثه مقال كتبته عن حرية الصحافة . فما من أحد - تقريبا - التقى بى الا حدثنى عنه ، فضلا عمن راحوا « يتلفنونى » بشأنه . ولم يخرج المقال المذكور عن كونه كلمات خالصة متواضعة حاولت أن تنصف معانى كثيرة كبيرة فى مقدمتها مصر والثورة والاشتراكية والصحافة ، كما كان يحيى ٦ أكتوبر وقائد ٦ أكتوبر وابطال ٦ اكتوبر وروح وامل ٦ أكتوبر . اقولها - فى صراحة وببساطة - اننى تعودت دائما ان أكتب مثل هذا الكلام وأتناوله فى مقالاتى « السياسية » ومن هنا كان عجبى الذى ..كاد يتحول فى النهاية الى ما يشبه « الضيق الشخصى » من هذا الاهتمام الواسع بالمقال المشار اليه !

هذه مقدمة ربما ليست مألوفة بين الكتاب سواء أكان لهم عشرات الآلاف من « المريدين » أم توهموا أن لهم ذلك العدد ..

ولست ــ والحمد لله ــ من هذا الصنف أو ذاك . وانما أسوقها لانني ألفت الا اكتم القارىء شيئا ، فما في قلبي وعقلي هو ــ عادة ــ على لساني وقلمي في الحدود التي أتصورها معقولة . ولا حيلة لي في هذا المنهج خطأ كان أو صوابا ، فما احسبني أستطيع العدول عنه ، ولعل هذه الكلمات دليل ذلك !

واخشى أن ثمة مقدمة « اطول » قبل الحديث الذي أريد أن افضي به ، والذي قد يكون « مسألة » من المسائل السلوكية التي اثرتها ، لأقف عندها وأتأمل .

كنا مجموعة من الزملاء متعتهم ــ وحرفتهم ــ الكلام ! تتناول الأحداث الجارية بالتعليق والتحليل و « الحكى » ! برز الى السطح حادث مباراة الزمالك ودوكلا المروع التي لم تلعب واكتفى فيها باراقة دماء ضحايا كانت لم تجف بعد . وقال احدنا : وددت أن أكتب عن « مجتمع القاهرة » . دنيا مستقلة بذاتها لا علاقة لها بمصر . لها تقاليدها المتعفنة وفضائحها . غابة . يكاد يكون كل ساكن فيها مجرما الى أن يثبت العكس . كل امرأة منحرفة الى أن يثبت العكس . وكل مباراة كرة جنون وحمى ومذابح »

ولست ابتغي بهذه الاشارة أن « أحرق » عليه أفكاره ، فانه ــ وهو الأديب الفنان ــ قادر على تصوير ما يستهدفه دون أن تؤثر على « ابداعه » هذه الاشارة التي عساها أن تكون أشبه « باشارة » لقطات مبسترة ــ ولا أقول مشوقة ــ تقدم لفيلم هائل ! ولكني ــ على أي حال ــ قاطعته . قلت : رفقا بالقاهرة مدينة السبعة ملايين مصري . ماذا لو فعلت ذلك وانتهيت الى أن القاهرة هي « صفر » ؟ ! وجاء آخر فعرج الى الصعيد وقال فيه وفي « الثأر » وفي هذه التعميمات ما شاء وحصل الصعيد ايضا في تقديره على « صفر » ؟ ! وأخذ ثالث قطاع الوجه البحري

وتحـدث عن كذا وكيت وأعطاه نفس الصفـر .. فمـاذا يبقى لحبيبتنا مصر ؟ ولست « العاشق الوحيـد » فكلنا عشاقها . ثم استطردت متسائلا مركزا على حادث الكرة الذى فجر « اللعنة » : ما هى ارقى بلاد العالم واكثرها حضارة ؟ أمريكا .. روسيا .. الدنمارك .. السويد ؟ فلنفرض أن مسرحا ضخما يتسع لأكثر من خمســة آلاف ، واقيمت فيه حفـلة باليــه أو موسيقى سيمفونية وغشيه « علية القوم » ، ثم فجأة شب حريق بفعل ماس كهربائى فدب الفزع ـ بطبيعة الحال والعامل البشرى ـ وتدافع هؤلاء الوجهاء « لابسو الردنجوت » وملابس السهرة الى مخارج المسرح الضيقة نجاة بأنفسهم .. هل يمكن ـ وبالتأكيد ـ الا أن يدوس بعضهم بعضا ، ويسقط منهم قتلى ويخر ضحايا . ومع هذا : فلست ادافع طبعا عن حادث الزمالك ، فهو جريمة بشعة بصرف النظر ـ ولا نستطيع أن نصرفه ـ عن العـدد الرهيب للضحايا الذى يمكن أن يحدث اضعافه نتيجة سقوط عمارة أو وقوع زلزال . بل اننى من موقعى فى مقصورة استاد الزمالك ـ وكنت مدعوا ـ « تنبأت » بما سوف يقع قبل ان يجرى بنصف ساعة وذلك من مجرد رؤية الزحف الجماهيرى الاسـطورى فى المدرجات وحول الملعب . ولقد سمعنى النقاد الرياضيون من حولى أصيح : أعطونى « ميكروفونا » أستطيع به أن « اضمن » لكم تجنب الكارثة التى توشك أن تقع ، قالوا : كيف ؟ قلت : جمهورنا ـ وبرغم كل شيء ـ واع ويستجيب للمنطق والارشاد . أقول له : كما ترون هناك استحالة أن تلعب المباراة فلا مكان حتى لنقل الكرة من الجناح الأيمن للجناح الأيسر . المباراة سوف تلعب غدا فى استاد ناصر ، وبنفس التذكرة التى دخلتم بها اليوم ، وسنجعل دخـول الدرجة الثالثة بخمسة قـروش وسنذيعهـا فى التليفزيون على الهواء مباشرة . ولكن المهم هو كيف يخرج الجمهور الآن فى هدوء وبغير حـوادث حتى لو استغـرق هـذا ساعة من الزمان فقد تنا

سنقضي هنا ساعتين . ثم نتولى ارشادهم قسما قسما للخروج من هذا الباب أو ذاك صفوفا منتظمة وبالترتيب .. وليس فى هذا استحالة .

ولكنها كانت صرخة في واد .. وبلا ميكروفون !

والآن وقد انتهت « المقدمة الثانية » الطويلة جدا .. وبرات مصر ورثيت لها في الوقت نفسه ـ حبا فيها على الحالين ـ انتقل الى موضوعنا ، لاعرض الى مرض وبيل فى ظاهرة اجتماعية خطيرة تفشت ـ نسبيا ـ بمصر وعلى صورة ملحوظة اسمها « الرشوة » ..

وابتداء لا بد من الاعتراف بأنه « مرض عالمي » لا يكاد يخلو منه ـ بصورة أو بأخرى ـ بلد . وتكفى الاشارة الى أن « اجنيو » نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة اضطر الى الاستقالة نتيجة اتهامات مكثفة له ـ صحفية وغير صحفية ـ بأنه تقاضى رشاوى في مراحل مختلفة .

غير ان وجود هذا المرض فى العالم لا يعزينا ، ولا ينبغى ان يوقف محاولاتنا لحصاره عندنا وعلاجه والقضاء عليه ، فان وراء دراسته ومناقشته وسد ثغراته خيرا كثيرا اعتقد أن بلادنا فى أشد الحاجة اليه .

وأنت تستطيع أن تسمع قصصا « تتهامس » بها جلسات حول ما يحدث من رشاوى فى هذا المكان أو ذاك ، أو من هذا « البيه » أو ذاك « التاجر » وبصور شتى .. ولا بد انك سمعت كثيرا سواء بالحق أو بالباطل أو المبالغة ، كما أن الصحف حملت كثيرا من انبائها وما زالت .

وعندما اقول هناك قصص « بالباطل » فانني أعني ذلك فعلا . بل لقد عرفت في سالف العصر والأوان ـ قبل النكسة التي نجانا الله منها كما نجانا من طواغيتها الصغار ـ مقدمات

قضايا بالباطل وبالكمائن الوهمية الوضيعة المتجنية .. وشهدت بنفسى كيف انه ــ لأغراض خبيثة وأطماع أخبث ــ حيكت مؤامرات للاطاحة بأناس شرفاء لست أغالى اذا قلت ان قلامة ظفر احدهم أطهر من رؤوس وقلوب من كادوا لهم .. ورأيت كيف وضع فى ذلك الزمن الأغبر احد السعاة فى السجن وضرب وعذب بتهمة أنه تقاضى « رشوة » قيمتها خمسون قرشا تمثل « البقشيش » الذى اعطى له ووقع عليه بالاستسلام كمكافأة له ــ بالفة الضآلة بل الغبن ــ عن سرعة احضاره شيكا مستحقا بمبلغ يزيد عن مائة ألف جنيه لاحدى المؤسسات من احدى الوزارات فى ٢٠ ساعة بدلا من ان يتراخى فى الدهاليز والمكاتب أسابيع ! نعم ... هذه حقيقة ــ وليست خيالا ــ حدثت فى سنة ١٩٦٥ كمثل صارخ للظلم وسوء الفهم والتجنى الذى مارسه من مارسه من « المحتالين » وهم يفركون أيديهم فرحا وازدهاء بهذا الصيد الثمين ــ الساعى المسكين ــ وبالنصر المبين الذى حققته « مباحث عسكرية جنائية » هذا العهد ومن يأتمرون بأمرها ومن يصدرون لها الاوامر ! ولقد اكون حكيت هذه الحكاية مائة مرة على الأقل ، ولكنى أكتبها لأول مرة على الورق بمناسبة الحديث عن « الرشوة » الباطلة وغير الباطلة !

ولعل « الرشوة » هى احدى الظواهر الاجتماعية المريضة القائمة والمستمرة ، والتى كنت اعنيها ضمنا فيما كتبت عن « حرية الصحافة » وقلت :

« هل كل شيء على ما يرام الآن ؟ اظننا نخدع أنفسنا لو قلنا بذلك .. ولا أحد يقول . هل هى ازمة أخلاق ؟ على اتساع التعبير وقدمه وغموضه وعدم الاتفاق التام على معاييره ، فلا بد لنا من التسليم بوجود مثل هذه الأزمة وانتشارها .. »

قد ارى ــ مثلا ــ ان الفقر والحاجة من الأسباب الرئيسية لتداول الرشوة وتفشيها لدى البعض وليس الكل ، فما زال

كثيرون يؤمنون بالمثل « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » ويعملون به ... وان كان هذا لا ينفى ضرورة علاج الفقر وتوسيع قاعدة « الرزق الحلال » أو بالاحرى مزيد من الأعمال الديمقراطية الاجتماعية مع الديمقراطية السياسية ..

هل من أسباب الرشوة تلك الكماليات التى أصبحت ـ بهوى النفوس ـ ضروريات ، والتى تطلع اليها «كل من هب ودب » وغذتها فئات « طفيلية » تمثل « فقاقيع » منفوخة أثرث فى غفلة من الزمن ؟ !

هل هى « الحياة الرخوة » وفرص الكسب السريع السهل فى الخفاء والصفقات التى تكسب الذهب بكلمة أو« بتأشيرة » أو بالاقتسام ؟

هل هى نتاج بارتيتات الويسكى والقمار والسهرات الحمراء والمخادع الناعمة الحرام ؟

هل هو القصور الفادح والنظرة المستخفة الضحلة للتربية الدينية على أسس وعلى أسوة حسنة فى البيت والمدرسة والحياة العامة ؟

هل هو تعثر التطبيق الاشتراكى والسلوك الاشتراكى والخلط فيهما ، مع تسليمى بأنه حتى فى أدق النظم الاشتراكية هناك ثغرات ورشاوى (وان شددت عليها العقوبات الصارمة) غير أنها ـ على أى حال ـ أكثر انضباطا وعدالة اجتماعية وسلوكية من المجتمعات الراسمالية المنحلة ؟

ولكن ربما كانت كل هذه الأسئلة التقريرية دوافع ومزالق ومظاهر للرشوة ، وليست أسبابا .

ولقد يكمن السبب .. على حد قول البعض .. فى البناء الرتيب ـ بل المريض ـ للمؤسسات .. ذاتها بالمعنى الكبير

لمؤسسات الخدمات والانتاج ، وما يشوبها من « روتين » يحتاج الى هزة حقيقية واصلاح جذرى من الأعماق .. ليس امامنا خيار الا ان نواجهه ونقيمه بروح ٦ اكتوبر التى يجب ألا تفلت من أيدينا أو نفلت من انطلاقها .. فهى فرصة العمر ..

وعلي سبيل المثال ــ ومع تغيير أوتهذيب البناء والمفهوم ــ فان « خدمة الجمهور » ينبغى ان توضع موضعها الصحيح ليصبح الواجب المقدس للمؤسسات هو أن تخدم الجمهور فعلاً : بمعنى انها لا تحكم هى الجمهور ولا هو يشترى منها « معروف » أو « يستجدى » مجاملة « بأى ثمن » وانما هى تؤدى واجبها نحوه بخدمته فى صدق وعدالة ونزاهة ، والجمهور يؤدى واجبه أيضا بحصوله على حقه بوصفه مواطنا صالحا .. فلا راش ولا مرتش !

وأسلم بعمومية عرض هذه المشكلة الصعبة وتبسيطها ، ولكنى اؤكد فى الوقت نفسه انها اساس لا مفر منه سواء احتاج الى شروح تفصيلية أو سنوات تنفيذية ، فلن يصح الا الصحيح آخر الأمر .. وكلنا نشكو وكلنا ننشد الصحيح ، ولا ينبغى أن نغرق فى الشكوى أو نتوه عن أولى الخطوات نحو الصحيح .

وانتهى العهد الذى نقف فيه موقف المتفرجين ، فانها حياتنا نحن وليست حياة أحد سوانا فان لم نحرص عليها وعلى بلادنا فعلام نحرص اذن ؟

هذا هو الفجر الجديد الذى أطلعه قائد نضال شعبنا الرئيس أنور السادات والذى قال عنه بحق انه : « فجر لا ذل فيه ولا اذلال ولا ظلم ولا طمع ولا استغلال . فجر السيادة فيه للتحالف العظيم لقوى شعبنا العاملة »

والسيادة تعنى السيادة كما يحددها الرئيس وكما يفهمها الشعب .

ومن صميم السيادة أن يعرف الشعب الحقائق وأن تتوافر له كل أسباب المعرفة والاعلام بها فى غير خفاء أو خوف ، فالحاكم الذى يحنى رأسه طاعة للشعب ليس لديه ما يخفيه أو يخافه ..

وليت هذا « الدستور » الكريم الشجاع والبطل الذى أعلنه السادات فى يوم الابطال اكراما لهم واعزازا بوصفهم من خيرة أبنائه لأنهم رفعوا رأسه ورؤوسنا كما رفع هو رأسهم ورؤوسنا فى كبرياء . أقول ليت كلمات الرئيس الخالصة الصادقة تصبح ـ وفى تنظيم محكم ـ أسلوب أجهزتنا التنفيذية والسياسية والدستورية والشعبية دون ابطاء .. اذن نحل ـ مع عدم التهوين من التعقيدات والمعوقات « المقدور عليها » ـ كثيرا من مشكلاتنا وأمراضنا ومن بينها « الرشوة » التى كثرت الشكوى منها وطالت .

لقد كان قانون « من أين لك هذا » أو اقرارات الذمة المالية فى شأن الكسب « غير المشروع » أملا مرموقا ، وقد صدر « ونفذ » ، ولكنه فى حقيقته يكاد يكون « تائها » فى الأرشيف « والأضابير » .

وقامت « الرقابة الادارية » بدورها فى تعقب حالات قد يكون بعضها « مضللا » وقد يكون بعضها محكما أو « لابسا » ومتلبسا ولكنها ـ على أى حال ـ تحركت وخدمت وحذرت وقدمت من قدمت للمحاكمة وأعطت مؤشرات واحصاءات ، ولعل ما خفى كان أعظم .. والله أعلم .

وبين التصديق والارتياب والتكذيب تتسامع عن « ظروف » تحوى مئات الجنيهات أو أقل كثيرا أو اكثر قليلا يتركها محترفو الرشاوى والصفقات على مكاتب بعض كبار من الموظفين أو بعض صغار منهم لقضاء « مصالحهم » فتذلل لهم الامور على حين انها قد تتعقد فى وجه من لا يدفع . كل هذا فى الوقت الذى تحكم المسائل

قوانين ولوائح واجراءات ـ كما هو مفروض ومطلوب ومتصور ـ ولكن ربما كان « التحايل » عليها واردا ، كما أن « الاستهتار » الجرىء السيىء النية قد لا يجد من يحاسبه أو يوقفه عند حده ..

وبالتأكيد يجب علينا أن نقيم وزنا كبيرا لحسن النية ونقاء الضمير واختلاف المقاصد ، وأن نكره اخذ المسائل جزافا ، وأن نمقت الارهاب تحت اى شعار ، وأن نقدس العدالة .

على ان جهدا بالغا وصادقا وحاسما ومتساميا يجب أن يبذل لمواجهة أمراضنا الاجتماعية ـ ومن بينها الرشوة مهما تكن محدودة ـ ولاستقصاء الأسباب واستنباط وسائل العلاج وتهيئة المناخ الصالح .. وكلها مسائل كبيرة تستأهل العناية وبث روح ٦ اكتوبر فى أعماقها .. ومع هذه الحريات ... وحرية الصحافة من بينها ..

وان نريد ـ كلنا ـ الا الاصلاح ما استطعنا وما توفيقنا الا بالله .

●●● تعالوا إلى كلمة سواء

عندما الح لدى ما خامرنى من أفكار واستخرت الله أن أكتب وعقدت العزم رائيا انه لا بد مما ليس منه بد أن توضع المسألة على « بلاطة » ، لم أجد أفضل ولا اشمل ولا أحسم ولا أكرم من عنوان « تعالوا الى كلمة سواء » استهل به واستهدف . وربما دفعنى الى هذا الاختيار ـ بشعور ولا شعور الاسترجاع ـ انه كان محور مقال لى فى مناسبة « بلبلة » وقعت منذ قرابة عامين ، وبدأته بقولى « ليس من عادتى أن أشفق او امسك عندما تبدو الكلمات ـ والرأى ـ ضرورة بل رسالة . وقد يكون ما أعرض له اشبه بالسير فوق حقول الغام قد تنفجر من تحت اقدامى . وليس لفرط شجاعة أو لوفرة فدائية ـ ولا أدعيهما ـ أن أعتبر انفجار الألغام من تحتى أمرا لا يهم ، ما دمت أؤدى رسالة .. حتى لو كان قصارى جهدها أن تقول : اللهم قد بلغت ! فتلك هى ضريبة ـ بل طبيعة ـ المهنة فى أصولها الصحيحة

والمتجردة . هذا فضلاً عن أن الألغام هنا ربما كانت وهمية ومبالغا فيها » !

و « البلبلة » الآن ـ فيما أتصور ـ تتكرر وتتجمع وتأخذ شكلا ظاهره الرحمة ، وباطنه ـ فى ظنى ـ العذاب والاضرار بغير مناسبة وبما لا يتفق مع المرحلة. تبدأ « بالغمز » ثم « بالتصريح ».

البلبلة هذه المرة ـ وبالعربى ـ تتناول ـ بل تجرح ـ عهد الثورة وعبد الناصر ابتداء من سنة ١٩٥٢ حتى توفاه الله فى سبتمبر ٧٠ . ونحن لا يمكن أن نلغى تاريخنا هكذا بجرة أقلام أو شطحاتها أو أهوائها .

والنموذج الذى اتناوله مقال كتبه الزميل الاستاذ صالح جودت . ولعله لم ينفرد بمثل هذا الاتجاه وانما شاركه بعض الكتاب ، ولكنه كان أكثرهم صراحة وضراوة وخلطا .

ولقد أرى أن استمرار ذلك على عواهنه أمر جدير بالمناقشة الهادئة . ثم أليس من الغرابة أن تتأمل بعض الصحف العربية ـ سواء وصلت الينا وبيعت لدينا أم لم تصل ـ وتبحث هذا الاتجاه فى حين نقف موقف المتفرج ؟!

وأود أن أوضح بضعة أمور وأؤكدها :

أولا : انني لا أصادر حرية الصحافة والأقلام بطبيعة الحال وبفرحة الشوق اليها ، ففى ظل هذه الحرية « أتمتع » بحرية الكتابة والرد . كما انني لا استطيع ولا أبغى ان أرهب أحدا لانني لا ابغى أن يرهبني احد ، وقد « جبلت » على كراهية الارهاب الفكرى وأى صنف من صنوف الارهاب .

ثانيا : انه ليس بيني وبين الاستاذ صالح جودت أى خصومة أو عداء ، بل على العكس جمعتنا زمالة العمل ست سنوات ، فلا احسب ان احدنا راى من الآخر الا خيرا ومودة . واختلاف الراى لا يفسد للود قضية .

ثالثا : انني لست ممن يتشنجون « بالناصرية » ، ولا من « عباد الاشخاص » . لعلي اكون فقط من « مجاذيب » مصر وفلسطين والعروبة !

رابعا : ان عبد الناصر كان « بشرا » تحمل مسئوليات جسيمة واصاب واخطأ . وان لي بعض تحفظات وانتقادات على فترة حكم عبد الناصر ، شأني في ذلك شأن الكثيرين . ومن بينهم « رجل الشارع » العادي الذي أحبه وهو يعرف فيه اخطاء البشر . وتلك طبيعة أى فترة يمكن أن تطول فيكون لها وعليها . وعسى اكون قد اشرت الى الأخطاء في « قليل » مما كتبت خلال تلك الفترة ، وقد اكون انسقت مع التيار « الحماسى » الذى يبهره ما فوق السطح في كثير من المواقف ، و « أجفلت » من أن أبدى ما قد أحس به او الاحظه في مواقف اخرى . ولكني اعجبت ـ في صدق خالص وغير متأثر بالدعاية ، ولا هو متحول بالدعاية المضادة ـ بالكثير جدا من الانجازات الوطنية الجسورة والمكاسب الاشتراكية خلال فترة طويلة حافلة ، ثم اصابني « الوجوم » مع هزيمة يونيو ٦٧ .

خامسا : ان « محصلة » ما أوردته في (ثالثا) و (رابعا) لا يمكن ان تفيد الا أن عبد الناصر كان « شخصية فذة » في تاريخ مصر والوطن العربى ، وابنا بارا يمثل بعثا وانطلاقة مرحلة بعيدة الأثر في المنطقة وفى العالم . وأن تقييمه الحقيقى ملك للأجيال القادمة ، كما أن حسابه ـ رحمه الله وغفر له ـ هو كأى عبد من عباد الله متروك لربه . وعلى سبيل المثال والاستدلال فحسب ، نقول ان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وقعت فيها مذابح ومظالم تفوق الحصر ، ولكنها بقيت في تاريخ فرنسا علامة طريق واعز ما تحفل به وتحتفل حتى الآن ، بل « اشرف » ما بلورته للعالم أجمع من مبادىء .

سادسا : بغير شبهة تهديد لأحد كاتبا أو غير كاتب ، ولا متاجرة ولا مكابرة ولا نفاق ـ علم الله ـ ولا شيء الا مجرد الاحساس الوطني والاجتهاد الشخصي الخالص الذي يصل الى درجة اليقين ، وحسن التقدير ، ومن الاعزاز الحقيقي لأنور السادات الذي اخاله لمسه ويلمسه في شخصي الضعيف منذ اليوم الأول الذي سعدت بلقائه وبالعمل معه في بداية الثورة ـ ومن الفهم لطبيعة الرجل والانسان والزعيم ـ اقول أن ما يجرى من غمز بل وطعن في تلك المرحلة السابقة ليس من شأنه أن يكون محل رضاء السادات . واذا أردت « التجاوز » ـ في حذر حتى لا اتهم « باطلاق الرصاص ».. وقد كان عنوان مقال صالح جودت الأخير هو « على من اطلق الرصاص » ـ فانني أكاد أقول ان ما يكتب ـ على هذه الشاكلة .. مع التسليم بحرية القول وافتراض سلامة النية ـ لا يخدم البلد ولا الثورة ولا هذه المرحلة ولا قائد المرحلة .

ولقد يتقبل هذا الزعيم الثائر الصابر الحصيف مثل هذه الكتابات « الشاطحة » ويضرب صفحا عنها ايمانا منه بحرية الصحافة وتحملا لها . ولكنني أؤمن أن رفيق نضال عبد الناصر والذي اكرم هذا الزعيم الراحل ـ كلما ذكره وكلما حلت ذكراه ـ بكلمات ومشاعر من أبلغ وأرفع الكلمات والمشاعر حبا وفهما وتقديرا ، ليس هو الذي يرضى في أعماقه عن « التجريح » .

واذا كان السادات يحب عبد الناصر كثيرا حب الصديق والزميل ، فانه يحب ثورة يوليو كثيرا جدا حب أحد البناة الشرعيين المباشرين ، ويتفانى في حب مصر والعروبة حب العابد في محرابهما . ومن منطلق هذه المحبة الثلاثية أخذ السادات يصحح مسار الثورة ، ويعد ويثار من هزيمة يونيو ٦٧ .

عندما قضى السادات على مراكز القوى ـ بحق وشجاعة وبنفاذ صبر .. وبالتوكل على الله بالدرجة الأولى ـ في ١٥ مايو سنة

١٩٧١ كان ابن مصر والثورة وزعيمها .. وكان أيضا « يطهر » ما « اجله » عبد الناصر .

وعندما اكد السادات سيادة القانون والحريات ، وشرع يرفع الظلم عن المظلومين ويفرج عن المعتقلين ، ويعيد للقضاء قدسيته ، ويرد للقضاة اعتبارهم ، كان ـ من المنطلق نفسه ـ يصحح اخطاء ونزوات ووشايات وضربات عشواء .. لا أحسب الا أن مراكز القوى السابقة لعبت فيها دورا كبيرا .. وقد لا نكون عبد الناصر « منزها » عن بعض أوزارها في مرحلة من المراحل تحت ضرورة ووهم ومبالغات « حماية الثورة » .

وعندما أقدم السادات على أعظم انجازاته وأجلها وأحدثها في ٦ اكتوبر المجيد ، ورفع رؤوسنا واكد كرامتنا وعزتنا بالقوات المسلحة الباسلة التي يتولى قيادتها العليا كان ابن مصر والعروبة الأبر والأعز . واذكر الناسين ـ او المتناسين ـ ان الرئيس السادات وهو في قمة انتصاره الجليل النبيل يلقي خطابه التاريخي بمجلس الشعب يوم ١٦ اكتوبر لم ينس عبد الناصر بل تناوله بعبارات كريمة بالغة السخاء والوفاء والاصالة .

سابعا : انه حتى فيما يخص المشير عبد الحكيم عامر ، وهو بالتأكيد ـ فيما يرى كثيرون وأرى ـ في طليعة المسئولين المباشرين عن هزيمة يونيو ٦٧ . استأذن القارىء في أن اضرب مثلا « شخصيا » لأسلوب معالجة قضية مأساوية كقضية النكسة و « تحليل » مسئوليته فيها ، وان جاء تحليلا خاطفا و « منظوما » . فقد كنت أعرف في المرحوم المشير عامر « طيبة القلب » . وطيبة القلب شيء واجادة حمل المسئولية شيء آخر .. وان كان الشيء المثالي أن تجتمعا . ففي ديوان شعر بالغ المرارة والجنين والاصرار على تحرير الأرض اصدرته في نهاية سنة ١٩٧٢ باسم « خماسيات عربية أوروبية » تناولت مأساة المشير

« الواضحة » « المعقدة » بالحدود التي أراها مناسبة . . و « شبه مهذبة » ، أضمنها هنا .

قلت في قصيدة بعنوان « أسئلة حول عامر القلب » :

ظلمت ترى يا عامر القلب أم ترى

ظلمت ؟ . . ويا هول الهزيمة والردى

واحسنت ؟ لا أدرى ؟ أسأت ؟ لربما !

من البذل ما يغدو ابتذالا . . وقد غدا

« ووضع الندى في موضع السيف للعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى »

وحملت ما اغفيت عنه . . فقاده

وقادك من صافيت . . واخترتهم سدى

لعمرى ، وأنت المذنب . . فالخطب ، ما جرى ؟

كأنك لم تأخذ دروسا من العدا

ندينك ؟ أم « تاريخنا » . . حسم حكمه

غدا ؟ غير ان الثأر اولى لنا غدا

اى أنه ـ ببساطة . . وبرغم كل شيء ـ من الأفضل تأجيل هذه القضايا ـ على أهميتها ـ الى المستقبل ، والتفرغ لمركتنا ، مع التنبه لعدم الوقوع في الأخطاء السابقة وتلافيها وأخذ الدروس والعبر دون أن يستغرقنا « فرش الملاية » البيزنطية ! بحسن نية أو بسوء نية !

وعلى حد قول الزميل الاستاذ احسان عبد القدوس في مقال له : « ان الفكر السياسي يجب ان يرتبط اليوم بتحقيق الخطوة التالية لتحرير الارض ، مؤجلا كل ما يمكن أن يشغلنا عن هذه الخطوة . . وارضنا لا تزال محتلة » .

ولست أريد مناقشة مقال الاستاذ صالح جودت في قضية يقول عنها « شرعية الماضي سقطت الى الأبد واننا عشنا بلا شرعية من ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ يونيو ٦٧ الى ١٤ مايو ٧١ . وان شرعية جديدة نقية طاهرة بناءة قامت في مصر يوم ١٥ مايو ٧١ ووثقت في ٦ اكتوبر » فهذا « تزيد » يتنكر للتطور الطبيعي للتاريخ . فلا شيء يبدأ من فراغ . ولعلى وفيت - الى حد ما - هذه النقاط فيما قدمت به في السطور السابقة . كما انني لا أريد أن « اذكر » أو « احاسب » الاستاذ صالح جودت على ما كتب شعرا ونثرا عن عبد الناصر لسنوات طويلة قبل ٩ يونيو ولا يوم أن غنت السيدة أم كلثوم قصيدته الحارة الرقيقة في الثلث الثاني من يونيو ٦٧ والتي كان يطالب فيها عبد الناصر بعدم التنحي عن رياسة الجمهورية ، ولا ما كتبه بعد ذلك حتى مرثيته في عبد الناصر التي نشرت في اكتوبر ١٩٧٠ ، فكلنا كتبنا وكلنا نصيب ونخطيء ، وقد يكون من حق أى انسان أن يعدل من آرائه لسبب أو لآخر .

ولكن ما آخذه عليه هو هذا التعميم « المتعسف » الذي يسلب « الماضي » كل ايجابيته ، وكأن عشرين سنة ذهبت في الهباء تماما لم تنجز شيئا الا « واجهة براقة » كما يردد ، بينما « التطبيق » في رأيه جاء خلوا من أي حسنات ومكاسب حقيقية . وقد أكون - بطبعي - ضد مغالاة « الأبيض والأسود » ، أى القول بأن هذا أبيض مائة في المائة وذاك اسود مائة في المائة ولا وسط ولا اعتدال ولا اتزان ! وليس بهم « طبعي » .. وانما الاستاذ صالح جودت مدعو الى مراجعة الميزانيات والدخول والانجازات في قطاع الصناعة والزراعة والصحة والتعليم وعشرات المسائل الحيوية - برغم الصعاب التي واجهتنا وتواجهنا - التي أمكن تحقيقها خلال السنوات الـ ٢٢ الماضية . وادعوه الى اعادة قراءة خطب الرئيس السادات في مجلس الشعب والمؤتمر القومي

ومناسبات أعيادالثورة ، خلال السنوات الثلاث الماضية وحدها ، التي أسهب فيها عرضا للايجابيات والانجازات بالأرقام وبالنتائج برغم انها كانت تبدو قبل الثورة مستحيلة . وقد أدى « القطاع العام » مهام رئيسية في الوصول الى هذا المستوى وفي الصمود ، كما ساعد التطبيق الاشتراكي - على وفرة سلبياته التى يلزم معالجتها - فى الارتفاع « النسبى » بمستوى العمال ودخولهم وفى التعليم المجانى « الثورى » حتى الجامعة وفى « تشغيل » جميع الخريجين الذين كانوا متعطلين « يتسولون » أى عمل قبل الثورة حتى فى أدنى المراتب وبأحقر الأجور و « بالوساطة » ،ثم يفصلون فصلا جزافيا وتعسفيا بلا حساب ولا مراجعة .

غير أن « الكلام سهل » ، و « الموضة » وغاية « الشطارة » هى الغاء العشرين سنة الماضية وتصويرها بما صورها الاستاذ صالح فى قوله :

« واجهة رائعة بهرتنا فى البداية كما بهرت الأمة العربية كلها .. وهكذا آمن العرب بهذا الماضى ايمانا يقترب من حد العقيدة ، واصبح صاحب هذا الماضى نصف اله تقام له التماثيل وتقدم له القرابين وتنشأ باسمه الهيئات والمنظمات التى تهتف باسمه وتعتنق ايديولوجيته .. هذه هى الواجهة . أما التطبيق فقد كان شيئا مختلفا بالمرة . كان التطبيق هنا عانيناه - نحن المصريين - وحدنا ولم يكن فيه من سمات الواجهة شىء .النظام الاجتماعى الذى طبق علينا كان ظاهره العدالة الاجتماعية ، ولكنه انتهى الى افقار الأغنياء وتجويع الفقراء » .

وهكذا .. لا حسنة واحدة !

بل أن الأستاذ صالح جودت قد « خلط » بين رواية أو نكتة عن اساءة مصر لعلاقاتها الدبلوماسية بالدول الأخرى بغير استثناء .. وكانت هذه النكتة تروى عن فترة ما قبل الثورة

فنسبها « بالمرة » الى عهد الثورة ! مع أن مـواقف عبد الناصر والثورة من المجتمع الدولى كانت تحددها كلها المصرية والقومية العربية والتقدمية والتصدى للاستعمار .

على أن ما « زاد وغطى » هو « شبه الاستخفـاف » الذى تناول به الاستاذ صالح « حرب الاستنزاف » بقوله : استشهاد من استشهد « فيما سمى بحرب الاستنزاف » .

وحـرب الاستنزاف كانت مـرحلة عظيمـة للجيش المصرى والشعب المصرى ، وهى جديرة بالاكبار لأنها مثلت وكرست قدرة هذا البلد الأصيل على الصمود ومواجهة التحدى ، وهى بالفعل المقدمة التى بنيت عليها قاعدة ٦ أكتوبر الخالد . ولعل الزميل جودت يذكـر اجتمـاع الرئيس السادات بالصحفيـين والكتاب والفنانين فى ينـاير ٧١ وهو يحدثهم عن روعة حـرب الاستنزاف ويصف ما تولاه فيها من مسئولية جليـلة . وكيف طالب الأدباء والفنـانين بأن يخلدوا فى أعمالهم بطـولات جنـود الاستنزاف المستبسلين . وضرب مثلا بهذا الجندى « المدفعجى » الذى ظل فى موقعه يواجه طائرات الاعداء ويسقطها ولا يتخـلى عن واجبه الشريف المقدس حتى انتهى الأمر بأن شوهد « ذائبا » فى مدفعه منصهرا فيه ويده عليه ، وكأن الاثنين ـ البطل والمدفع ـ بفعل « النابالم » تمثال حى للبطولة والفدائية ، وان كان هذا قد استشهد وذاك قد تداعى .

اننى ـ وكلنا ـ ضد الظلم والاضطهاد والطغيان ، نستبشعه ولا نرضاه ، ولكنا نعتقد أن من الظلم الشنيع ايضا ـ لا « الخفة » فحسب ـ « دمغ » العشرين سنة الماضية والغاءها من تاريخنا بما فيها من تجربة وخطأ ، ومن مـكاسب وانجازات ومن قصور وسوء تطبيق ، ومن زوايا عديدة مضيئة وزوايا أخرى قاتمة .

وليس بالأمر الشاذ ـ برغم ما قد يعارضه بعض المتطرفين ـ أن يكون أبناء الطبقة المتوسطة « البورجوازية » مؤمنين بالثورة

بل بحتمية الحل الاشتراكي في بلد من البلدان النامية كبلدنا ، ما داموا وطنيين مدلهين بحب بلادهم . ولعلي هكذا عشت وأحببت الثورة والاشتراكية كابن « للطبقة المتوسطة » .

ولقد « امم » احد المصانع الرائدة التي كنت اشارك مع اسرتي في ملكيتها . واشهد الله انني ما غضبت او تمردت ، ولولا الاتهام بالمبالغة لقلت انني رحبت . فليس بالشيء الكثير ان أعطي روحي - لا بعض ما كنت املك فحسب - لهذا البلد الكريم وهذا الشعب العظيم . وقد وضع افراد من أسرتي « تحت الحراسة » ، ولا ازعم انني سعدت بذلك ، بل ربما « ناضلت » في سبيل انصافهم ورفع الحراسة عنهم في موجة الحراسات و « حموة السكين » المتسرعة الغاشمة ، ولكنى ابدا لم افقد ايماني بهذه الثورة التي كنت انشدها في سنة ١٩٥٠ و ١٩٥١ عندما نالت سمعة مصر عاليا في « الوحل » . وقد وضع أصدقاء وزملاء كثيرون لي من مختلف الاتجاهات في المعتقلات فحزنت لهم شدة الحزن ، ولكنهم عندما افرج عنهم خرجوا بنفس صافية غافرة متمسكين بثورة يوليو وبحب هذا البلد .. ولا اقل من ان اكون مثلهم حبا للثورة ولهذه الأرض التي هي « وان جارت علي عزيزة » .

ومن الواضح - مرة أخرى - انني لا اكتب ما اكتب من منطلق ما يطلق عليه « الناصرية » ، بل من المصرية العربية الثورية . ولكني ارجو - واصر - الا ننساق في محاولات « تشويه صورة عبد الناصر » ظلما وعدوانا وتسيانا .

لقد قال الاستاذ صالح جودت - عفا الله عنه - في مقاله « من حقنا أن نطلق الرصاص على كل من يفكر في أن يحول قلمه ليبعث هذا الماضي من القبر » . ولا أحسبه سوف يفعل ذلك معي اذ « فكرت في تحريك قلمي » واذا فعل فهو رصاصي

« لن يصيب » . اننى استخدم « رصاص المطبعة » الشريف فحسب : مع وافر احساسي بمسئولية الكلمة والفكر ، وخالص مشاعرى لمعنى الوفاء والتسامح والولاء لهذا البلد وثورته وقائدها ودقة المرحلة التى ما زلنا نجتازها والتى يلزم ان تثوب فيها « البلبلة » وتفيق ولا تفكر فى أن تتحرك . وثمة لمن يشاء مجالات لا حصر لها للكتابة وللآراء دون طعن وامتهان مرحلة العشرين سنة الماضية .

واقول للزميل صالح جودت ولكل زميل قد يدور حول أمثال كتاباته تلك ، كما أناشد الجميع ونفسى : « تعالوا الى كلمة سواء ! » .

□ فلنصلح حالنا . ولا موجب لتبادل الاتهامات واطلاق الرصاص ، والمطالبة بعزل فريق او آخر فالحياة تتسع للجميع ، والوحدة الوطنية تتطلب حشد كل الجهد للوطن . ولنعلم أن من يكيد لأحد .. فالله أكبر .

□ فلنحترم ماضينا احتراما لأنفسنا . ولنطالب بضرورة رفع الظلم عن كل مظلوم — وهو ما يحدث الآن بالفعل — بغير حاجة الى اساءات وتشويهات تحت أى شعار .

□ فلنحرص على الصدق مع النفس والصدق مع القارىء ولنجعل من حرية الصحافة مناخا نقيا صافيا .

□ فلنتق الله حق تقاته ، ولنتق فتنة « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

□ ولنلتفت الى معاركنا الوطنية والتحررية والبنائية التالية .. فهى ضخمة وشاقة ومحتاجة الينا جميعا .

● ● ● ●

ما كدت انتهى من كتابة هــذا المقال مساء الاثنين ١٨ـ٣ـ٧٤ حتى وافتنا وكالات الأنباء بالحديث الهــام الذى أدلى به الرئيس أنور السادات الى مجلة « تايم » الأمريكية وأجاب فيه على أسئلة عديدة تتناول مختلف القضايا المحلية والعربية والدولية .

وفى نهاية الحديث سأله رئيس تحرير « التايم » :

☐ ما هى العلاقة بين نظامكم ونظام جمال عبد الناصر ؟
واجاب السادات ـ الله يكرمه ـ بقوله :

☐ « لقد ذكرت دائما اننى شاركت فى اتخاذ القرارات أثناء حــكم عبد الناصر ، كمــا كنت أتحمــل مسئولية نائب رئيس الجمهورية عنــد وفاته . وأؤكد لك أنه اذا كان عبــد الناصر قــد عاش حتى هذه اللحظة لما كان قد فعل غير ما فعلت . ان ما يحدث حاليا هو استمرار لما كان قائما ، غير أن هذا الاستمرار يقوم على نقطتين رئيسيتين :

أولا : ان ما كان قائما لدينا هو تجربة . والتجربة لها ايجابيات وسلبيات . وما أفعله الآن هو تصحيح السلبيات .

ثانيا : انه يجب أن تكون لنا رؤية جديدة ، لأن كل شيء حولنا فى العالم من علاقات وموازين واستراتيجيات يتغير من ساعة الى اخرى . ومن ثم فيجب ان تكون هناك نظرة جديدة ونحن نحاول أن نكيف انفسنا طبقا لهــذه النظرة الجــديدة ، وتلك الموازين والاستراتيجيات المتغيرة. وهناك من يزعمون اننى ألغى الناصرية ، ولكننى لا أعبأ بهم على الاطلاق ، فهم لا يفعلون شيئا سوى مجرد الصياح . وفريق من هؤلاء يصيح لأسباب شخصية ، والآخرون لأسباب مادية » .

فيا استاذ جودت .. ويا كلّ الغمازين والطاعنين فى كافة « المواقع » : ما قولكم .. دام فضلكم ؟!
وعفا الله عما سلف ...

كأنما قدرنا ان نقضي العمر ـ عمر جيلنا ـ نواجه اسرائيل .. ولا بأس ، ما دام فى ذلك .. السبيل للقضاء على ما تمثله اسرائيل ، بدلا من أن تقضى هى علينا . وابتداء ـ قديما وحاليا ومستقبلا ـ لست أخفى عدائى الشديد ـ ولا عداء جيلنا ـ لاسرائيل التى تمثل أبشع استفزاز وظلم صارخ للقيم الانسانية . ولا احسبنى قادرا على التحرر من هذا العداء ابدا . وفى هذا اشعر بأنى « حر » ولا توجد قوة على الأرض مهما تكن تستطيع ان تلزمنى بغير مشاعرى هذه الى أن ألقى وجه الله ، وفى نفسى هذه الكراهية التى أرجو أن تحسب فى « حسنات » قد تسهم فى التخفيف من سيئاتنا وظلمنا لأنفسنا ! ولربما يزول هذا العداء اذا تغيرت اسرائيل (!!) وهى لن تتغير الا بانتفاء كيانها العدوانى . فهل انتفاء هذا الكيان العدوانى يمكن ان يحدث بغير انتفاء « المؤسسة العسكرية الاسرائيلية » التى هى اسرائيل ؟ !

على ان الكراهية وحدها لا تفيد . هى شعلة متأججة مقدسة ؛ ولكن ليس قصارى الجهد ان نوقد شعلا فى أنفسنا ثم لا شيء ، أو .. ثم نحترق بها ! فقد كرهناها ثم لم نحقق ما نرجو من عدالة سنة ١٩٤٨ . ازددنا كراهية لها بعد عدوان ١٩٥٦ .. ومع ذلك تلقينا هزيمة طاحنة سنة ١٩٦٧ ضاعفت من كراهيتنا ، كما ضاعفت من غرورها « الأعمى » و « المفيد » . وافقنا بالصبر والاستعداد والدعم والاتحاد ، فهذبنا الكراهية ، وأعطيناها بعدا عمليا أوجب وأذكى وأشجع وأكثر أهمية . فاستحقت المواجهة « الرابعة » — يوم ٦ اكتوبر المضيء فى الظلمات — ان تكون من جانبنا أدق تنظيما ، تمثل طاقة هجومية « عابرة » فدائية قادرة ، لعلها هزت كيان العدو هزة سماها الاسرائيليون انفسهم « الزلزال » ، وبسبب التحقيق فيها فجر تقرير « شيمون اجرانات » الموقف فى اسرائيل .

غير اننا من هذه الزاوية بالذات — زاوية الزلزال والهزيمة الاسرائيلية « المحدودة » والتحقيق ونتائجه — ينبغى ان نحلل حقيقة اسرائيل ونتأمل ما تضمره من عدوان وتوسع وشراسة ، بل تكاد تفصح عنه بتصرفاتها الحاضرة والمحتملة ان لم اقل « الأكيدة » ، ثم ننتهى من هذه النظرة الشمولية ومن التحليل الى الدعوة الخالصة التى هى صلب هذا الفصل وهدفه .

فى صباح ١٠ ابريل من العام الماضى (٧٣) قامت اسرائيل بعدوان مبيت « غريب الاستخفاف والاستفزاز » استهدف منازل ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية فى قلب بيروت وعددا من المنازل ومقر قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، كما استهدف بعض المبانى عند مشارف مدينة صيدا . تخفت القوات الاسرائيلية فى زى مدنى ونزلت الى الشواطىء اللبنانية ذاتها التى استخدمها مشاة الاسطول الامريكى فى عدوانهم على لبنان عام ١٩٥٨ ، ثم استقلت ٦ سيارات مدنية كانت المخابرات الامريكية متعاونة

مع عناصر غربية قد استأجرتها قبل ذلك بثلاثة ايام . وتوجهت القوات المعتدية الى منازل محمد يوسف النجار (أبو يوسف) وكمال ناصر وكمال عدوان من كبار قادة المقاومة وفتح وهاجمت شققهم بأسلوب مفاجيء فاستشهد القادة الفلسطينيون الثلاثة بعد معارك كان اعنفها فى شقة كمال عدوان الذى واجه بمدفعه الرشاش وحده قوة اسرائيلية كبيرة فأصاب عددا من افرادها قبل أن يسقط مضرجا بدمائه (كان المعتدون المغامرون المجرمون يريدون قتل ياسر عرفات أيضا فلم يستطيعوا العثور عليه) . وبينما كان أزيز الرصاص ودوى الانفجارات يهز السكون فى بيروت انتشرت قوات المقاومة وانضمت اليها قوات من الجيش اللبنانى وأخذت تطارد القوات الاسرائيلية التى فرت الى الشاطيء لركوب الزوارق التى كانت تنتظر هناك .. وفى خيلاء بالغة عقد دافيد اليعازر رئيس الأركان الاسرائيلية (المقهور المطرود ، المنهار المستقيل بعد التحقيق فى هزيمة اكتوبر) ــ عقد مؤتمرا صحفيا أعترف فيه بأن العدوان الاجرامى كان عملية مشتركة ضمت القوات الجوية والمظليين والبحرية الاسرائيلية ، وان المقصود بها « تأديب » المقاومة ولبنان والبلاد العربية . ومضى يتحدث عن « الردع .. واليد الطويلة الاسرائيلية الباطشة » .. وأشار ــ على وجه التخصيص ــ الى كمال عدوان « المسئول عن نشاط المقاومة الفلسطينية داخل اسرائيل نفسها » .

وهلل ديان . وهنأت جولدا مائير رئيس اركانها « المظفر » ووصفت العملية بأنها كانت « رائعة » ! و « هاجت » الدول العربية (٦ اشهر قبل ٦ اكتوبر) ، وأعلن الرئيس السادات فى خطابه الشامل الخطير البصير يوم أول مايو بمناسبة عيد العمال أربع نقاط رئيسية ومؤثرة وقاطعة فى هذا الشأن . قال : ما حدث فى بيروت هو فى وجه كل عاصمة عربية وشرفها وكرامتها وكل عربى حاكما او محكوما . قال : نحن نعد حتى نوقف اسرائيل

عند حدها وحتى نضع نهاية حاسمة للعربدة الاسرائيلية . قال : الموقف العربى يتحسن .. لكنه لن يعطى احسن ماعنده حتى نبدأ نحن المعركة . قال : سنتحرك وسنكسر الجمود ..

وصدقت وعود السادات وصحت توقعاته تماما ..

وفى ٦ اكتوبر ٧٣ تغير ـ بالحق والعدل ـ ميزان القوى وقلمت اظافر بل أصابع « الوحش » ذى اليد الطويلة . ومع اعتدال الميزان الحقيقى .. اختل الميزان العدوانى لاسرائيل .. غير أنها كأى « وحش جريح » لم يلفظ ـ بعد ـ كل أنفاسه السامة المسمومة ، اخذت تمارس أسلوب « حلاوة الروح » وتحاول تجربته لتؤكد استمرار قوتها .. حقيقة أو « تمثيلا » !

ففى الحادى عشر من أبريل ١٩٧٤ ، أى فى اليوم التالى للذكرى السنوية الأولى لاستشهاد القادة الفلسطينيين الثلاثة ، ومن داخل « اسرائيل » ذاتها ، وبفضل الحيوية والجسارة وبعث المواجهة العربية الاسرائيلية الرابعة فى العاشر من رمضان (٦ اكتوبر) ، أنطلق ـ من داخل اسرائيل .. لا من جنوب لبنان ـ ثلاثة فدائيين عرب فلسطينيين ـ أصحاب الأرض .. كل الأرض ـ الى مستعمرة « كيريات شمونة » واحتلوا منزلا من منازل الغاصبين ، ومعهم بعض الرهائن . كانت طلبات الفدائيين الفلسطينيين « معتدلة » و « سلمية » : الافراج عن مائة معتقل من المعتقلين الفلسطينيين المقهورين داخل سجون اسرائيل .

ولكم بح صوتنا ونحن نطالب الفدائيين الفلسطينيين أن يكفوا عن عمليات خطف الطائرات أو احتلال السفارات أو كل ما يوجه ضد اسرائيل خارج اسرائيل ما دام يعرض للخطر حياة الآخرين غير الاسرائيليين .

وان كنا نلتمس للفلسطينيين أحيانا بعض العذر لأنهم فقدوا كل شيء .. ولكننا لم نرد لهم ان يزداد فقدهم لعطف العالم الذى كان مفقودا !

ولكم ناشدناهم أن يحكموا ضرباتهم داخل فلسطين المحتلة وحدها وان يثأروا لأنفسهم فيها بالا يذيقوا الغاصبين طعم الراحة ، وها هم هؤلاء يقتحمون ـ من جنوب اسرائيل .. لا جنوب لبنان ـ أضخم مستعمرات الجليل . وحتى لو كانوا ـ بكل المشروعية ـ نسفوا نصف المستعمرة وقتلوا نصف مستعمريها المستوردين لما كان هذا يمثل واحدا على مليون مما حاق بالفلسطينيين خلال ٢٦ سنة . ولكن الفدائيين الثلاثة الأبطال اقتصروا على تقديم طلبات الافراج عن المائة الابرياء المعذبين .

قبل هذا « الحادث » بأيام كان موشيه ديان قد قدم استقالته .. وعلى حد تعبير « الصنداى تايمز » البريطانية فى ٧ أبريل « ان الضغط الأساسى الذى يهدف لاستقالة ديان ـ وهو الأمر الذى يثير السخرية ـ يأتى من جانب الجيش الذى تهاوت أوهامه الكاذبة . ومن بين أهم مطالب تلك المجموعات الضاغطة (المتطرفة) المطالبة بأقصاء المجموعة المعروفة باسم « التحدى » وهى تتكون أساسا من الجنرالات السابقين الذين لا ينتمون الى أى جماعة محدودة من ائتلاف حزب العمل الحاكم ، وتشمل هذه الجماعة ثلاثة من الوزراء هم اسحق رابين وحاييم بارليف ـ وقد تقلد كل منهما منصب رئيس الاركان من قبل ـ واهارون ياريف الذى تولى منصب مدير المخابرات العسكرية لمدة تسع سنوات .. »

وهكذا ـ كما نرى ـ مؤسسة عسكرية وعدوانية مزايدة فى الحكم .. فى السياسة .. فى الجيش .. فى المعارضة .. فى كل مكان ! .. وما علينا من محترف الاجرام الأكبر الارهابى مناحم بيجن الذى يحلم بتولى الحكم ليبدأ القصة من أولها .. وان كنت أثق فى انها ستدك فوق رأسه الشيطانى ! هكذا اسرائيل .. جرثومة عنصرية ارهابية توسعية ، ودعك من « الغطاء » المزيف الذى يصفونه بانه حضارى وديمقراطى واشتراكى !

وفى « الحادث » بيوم واحد .. كانت جولدا مائير نفسها قد قدمت استقالتها واعلنت أنه « اعتزال » لا رجعة فيه . وعقدت وزارتها اجتماعها « الاخير » فى نفس الوقت الذى جرى فيه هجوم الفدائيين الثلاثة على كيريات شمونة المأفونة . و « انسلت » ديان من الاجتماع ووصل بطائرته الهليكوبتر من تل ابيب الى المستعمرة التى افزعها ثلاثة فقط لا غير ، وتولى الاشراف بنفسه يصاحبه الجنرال اسحق هوفى رئيس الأركان الجديد والجنرال موردخاى جور قائد الجبهة الشمالية ـ على ترتيبات العمليات ضد الفدائيين الثلاثة . ولم يصغ القادة الاسرائيليون والجيش الاسرائيلى لطلبات الفدائيين بالافراج عن المعتقلين المائة حقنا للدماء (ولسوف يصيخون آجلا او عاجلا وبرغم انفهم) . وهكذا لم يجد الفدائيون البواسل بدا من نسف المبنى وهم بداخله مع الرهائن عندما لم يجابوا الى طلبهم .. وعندما هبطت قوات المظلات الاسرائيلية فوق سقف المبنى لاقتحامه .

ونسائل انفسنا بل يسأل العالم نفسه : ما هو وجه الاستحالة فى ان يكون هؤلاء الفدائيون الفلسطينيون الثلاثة جاءوا من قلب فلسطين المحتلة (اسرائيل) كما أكدت المنظمة الفدائية التى اعلنت مسئوليتها عن العملية ، ونفت تماما انهم تسللوا من جنوب لبنان ؟ لا استحالة بطبيعة الحال ، بل أنه امر وارد ومعقول ولا جدال فيه . الا تحدث عمليات فدائية فى تل ابيب ذاتها وفى حيفا وفى كل المدن الفلسطينية السليبة ؟! من أين جاء القائمون بها ؟ من جنوب لبنان أيضا ؟! أم المسألة هى عودة الى « ارهاب » لبنان والمقاومة والدول العربية و « تركيب أطراف صناعية » لليد الطويلة السابقة المقطوعة « بجيلوتين » ٦ أكتوبر ؟ !

غير أن « البطل » ديان ـ مع استقالته ... وبحثا عن « الشعبية » داخل اسرائيل « الوحش الكاسر .. المكسور » ـ قاد بنفسه قوات ضخمة حشدتها اسرائيل .. عدوة العرب

الاولى ـ وحدها .. وبسندتها ـ للقيام بعدوان على ٦ قرى لبنانية مهجورة ، ولينسف ٢٤ منزلا ويعتقل ١٣ مدنيا ويقتل اما وطفلتها ! « برافو » .. ديان ! ثم أعلن أن هذا هو رد اسرائيل على عملية الفدائيين الثلاثة الذين هاجموا كيريات شمونة بالجليل الأعلى ، لأن لبنان يتحمل مسئولية وجود الفدائيين فى هذه المنطقة !

هو حنق « المترنحين » المستعدين لصنع أى شىء .. وكل شىء بعد أن « تعروا » أمام العالم .. ولعله مما يزيد فى حنقهم ـ ولنتأمل ولنأخذ حذرنا ومبادرتنا ـ ان هذه العملية كما تقول جريدة « لسوار » البلجيكية « تلقى تأييدا عاما نظرا لأنها تمت داخل الأراضى الاسرائيلية ، وان توقيتها قد جاء أخيرا فى الوقت المناسب بصفة خاصة ، وانها قد تؤدى الى زيادة حدة الاضطراب الذى ساد اسرائيل نتيجة حرب أكتوبر والذى تمثل فى استقالة جولدا مائير . ومما يلفت النظر أن هذه العملية قد تمت فى نفس الوقت الذى بدت فيه مظاهر عديدة للقومية الفلسطينية خلال الأيام الأخيرة فى الأراضى المحتلة . ـ ثم مثلا ـ رفع الاعلام الفلسطينية على حائط المبكى وفى مدينة نابلس . ووقعت عدة اغتيالات فى أحد الاتوبيسات وفى مقر الهستدروت ، وقام بعض النساء باحتلال مقر العمدة فى مدينة نابلس وهن يرددن الأغانى الوطنية الفلسطينية » .

على أن « الانتقام » الاسرائيلى وقع على لبنان ليؤكد من جديد ـ كما اكد دائما .. والححنا دائما ـ ان اسرائيل تصر على ان تمثل خطرا حقيقيا موجها لأصغر قرية عربية فى أبعد بلد عربى من المحيط الى الخليج !

وفى سوريا دابت اسرائيل فى ذلك الحين على تصعيد عملياتها بالجولان ، ولا كأن درس ـ أو شرخ ـ اكتوبر قد احدث اثره فى هذا العدو اللئيم الشرس .

وعلى الفور يدلى اسماعيل فهمى — وزير خارجية مصر — بتصريحات « يقظة » فى الامم المتحدة يحذر فيها بان مصر سوف توجه ضربات قاضية الى اسرائيل اذا استمرت القوات الاسرائيلية فى تصعيد عملياتها ضد سوريا ولبنان . ويعلن أن الاسرائيليين يخاطرون باحداث نكسة فى اتفاقية السلام كلها ، واننا لن نقف مكتوفى الأيدى ونتركهم يضربون لبنان وسوريا .. ألا ليت الذين بدأوا « يسترخون » هنا وهناك ويشغلون بذواتهم وتطلعاتهم الشخصية يسمعون ويفيقون مما « يمضغونه » من أحن وأحلام ! الا ليت هذه الفئات تصحو وتتنبه على اختلاف نوعيتهم وعلى قلتهم فى مصر وفى البلدان العربية سواء أكانوا ممن يقولون بأن كل شىء قد انتهى بعد ٦ اكتوبر وتحقق النصر كله وآن أن نستريح « وننفضها سيرة » ، ام كانوا ممن يطعنون ويزايدون ويشككون ويتهمون بالتفريط والحول الجزئية والارتماء فى أحضان الغرب أو الشرق ، ليعلموا انها مصر والوطن العربى اولا واخيرا ، وليعملوا لمصر والوطن العربى أولا وأخيرا .

ويضع الرئيس السادات فى لقائه مع المبعوثين فى ٧٤/٤/١٦ النقط فوق الحروف فى هذا الخصوص ليعرف من لم يكن يعرف أنه ليس فقط « خللى السلاح صاحى » بل اكثر من ذلك « خللى السلاح حامى » .. فهو يؤكد اننا مستعدون الآن لأية احتمالات ، وان رقم الدبابات الموجودة فى غرب القناة والمستعدة للعبور فورا اذا اقتضت الضرورة رقم مذهل . كما يوضح الرئيس ضرورة قيامنا ببناء القوة الذاتية لمصر « فاذا لم نبن أنفسنا عسكريا وسياسيا واقتصاديا وتنظيميا ، واذا لم نبن القوة الذاتية لنا ستضربنا اسرائيل مرة أخرى .. فالبناء الجديد شرط اساسى لاستمرار انتصارات ٦ اكتوبر وما حققه الجندى المصرى » .

وربما أردت من هذا المدخل كله وعرض موقف اسرائيل الآن وتحليله أن انتهي الى اللب القديم المتجدد والمتأكد لهذا الفصل وهو : أيها العـرب ، أتحـدوا فان عدوكم واحـد ! وربما أردت كذلك التذكير بالموقف العظيم للعرب والدول العربية والحكام العرب عندما بدأت معارك رمضان البطولية . على أن الرئيس فى حديثه الى المبعوثين يوم ١٦ ابريل ٧٤ تناول هذا الموقف العربى الجليل بأفصح وأدق ما يمكن أن يوصف به . قال « طوال قرون طويلة لم يكن يكتب للأمة العربية أى انتصار الا اذا اجتمعت مصر وسوريا ومعهما الامة العربية . ولقد كنت مقتنعا انه لا يمكن رد الغزوة الاسرائيلية ضد الامة العربية الا باتحاد مصر وسوريا . والحقيقة انه كان اشرف لى ان أموت فى المعركة من أن أظل رئيسا للجمهورية وبلادى محتلة . ولقد انفعل جميع الرؤساء والملوك العرب بالمعركة بصورة لم تحدث من قبل لدرجة ان الرئيس بومدين كان يتصل بى تليفونيا كل ليلة ، وأمير الكويت كان يحدثنى بين ليلة وأخرى وهو فى أشد الانفعـال . ما من زعيم عربى الا كان يتصـل بى يوميا . وأخواننا فى سوريا أخذوا القرار معنا ودخلوا الحرب .. وواجبنا الان ان نحافظ على الموقف السورى مهما حدث » .

غير أن النداء بضرورة ازدياد اتحاد العرب فى مواجهة العدو الواحد الالد المشترك .. هذا النـداء ما زال شـديد الالحاح ، وخاصة بعد ما تكشف من تجـدد نيات اسرائيل ومحاولاتها مع المقاومة ولبنان وسوريا وبالتالى الدول العربية جميعا .. تلك النيات والتصرفات التى لعلى لم أتجـاوز كثيراً لدى عرضها فى هذا الفصل ..

نقول للعرب كل العرب شعوبا وحكومات وحـكاما : عضـوا على قضيتكم الأولى والمصيرية بالنواجذ . اتحدوا أكثر وأكثر .. انبذوا أى خلاف بينـكم أو على الاقـل أجلوه . بذلك لن يجـد الخوارج والمستضعفون والمزايدون والمراهقون الفكريون متنفسا ،

فلا يبقى امامهم الا ان « يمرقوا » أو ان « يتطهروا » ويمضوا فى الصف العربى الزاحف الموحد . ان ظروفنا مواتية تماما بعد ٦ اكتوبر وتغير الظروف العالمية ، وبعد « انكشاف » اسرائيل ، وبعد ظهور اثر القوة العربية البشرية والمادية والعسكرية والمعنوية فى العالم ، وبعد اتضاح وتبلور قيمة البترول العربى والاموال والارصدة العربية . فلا تفرطوا فى ذلك كله . حرام فانها فرصة العمر لتزداد عزلة اسرائيل ويأكل بعضها بعضا ، وتأخذ حجمها الحقيقى ـ اذا كان لها حجم ـ ولنستطيع آخر الأمر ان « نفقع راس الدمل السرطانى » الذى عطل مسيرتنا ونمونا وجهودنا أكثر من ربع قرن . ولا يعنى هذا ـ أيها الغرب وايها الشرق ـ « القاء اسرائيل فى البحر » كما يحلو لها أن تطلق صيحات الاستصراخ الكاذب ، فنحن لا نلقى أحدا فى البحر .. ولكنا فقط نريد أحقاق الحق .. وللجميع .. وفى سبيل السلام القائم على الحرية والعدل .

ليست هذه خيالات « كاتب متطرف » ولا هى أحلام وردية « مسطحة » ولكنها حسابات نستطيع ان نجريها وأن نحققها بارداتنا ووحدتنا ، وبالعمل الجاد الشاق من خلال الدروس المستفادة .. وبمشيئة الله ، حتى نكفل الامان والرخاء لامتنا العربية فى يومها وغدها ..

قد يكون من « محاذير » تجارب الأمس البعيد التى « أخذت » على تلك المراحل الماضية .. « مظنة » « لاحتفاء الزائد » بكل دعوة وكل صيحة وكل اشارة !؟! كانت درجة أهميتها ، وكأن الصحافة وأجهزة الاعلام كانت تتحول — فى رأى الراصدين العائبين .. قدامى وجددا — الى « معزوفات » لارضاء الملحنين والمؤلفين رغبا أو رهبا !

وأيا كان الرأى فيما حدث ، فلعنا قد وعينا « الدرس » سواء بالنضوج أو المناخ الحر او بفرط الاحساس والحساسية ، وان لم تكن « المحصلة » تعنى أن التجارب الماضية فى هذا الحقل كانت خاطئة تماما او مصيبة تماما !

بهذه « الخلفية » نقرأ « ورقة أكتوبر » ونتأملها ونعيها ونصر على ان نكتب عنها ونناقشها .. ومن الحق ومن الواجب ان نهتم بهذه الورقة الهامة المقدمة من الرئيس أنور السادات ونحتفى بها : لا لأننا استفتينا فيها فحسب — والاستفتاء وسيلة

لا غاية ـ ولكن لانها تفتح آفاق الفكر والعمل فى الحاضر والمستقبل لحياتنا وبلادنا عبر ربع القرن الخطير القادم وحتى سنة ٢٠٠٠ .

ولقد يقوم « ضيق الوقت » عذرا ان لم يرتفع الارتفاع المأمول والمألوف « مستوى » المناقشات التى جرت حول ورقة أكتوبر فى الاجتماع المشترك لمجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٨ من ابريل ١٩٧٤ .

على أننى قد لا أراه عذرا كافيا أن تستغرق المناقشات ـ فى غالبيتها ـ ملاحظات دارت فيما اذا كان الأنسب أن تسمى « ورقة اكتوبر » أم « ورقة رمضان » ، أو فيما اذا كان العبور « معجزة » أم « غير معجزة » ، أو فيما اذا كان السادات « مسئولا » عن السنوات العشرين الأولى من ثورة ٢٣ يوليو أم « غير مسئول » .. فكل هذه مسائل قضى فيها بداهة ومنطقا وتصريحا ، ولا محل ولا موجب لأن نبدأ فيها ونعيد. مجد البداية الموفقة لمعركة التحرير هو مجد فى ذاته سواء نسبناه لرمضان ـ على كرمه وعظمته ـ أو اكتوبر .. فللمجد الساعة التى تم فيها .. وكلها أيام الله ! والعبور هو ايمان الانسان المصرى وارادته وعلمه وبسالته .. والانسان هو معجزة الله فى أرضه ، كما أن الله فى عون من يعين نفسه وأخاه ، وهو ينصر من ينصره .. والسادات أكد مرة بعد أخرى أنه مسئول عن ثورة ٢٣ يوليو وقراراتها ، وانه رفيق « متضامن » لنضال عبد الناصر ، وانه من موقع المسئولية مارس النقد والتصحيح ويمارسهما عمليا لمسار ثورة ٢٣ يوليو حبا لها وبرا بمصر وشعبها . كل هذه مسائل « محسومة » . ولربما كان يكفى أن يتناولها واحد فى المناقشة .

ولست أعنى بهذه المقدمة اننى كنت انتظر « معارضة » أو اطلبها ـ فلماذا المعارضة ؟ وهى حياتنا وآمالنا مصورة فى ورقة تصدر عن حب وصدق وتقابل بالحب والصدق ـ وانما الذى كان مرجوا هو التحليل ، والمؤازرة بالأفكار ، وتفتيح المناقشة

واثراؤها والتأكيد لمعان وارادة ، والاستيضاح اذا لزم ، والاقتراحات العملية المثمرة للتطبيق الى غير ذلك ..

وكلنا نثق فى الرئيس السادات بحق وعن تجربة .. لا نتملقه ولا نداهنه ، وهو الذى أفسح جو الحريات ، بل هو الذى استهل رياسته بأن قال : سأعمل على كسب هؤلاء الذين قالوا « لا » .. وكسبهم بصبره وأيمانه وجسارته وحصافته .. وقد عبر السادات فى الاجتماع المشترك عن اعتزازه بهذه الثقة وقال « لقد مكنتنى هذه الثقة من أن أمضى فى الطريق بلا تعويق أو تردد ، وكان هذا مثار أعجاب العالم » . ولكنه أضاف ليجتزىء بكلمة أول المتحدثين فى هذا الشأن بان قال – أى الرئيس – « ولكن الذى أرجوه أن نفسح المجال لأكبر عدد ممكن اذا كانت هناك حاجة الى توضيح فى هذه الورقة » .

على أننى – آخر الأمر – قد التمس العذر للكلمات الحماسية المتعاقبة . لقد كان أول لقاء للرئيس باللجنة المركزية ومجلس الشعب فى اجتماع مشترك بعد حرب ٦ أكتوبر اذا استثنينا الجلستين الخاصتين لمجلس الشعب فى يوم ١٦ أكتوبر خلال المعركة ، ثم فى « يوم الابطال » وتكريمهم بعد المعركة . وكان متصورا ان تجيش المشاعر ..

وبين قطاعات الشعب تدور حول ورقة أكتوبر مناقشات تتسم بمزيد من الحيوية .. فهؤلاء هم « فى النهاية هدف هذا التقدم ، وفى البداية وسيلة هذا التقدم .. والضمان » .. ولست أبالغ اذا قلت أننا قد نسمع من رجل الشارع والانسان البسيط آراء وملاحظات قد تبلور فى كلمات فطرية ومباشرة ما لا تستطيعه تحليلات الخطباء والكتاب ، فهكذا تعودنا من شعبنا ، بغير اقلال من شأن مثقفيه أو تزيد فى الثناء على بسطائه .. تلك حقيقة

خالصة ، وما احسبنى تعودت أن « اصانع » احدا .. او ان اكون من « المداحين » على اى مستوى خوفا او طمعا !

• • • •

ولقد تدافعت الى ذهنى خواطر وأنا أقرأ « ورقة اكتوبر » ، ثم أتأملها وأفكر فيها .. فى توقيتها ومعناها وجوهرها وفلسفتها وصعابها وطموحها .. قرات الورقة بصوت خافت ، واستأذن القارىء فى أن « أفكر » فيها بصوت مسموع :

(١) الانطباع العام الذى يلوح مع قراءة « ورقة اكتوبر » انها وضعت « الميثاق الوطنى » فى اعتبارها واستهدفت ترشيده .. ولا يبدو ذلك من الاشارة الى مبادىء أساسية فيه أو تضمين فقرات منه فحسب ، ولكن من التمثل بروحه الثورية الاصيلة . كانها استفتاء آخر على الميثاق الوطنى .. وانما موضح ومجدد وفى ضوء التجربة والخطأ والتصحيح . ولا ينفى ذلك بالطبع ان لها منهجها الخاص وروحها وفلسفتها وحصيلة أفكارها العملية من واقع ١٢ سنة شهدت كثيرا من المتغيرات المحلية والعربية والعالمية ، فهذا هو منطق الأشياء ، ولكنها فى النهاية لم تخرج من فراغ بل تمضى كحلقة منطقية لامتداد الثورة ولمواثيقها .. وينبغى ألا يغيب عن النظر فيها والتحليل والانصاف انها أول وثيقة ثورية يستفتى فيها الشعب خلال ثورة ٢٣ يوليو ليست وليدة ردود فعل « نكسة » .. فالميثاق الوطنى وضع واستفتى فيه بعد نكسة الانفصال فى سبتمبر ٦١ ، وبرنامج ٣٠ مارس كتب وتم الاستفتاء فيه بعد نكسة هزيمة يونيو ٦٧ الرهيبة وما اعقبها فى فبراير ٦٨ من « ارهاصات التمزق » بين الشباب وقطاعات مخلخلة من الشعب .. أما « ورقة أكتوبر » فانها تجىء متمشية مع أول انتصار حقيقى لمصر وللأمة العربية على اسرائيل .. انتصار وان

لم يكن كاملا حاسما ، فهو بالتأكيد ــ فى رأى المحللين لا الآملين فحسب ــ يمثل بداية النهاية للكيان العدوانى الاسرائيلى .. ومن هنا تأتى القيمة المادية لورقة أكتوبر التى تتميز بها فضلا عن « البعد المعنوى » الكبير الذى لا يقل اهمية ..

(٢) من أوهام اسرائيل وغرورها وصلفها بعد « انتصارها المخطوف » فى يونيو ٦٧ أنها بدأت تضع ــ بحساباتها وحسابات مسانديها ــ تصوراتها مكتوبة « ومسجلة » للوضع فى سنة ١٩٨٠ وسنة ٢٠٠٠ وترسم « خريطة حضارية صناعية اسرائيلية » للمنطقة .. ملخص تلك الخريطة والاحلام الشرسة المستفزة الحقيرة يقوم على ثلاث دوائر : أولاها ــ بالطبع ــ هى اسرائيل المركز الرئيسى الحاكم فى المنطقة « ومنارة الحضارة والصناعة » فيها ! والدائرة الثانية هى الدول العربية المحيطة وتستخدم لامرين لا ثالث لهما : « تسخير » الايدى العاملة الفقيرة الضائعة فيها للعمل فى المصانع الاسرائيلية والانتاج الاسرائيلى . ثم استخدام هذه الدائرة وكثافتها السكانية كسوق للانتاج والصناعات الاسرائيلية التكنولوجية الثقيلة والخفيفة المسيطرة . اى أن الملايين العرب « المجاورين » فى الدائرة المذكورة ما هم الا قطاع مستهلك (بفتح اللام) وللاستهلاك الاسرائيلى .. بمعنى استثمار وتنمية رأس مال الأفعى الصهيونية التى هى اسرائيل ذات المليونين ! والدائرة الثالثة ــ وتشغلها مصر ذات حضارة الـ ٧٠٠٠ سنة ــ تكمل الدائرة الثانية ، « ويسمح » فيها فقط ببعض الصناعات التقليدية البسيطة كالغزل والنسج ! وهكذا نسج لهم غرور بنى صهيون اللئام .. فيا سلام ويا ألف سلام ! بل يا للجحيم .. والى الجحيم تلك الاوهام التوسعية الوضيعة ، ولتبتلع « الكومبيوترز » التى وضعتها سمومها الصهيونية الاستعمارية وتنتحر بها وتتحطم .

وفى مواجهة هذا التحدى الخطير كان الاعداد الصابر الواعى للمعركة . وكانت حرب أكتوبر .. والنصر العربى فى أكتوبر الذى تترجمه ورقة أكتوبر وترسم هى أيضا ـ بالحق والعدل والسلام ـ خريطة حضارية صحيحة للمنطقة بعد ان داست على « كراسة اسرائيل » ذات الدوائر الثلاث بما داسته من اسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر .. والعلم التكنولوجى الاسرائيلى الذى لا يبارى ! انزلنا تصوراتنا الواقعية لا الحالمة للوضع سنة ٢٠٠٠ .. وضع ٣٦ مليون نسمة هم سكان مصر وحدها ـ ويزدادون ـ ووضع البلدان العربية التى تعدت كثافتها السكانية مائة مليون لتكون الأرض طيبة ومعطاءة ومتحضرة لاصحابها لا لمليونى نسمة من الدخلاء ! وقد كتبت السطور الأولى من هذه التصورات وكرست فى ٦ ساعات .. هى التى استغرقتها العملية الجليلة للعبور وتحطيم خط بارليف !

(٣) اذا كنا نأخذ هذه الأمور ـ وورقة أكتوبر ـ ببساطة ، وتتصور أن التقدم والتنمية والرخاء حتى سنة ٢٠٠٠ سهل ميسور يجىء « من تلقاء نفسه » فاننا نكون جد واهمين ونقع فى خطأ فادح . انها عملية بالغة الصعوبة والمشقة ، والدأب والعمل المستمر ، وتتطلب استنفار كل ذكائنا وتخطيطنا وحساباتنا وصبرنا ، كما تقتضى ـ بالدرجة الأولى ـ التخلص تباعا وسريعا وبصرامة من كل سلبياتنا الى درجة التجنيد والتعبئة العامة فى هذا المجال .

لن نستطيع أن نخفى حقيقة أننا نواجه معركتى البناء والتحرير الآن ، ونحن شبه منهوكى القوى مثخنى الجراح مستنزفين « فان الشعب المصرى قد تحمل فى سبيل ردع العدوان أكثر من عشرة آلاف مليون جنيه ، فضلا عن أرواح شهدائه التى لا تقدر بثمن »

(ولا ازال اقول هنا واكرر ان على اسرائيل ، ومن ساند اسرائيل برغيف العيش حتى الطائرة الفانتوم واسلحة العدوان والدمار ، والمجتمع الدولى .. عليهم جميعا ان يدفعوا الثمن تعويضا عن الخسائر التى تكبدناها ظلما وبغير مبرر أو مشروعية ، وتحملناها لاننا نحرص على الحرية والعدالة والسلام . ولا يتفلسفن أحد بالقول ان دفع التعويضات لنا يعنى اننا نعترف باسرائيل . فهذه « نقرة » .. وتلك « نقرة » ، ولا تزر وازرة أخرى . ونحن لن نعترف بالعدوان والارهاب والتسلط والاحتلال والتوسع ابدا .. ومهما يكن الثمن . وعلى الباغى تدور الدوائر .. وعليه أن يتحمل دون ان نسلم به وببغيه) .

اذن فكما تقول ورقة أكتوبر « ان معركة البناء لا تقل مشقة وتعقيدا عن معركة العبــور ، وهى مثلهــا تحتاج الى التخطيط الدقيق والعمل الشاق وروح التضحية والعطاء » .

(٤) المهمة كما أسلفت آنفا وكما أكدت ورقة أكتوبر شاقة جدا وهامة جدا وهى « لا تقل عن رسم استراتيجية حضارية شاملة لحركة مجتمعنا الى الامام . استراتيجية حضارية شاملة من أجل بناء دولة عصرية ومجتمع حديث تغطى كل مجال فى حياتنا .. مع توفير أساس متين لقوة هذه الدولة سياســيا واقتصــاديا وعسكريا » .

وهذا القول الذى يلح عليه انور السادات فى ورقة اكتوبر ليس جديدا عليه فهو يشعر به ويؤمن فى اعماقه وعمله . اذكر إنه دار حول هذا المعنى الحيوى فى خريف سنة ١٩٧١ وقال فى خطاب له « ان العصر عصر العمالقة ، وما لم نبلغ حجم العمالقــة وقدرة العمالقة ، فان ركب التقدم سوف يدوس علينا ويمشى فى سبيله لا يلتفت الينا ولا يستمع الى توسلاتنا . نحن فى عــالم لا مجال فيه لغير الأقوياء ، وليست القوة توسلا أو استجداء ،

وبالنسبة لامتنا فان قوتهـا كانت وسـوف تظل فى وحـدتنا ونضالنا » .

ولقد توحدنا وناضلنا « وانفتح » لنا طريق النصر ومشينا فيه خطوات دائبة واثقة حميدة منذ ٦ أكتوبر ليتوافر لنا الانفتاح العسكرى والسياسى والاقتصادى ولنلحق بركب التقدم فلا يدوس علينا بشرط ان نحافظ على خطواتنا .. وجباهنا عالية ، وبشرط أن ندرك مع الابعاد الجديدة صعوبة المهمة ونواجهها . وكما تقول ورقة أكتوبر « ولقد تبدو مهمة رسم استراتيجية حضارية شاملة ووضعها موضع التنفيذ ، مهمة بالغة التشعب والتعقيد ، ولكنها ليست مهمة مستحيلة اذا وهبنا أنفسنا جميعا لهـا . وذلك أن بلادنا صار لديها رصيد مجيـد من التجربة ، وذخيرة لا تنفد من الخبرات والكفاءات والامكانيات ، ولو استطعنا ان نضع كل من لدينا وما لدينا فى ساحة هذه المهمة ، واتجهنا بها فى الاتجاه الصحيح فاننى واثق من قدرتنا على انجازها » .

(٥) ومن هنا فاننى اعتقد انالاستفتاء علىورقة اكتوبر لا يعنى الموافقة عليها ـ فلا شك اننا نوافق جميعا على مآ حوته من مبادىء وتصورات وقيم ـ بقدر ما يفيد اننا نتعهد بالعمل على وضـعها موضـع التنفيـذ .

ان معنى قولنا « نعم » فى استفتاء يوم ١٥ مايو ٧٤ أننا نهب بكل طاقاتنا للترجمة العملية لورقة اكتوبر بكل المثابرة والحرص على حياتنا ومستقبلنا وتنميتها سواء فى مجال التحرير (فالمعركة لم تنته بعد) أو فى مجال التعمير والحضارة وبناء الدولة العصرية « فان الرد على صعوبة المهمة هو ان نعمل جميعا . وان نعمل فى اتساق .. اتساق يخلقه اتفاقنا على الاهداف العليا وتمسـكنا بالمؤسسات التى أقمناها وحـوارنا الديمقراطى المسـئول حول استخلاص امثل السبل واسرعها » . « وان التنظيم السـياسى

يجب ان يكون بؤرة للحوار تنصهر فيه الافكار المتعارضة وتتبلور الاتجاهات التى تعبر بحق عما تريده القاعدة الشعبية العريضة ».

اننا نستفتي ونقول نعم على « أن نثبت جميعا فى معركة التقدم والبناء تلك البطولة الأخرى : بطولة العمل اليومى الشاق والمثابرة الدؤوب من أجل تحقيق مجتمع الكفاية والعدل » .

أنها ليست مجرد نظرية نعتنقها بل هى — فى المقام الاول — مواجهة عملية نمضى بها « فالسبيل الاساسى لمواجهة هذا كله هو الارتفاع السريع بمعدلات التنمية .. ونحن من أجل تحقيق هذا الهدف محتاجون أن ندفع بالعمل وبأقصى طاقةكل ما يتوافر لدينا من محركات الانتاج وعناصره فى شتى المجالات » .

ولقد يبقى — عادة — السؤال الخالد : كيف .. كيف .. كيف ؟ ولكن يبقى دائما الجواب الأكثر خلودا وتجربة موحية مثمرة وصحيحة غير حالمة وهو : أن عبقرية الشعوب — وأقول .. مصر على وجه التخصيص بالمبالاة وبغير مباهاة — قادرة على مواجهة التحدى بتحد أكثر حسما وجسارة وتضحيات وذكاء فطريا متطورا يتفتق عنه ذهن هذا الشعب العظيم وضميره . ولسنا أقل من غيرنا من الشعوب التى جاوزت المحن والتخلف الى فجر النصر والتقدم والرخاء ، ولكم سبق لى أن تناولتها بالايضاحات وضرب الامثلة . ولن نعبأ ببعض قصار النظر — ولا أقول .. المغرضين — الذين يتهمون هذه الامثلة .. فاننا من مصر وسنظل لمصر وحدها .. فلتكن تجربتنا التى تذوب حبا وولاء لمصر العريقة المؤمنة مع الاسترشاد بتجارب الآخرين دون التقيد الا بما يصلح لنا ..

(٦) من أبلغ واصدق ما جاء فى ورقة اكتوبر بشأن تحديد موقفنا من صورة العلاقات الدولية الجديدة هو قول السادات

الذى هو قولنا ورأينا جميعا مع نضوج التجارب « وليكن واضحا تماما أن اكبر خطر يدهم دولة فى مثل هذه الظروف هو الدخول فى مناطق النفوذ . وبالعكس فان دولة مثل مصر بوسعها اليوم أن تمد خطوط التعاون الدولى فى اتجاهات متعددة وان تستفيد من كل الفرص التى يتيحها الوضع العالمى الجديد مدركين ان قوتنا الذاتية وروابطنا العربية وعلاقاتنا الأفريقية وانتماءنا لحركة عدم الانحياز اسلحة أساسية فى أيدينا لنرعى مصالحنا وندافع عن حقوقنا ونحول دون ان يتم أى اتفاق على حسابنا . القضية اذن هى تطوير العمل الوطنى ليتخلص من السلبيات وليستفيد من المتغيرات » .

(٧) ولكم تنبهت ورقة اكتوبر للسلبيات من واقع التجربة .. وهى تصل الى الذروة فى قولها ــ ومن قبل فى التنفيذ العملى والتصحيح ــ : « اذا كانت الثورة قد أنجزت الكثير فى مجال الحرية الاجتماعيــة فاننــا بكل امانة لا بد ان نسلم ان جــانب الحرية السياسية لم يتحقق على الوجه الذى يريده الشعب . بل لقد فرضت الاجهزة ومراكز القوى وصايتها على الجماهير وتعددت القيود والاجراءات بل وصل الأمر الى حد صرف اجراءات التحول الاجتماعى عن هدفها الانسانى الاصيل » .

ولسوف يذكر التاريخ للسادات الكثير من الانجازات ، ولكنى اشــهد أن ايمانه العملى ــ الــذى لم يتزعزع ــ بمعنى وضرورة الحرية السياسية وسيادة القانون يأتى فى طليعة هذه المنجزات . ولا تسألوا فقط هؤلاء الذين صرف عنهم سوء المعتقلات وفتحت لهم أبوابها يخرجون منها مع تصفيتها نهائيا ، وانما أسألوا أيضا هؤلاء الذين رئى انهم خرجوا عن جادة الصواب والقانون خــلال السنوات الثلاث الماضية وكيف عوملوا انسانيا وبالقانون لا بالعسف والتسلط ، وكيف عفى عنهم أو حوكموا بالاصول وبالعدل . ومثل

هذا الجو الصحى العادل الشرعى ينبغى الحفاظ عليه لتتأكد دعائمه فهى من أهم مقومات الحضارة .»

(٨) ولسنا نحتاج الى دلائل كثيرة واستشهادات للتأكيد على ان ورقة أكتوبر هى « وثيقة أشتراكية » مائة فى المائة ، فصفحاتها وسطورها حافلة بهذا المفهوم وهـذا الاتجاه . والعمليـة ليست « تحجرا » أو « تقيـدا » بنظرية او بأخـرى أو حتى رضـاء « بمسلمات » . نحن لا نختار الاشتراكية حبـا فى الاشـتراكية لذاتها ، ولكن نسعى لان نسلكها بوصفها ضرورة تقتضيها ظروف شعبنا ، ولا يهمنا بعد ذلك ان تسمى اشتراكية أو اى اسم من المسميات ما دامت هى النظام الوطنى التقدمى الذى « رسخت قدماه واستقر فى وجدان الشعب بحيث لا يمكن ان ينـال من أسسه النقد النزيه » « اننا نبنى ولا نهدم . نصحح ولا نحطم . نطور وندعم كل ما هو ايجابى بقدر ما نصـفى ما هو سـلبى .. ونرفض كل محاولة لتركيز الاضواء كلها على الجـوانب السلبية حتى تختفى من الصورة كل الجوانب المشرقة » . « لقد أرجف الذين زعموا اننا نريد أن نلغى الميثاق أو ان نعدل عن اشتراكيتنا » « ودور القطاع العام فى المرحلة المقبلة بالغ الاهمية .. كما أن القطاع العام يظل الاداة الاساسية للتعبير عن الارادة الوطنية فى تشكيل اقتصادنا القومى » « ويجب ان تولى الدولة عنايتها الاولى للاسـكان الشعبى فى الحضر والريف » « وان حاجتنا سـوف تكون أشد الى الالتزام بمبدأ التخطيط » « اننا نرفض أن يكون التقدم لصالح قلة تنعزل عن الجماهير وترتبط بأساليب حيـاة غريبة عنها » « اننا يجب ان نفهم الاشتراكية بالعقل وبالقلب معا . ولذلك يجب الا ننقطـع عن التفكير فى جماهيرنا الأكثر حـرمانا وفى وسائل توفير اكرم سبل العيش والامان والتقدم لها » .

« ان الاشتراكية هي الحل الوحيد لمشكلة التقدم » « وبعد .. فان الحقد لا يبنى شيئا ولا يجد مكانا فى صفوف شعبنا الطيب » .

فعلى الحاقدين « المشككين » ان يتواروا أو يتوبوا ويمشوا فى الصف . وعلى الحاقدين الذين ما زالوا يتجرعون سمومهم ان يكفوا عن « الحركات الدنيئة » ومحاولة التحريض غير المجدى باختلاق تقسيمات وهمية .. وربما بقصد طلب « الاطاحة » « بعدد معين » يتهمونه بكذا وكيت .. بينما المعيار هو الاخلاص لمصر ذات التراث التاريخى والدينى المؤمن ، وذات الحاجة للتقدم الحضارى والعدالة الاجتماعية ، وليعدلوا عن رفع اتهامات « الماركسية » فى مواجهة كل من خالفهم الرأى أو لم يكن على هواهم .. فنحن لا يهمنا « ماركس » أو غير ماركس .. بل مصر والعروبة أولا وأخيرا .. فليصمتوا أو يعدلوا أو يتوبوا ، فان أحدا لن « يطيح » فى أحد .. وان الشعب هو الذى يحكم وهو مطمئن ان على رأسه يقوده ويؤمنه أنور السادات . ولقد قلنا ولن نبرح نقول ان من كاد لاحد .. فالله أكبر ..

(٩) يمكن أن تكتب صفحات وصفحات حول فقرة من أهم فقرات ورقة اكتوبر ان لم تكن أهمها على الاطلاق لأنها نقطة الانطلاق وهى قول الرئيس السادات « ويهمنى هنا فى الدرجة الأولى ان أؤكد انه قد آن الأوان للبدء جديا فى تلك المهمة الصعبة التى تأخرنا فيها كثيرا وهى القيام بثورة شاملة فى نظم التعليم والتثقيف العام بكل أنواعه ومستوياته ومفاهيمه . ابتداء من محو الامية الى التعليم العام والفنى والجامعى الى البحث العلمى والتكنولوجى » .

فهل نحن فاعلون .. ؟ هذا هو الامتحان الحقيقى ولننجح فيه مرة — على صعابه وتحدياته وتجاربه الفاشلة الماضية — لننجح الى الابد ..

الاحصاءات السكانية كاشفة دائما وشفافة وذات دلالة ونتائج . وفى الاحصاء السكانى الأخير لجمهورية مصر العربية اسفرت البيانات عن « ظاهرة » ربما كنا نتوقع صورة قريبة منها ، وان كنا ـ فى الحق ـ لم نتصورها بمثل ذلك الحجم الكثيف .. ولا اقول الرهيب ! والحديث هو عن « النسبة والتناسب » بين التعداد الكلى ، وليس عن مجموع السكان المتزايد الذى لا نتردد فى وصفه ـ باشفاق متزايد ـ بأنه انفجار رهيب ! ان ما أعنيه هو نسبة الشباب ـ ذكورا وأناثا ـ بين عدد سكان مصر ، فقد بلغت ما يجاوز الخمسين فى المائة !

فليس غريبا اذن ان يكون « مركز » دائرة الاهتمامات فى « وثيقة اكتوبر » ـ وفى تنفيذها بالطبع ـ هو المستقبل .. ومصر سنة ٢٠٠٠ .. ومواجهة تحديات القرن الـ ٢١ ..

وليس غريبا — ومصر العظيمة هى الباقية المتجددة الخالدة ، التى يحمل ابناؤها ، جيلا بعد جيل ، الامانة والرسالة — ان تعنى « الدولة » بالشباب .. وتفكر فيهم وبهم ..

ولربما كان هذا التقديم الواسع المعانى والشمول « كبيرا » على « خاطرة » أو « ملاحظة » لعلها تبدو « جزئية » فى الحديث عن دور الشباب وأهميتهم ، والذى قد يملأ مجلدات ، وفى العمل من أجل الشباب وأعدادهم والاستفادة منهم وتحقيق أمانيهم ، والذى قد يحتاج الى عمل دائب ٤٨ ساعة فى اليوم الواحد .. أو بعبارة أخرى يقتضى جهدا مضاعفا على الأقل !

غاية الأمر اننى ربما أكون قد تعودت « قياس الرأى العام » — بالدرجة الأولى — فى كل صغيرة وكبيرة من خلال الشباب .. وهو قطاع عريض يمثل فى ذاته بلورة حية ونابضة لتحالف قوى الشعب العامل . ولست أزعم قدرة خاصة ولا حتى أمكانية بالغة التواضع لهذا « القياس » مستندا الى أسس علمية لا أملك شيئا منهـا ، وانما هو احسـاس كاتب مشتغل بالمسـائل العـامة « مستنبط » من لقاءات محدودة فى نطاقه ، ولعل « أصح » و « آخر » قياس علمى حاسم وقاطع هو نتيجة الاستفتاء على وثيقة اكتوبر ، فبين الـ ٨ ملايين الذين قالوا : نعم لها وأهلا بها وعملا ، ملايين وملايين من الشباب هم مصر اليوم والغد وامل اليوم والغـد ..

غير انى « هنا » أتناول وثيقة أخرى تالية لوثيقة أكتوبر وأن كانت تستهديها وتترجم عنها ، وكان صاحبها هو نفسه صاحب وثيقة اكتوبر ..

فلقد لمست — بامكاناتى التى أقدر عليها وباحسـاساتى التى استشفها ممن القاهم من الشباب فى دائرة عملى — ان توجيهات الرئيس السادات باجتماع مجلس الوزراء يوم ١٩ مايو ٧٤ ، والتى

خدد فيها معالم المرحلة الجديدة ، قد احتفى بها الشباب ـ على الأخص ـ احتفاء ملحوظا ..

وهذه ظاهرة صحية بالفعل ، كما انها ـ كالاحصاءات السكانية .. مثلما قدمت ـ كاشفة وذات دلالة ونتائج ، وتعنى وعيا عميقا ، وتبشر بخير كثير ..

وان نخص الشباب بالذكر لا يعنى انه يفرض علينا رأيه ـ فللنضوج وللتجربة اعتبارهما ـ ولكن لعله يفرض علينا التأمل فيه واحترامه ، كما يقتضى تشجيعه ومحاسبته أيضا !

ولكنى آثرت قبل أن اعرض ـ بالنظرة وبما يشبه التحليل ـ للمعالم الرئيسية فى توجيهات الرئيس التى جاءت فى الصميم ، والتى اخالها موجهة لا الى مجلس الوزراء فحسب .. بل الى جماهير الشعب كله ـ آثرت أن « استدفىء » بحرارة الشباب وردود فعله التى لمستها .. وخاصة انهم هم بالذات الـ ٢٢ سنة من ثورة ٢٣ يوليو . بعضهم ولد معها .. وبعضهم كان طفلا صغيرا أو ناشئا مع قيامها .. وآخرون ولدوا بعدها وفى كنفها .

واعترف انه قد يكون فيما أتناوله هنا « تكرار » لما سبق أن خطر لى فى موضوعين عن «قراءة فى ورقة اكتوبر» ثم «معانى خطاب حصيف شجاع » ـ وهو خطاب السادات فى عيد العمال ـ ولكنه أشبه بتأكيد لرؤية واحدة من زوايا مختلفة !

اولا ـ الجانب السياسى

صيغة « تحالف قوى الشعب العاملة » بعماله وفلاحيه ومثقفيه وجنوده ورأسماليته الوطنية ، هى صيغة ملزمة مستفتى فيها مجمع عليها . ولقد تبدو « مريحة » اذا كان القصد هو البحث عن شعار نركن اليه .. والسلام ! ولكن ليس هذا هو القصد ؛ ولا القضية قضية شعارات .. بل عمل سياسى حقيقى . ومن

هنا تظهر الحاجة للكد معها وأعمالها وبث الحيوية فيها . ولقد تكون « جربت نظريا » ، ولكن امام مواجهة النفس بشجاعة لا بد أن نسلم بأنها لم توضع موضع التنفيذ الوافى المتمرس « عمليا » ، ذلك التنفيذ الذى يعرف طريقه فلا يضل فى صراعات عنيفة ضارة وغير مأمونة ــ فالتحالف بديل الصراع ــ كما انه ــ أى التنفيذ العملى ــ ينبغى ان يمضى فى طريقه بلا خوف ولا جمود ، فتختلف وجهات النظر بالضرورة من أجل وحدة الرأى الديمقراطى آخر الأمر ، وانما ــ على حد تعبير السادات ــ « معنى هذا انه ليس لقوة من قوى التحالف الخمس ان تفرض رأيها منفردة على بقية قوى التحالف ، حتى يسير العمل فى انسجام وتوافق . وانما سبيلنا هو الحوار والمناقشة وتبادل الرأى داخل أطار التحالف » .

ولقد مرت بنا فترات كان ما لدينا من قوى سياسة أشبه « بالمؤسسات الشبحية » ــ مثلما وصفها بعض المخلصين المتأملين ــ أى أنها موجودة وغير موجودة !

فكيف توجد فى فاعلية خصيبة امينة شجاعة حكيمة ؟ كيف تصبح .. فى كلمة مقتضبة : مصرية عربية متحركة تقدمية ؟! هذا هو امتحان المرحلة القادمة . وهو امتحان عسير وميسور معا ، لعل مواهبنا ومصريتنا وعروبتنا « تتألق » فيه وتنجح مع التحديات ، وليس نموذج « ٦ أكتوبر » ببعيد عنا فى دقته وانضباطه وتضحياته ووحدته الوطنية ونجاحه ..

ويكمل ابعاد هذا الجانب السياسى عمق آخر تميز به « مناخ » قيادة السادات ، لأنه يصدر عن ايمان راسخ بالحريات . ذلك هو ما وجه به الرئيس مجلس الوزراء وبالتالى الشعب كله فى قوله « الالتزام بسيادة القانون ودولة المؤسسات التى من خلالها يمارس الشعب دوره ، ويكون آمنا على يومه وغده ، ويعرف ابعاد حقوقه وواجباته فى وطنه .. والالتزام بالدستور ، فلقد وضعنا دستورا دائما قنن كثيرا من مبادىء المجتمع .. »

ثانيا ـ الجانب الاجتماعي

وهو شديد الالتصاق بالجانب السياسي ، فالحرية السياسية تفقد مضمونها الحقيقي اذا اهملت الحرية الاجتماعية ، كما ان الحرية الاجتماعية ، تزهق روحها وقيمها اذا داست الحرية السياسية وامتهنتها . ولقد أفاضت « وثيقة اكتوبر » فى تأمل هاتين الحريتين بالذات فى المراحل الماضية ، وانتهت ـ فى رؤية جسورة حميدة ـ الى انه باسم الحرية الاجتماعية ـ والاشتراكية التى يجب ألا يفترى عليها او أن يساء استغلالها ـ ضيعت حريات سياسية مطلوبة لاثراء الحرية الاجتماعية ذاتها ». وهذا الافتراء والاستغلال وعدم الموازنة..ليس مناسبا ولا لائقا ولا جائزا.ولم يعد ثمة داع لأن تغلب حرية المجتمع على حساب حرية الفرد ، كما لا يمكن أن تهدر حرية المجتمع لحساب تطلعات الأفراد ».

ومن « التجربة والخطأ » ـ وربما كان « لا مفر » فى المراحل الأولى من التجربة والخطأ - نضجت المسائل ووضحت « واصبحت مبادىء الثورة فى ضمير الناس » كما قال السادات فى توجيهاته .

واذا كان القطاع العام والقرارات الاشتراكية معه قد شهدت مع بدء رفع الرقابة عن الصحف فى أوائل فبراير سنة ١٩٧٤ بداية محاولات تهجم ـ كالذخيرة الفاسدة .. مرتدة ـ فان القطاع العام قد انتصر له باسم الشعب ـ ولا اقول دافع عنه ـ قائد مسيرة الثورة أروع انتصار وأصدقه وأبلغه..فى تصريحاته وفى خطبه وفى وثيقة اكتوبر .. ذلك أنه حق لا شك فيه وواجب ـ على ما شابه من بعض السلبيات ـ فضلا عن انه هو الذى انتصر لنا . وفى توجيهاته يمضى السادات قائلا : « وقد صدرت فى ١٩٦١ القرارات الاشتراكية بقصد اعادة صياغة هيكل المجتمع المصرى ، لأنه كان لا يزال مختلا . حقيقة كانت قد حدثت بعض

التجاوزات فى التطبيق ، وليست ذلك غريبا ، لأن كل تحول فى هذا الشأن لا يمكن أن يخلو من هـذا التجاوز .. ولكن عائد الجهد الاقتصادى المخطط بدأ يعود علينا بعد هزيمة ١٩٦٧ وكان الأساس لصمودنا بعد النكسة ، وجاءت حصيلة هـذا الصمود أساسا من القطاع العام الذى بذلنا فيه كل ما نستطيع » ..

ثالثا ـ الجانب الادارى

تتحدث وثيقة أكتوبر عن « الثورة الادارية » وتفيض . وبعد الاستفتاء قال ٩٩ر٩٥ فى المائة من الجماهير : نريد هـذه الثورة الادارية بعد أن حلمنا بها ووعدنا .. ولسوف نعمل لها ونشارك !

والمقصود بالطبع هو التيسير على الشعب ومصالحه بمعنى أن تصبح « المصالح الحكومية » مصالح للشعب !

وهنا لا يكتفى السادات بالكلمات بل يضع فى توجيهاته للوزارة مايشبه الجـدول الزمنى والتنظيمى فيقول : « انه فى اطار الثورة الادارية .. على كل الوزارات ان تزيل المعوقات من طريق الجماهير ، وأن تتم الترتيبات التى تكفل ذلك قبل ٢٣ يوليو المقبل » . وقد كلف الرئيس الوزراء أن يقـدم كل منهم لمجلس الشعب مع بدء الدورة البرلمانية فى اكتوبر ١٩٧٤ الصيغة الكاملة الجديدة لتنظيم وزارته وأسلوب عملها وسياستها ، على أن يتضمن ذلك تصنيفا جديدا كاملا ومبسطا مع ما يحتاج اليه ذلك من تشريعات . ومثل هـذه الثورة فى مجال التعليم أيضا .. ولها أولوية ..

رابعا ـ الجانب الاقتصادى

وفى الحق انها كلها جوانب متكاملة ..

على انه فى المجال المباشر للاقتصاد يقول السادات ـ بحق ، ويغنى قوله عن الشرح والتعليق ـ : « ما من دولة تستطيع أن

تعيش وحدها ، وأن ينطلق اقتصادها بمعزل عن العالم وحدها ..
ونحن الآن ننطلق لبدء مهمتنا الكبرى فى البناء ، ونحتاج الى التعاون مع الأخوة العرب ، ومع الغرب والشرق على السواء .. ويتمكن الاقتصاد المصرى والعربى من النمو والتقدم وعلينا أن ننطلق فى طريق الانفتاح والتعاون الاقتصادى بغير عقد ولا حساسيات ، فنحن نعرف ما نعمل ، وهدفنا بناء اقتصاد قوى وتحقيق رخاء الانسان المصرى والعربى » ..

ويصل الرئيس السادات الى ذروة « الواقعية والمثالية والمسئولية » معا فى الشرط الوحيد الذى يضعه لهذا الانفتاح الاقتصادى الوطنى ، وذلك فى قوله « وانما عندى لذلك كله شرط واحد ـ أن كل قرش نأخذه لا بد أن نستخرج منه قرشين ، بمعنى أن علينا ان ننتج أكثر مما نستهلك . واذا اقتضى الأمر أحيانا ان نربط الحزام قليلا فان شعبنا قادر على ذلك ما دمنا نواجهه بالحقيقة وبالصراحة ، وما دام شعبنا يرى بشائر المستقبل أفضل » ..

خامسا ـ الجانب الأخلاقى أو السلوكى

وعندى أنه من أكثر الجوانب أهمية ، ولولا خشية الله ـ بل بسبب خشية الله ـ لوضعت هذا الجانب فى المحل الأول من الأهمية .
وأسلم أنه جانب بالغ الصعوبة والتعقيد .. فمن يحكم على من ؟!
ولكنى أعتقد أننا بغير اعماله واحكامه يوشك أن يتلف كل شىء ويدمر .

مثلا ، الحقد مدمر . والكراهية مهلكة . والتعصب عمى بصيرة واتلاف لكل شىء ..

ويقول الرئيس فى توجيهاته « اننا كما صفينا الاجراءات الاستثنائية ، فان علينا أن نصفى كل آثار الحقد والكراهية

والتعصب .. ان الوحدة الوطنية التي تنبذ التعصب والحقد هي الاصل في شعبنا ، وهي أساس الحياة على هذه الأرض الطيبة » .

ويجيء الحقد والكراهية والتعصب ـ بين ما يجيء ـ من التطلعات المريضة ومن حب التسلط وضعف وازع الضمير والدين والخلق ، ولست ازعم أن هذه الأمراض منتشرة ـ لا قدر الله ـ ولكنى أزعم أنها قد تؤثر ، وقد تيئس .. لولا ثقة في وجه الله عز وجل وانه « لا يصح الا الصحيح » آخر الأمر مهما تدلهم المحن أو تطل أو تتجدد . كما أن الحقد والتعصب والكراهية « تفرخ » أمراضا اجتماعية خطيرة منها النفاق والكذب والدس الوضيع الرخيص والتهالك الخسيس والارتشاء .. الى آخر قائمة طويلة مفجعة قاتمة ! ولا يعيب أحدا أن يكون ـ مثلا ـ ساقط شهادة أو غير مؤهل ، ولكن يعيبه حقا ان يكون ساقط الأخلاق مهما ادعى أنه « عبقرى صنعته » ! وبين « أولاد البلد » الذين نالوا قسطا ضئيلا من التعليم ، بل ربما كانوا أميين ، من هم نماذج مضيئة للرجولة والشهامة والطيبة وحسن الخلق .. بل ان هذه هي بالفعل قاعدتهم العريضة الأصيلة ، وهي أساس الحياة على هذه الأرض الطيبة ..

ولكم كتبت كثيرا في هذه الجوانب ، ليس لكوني ـ والعصمة لله سبحانه ـ « ابن بجدتها » ، ولكن لايماني ـ وارجو الا يكون ايماني هذا قائما على غير سند ـ ولايمان الجموع بأن الأخلاق والانضباط والسلوك الحسن والنقاء والأنفس الصافية هي ـ كما قال الرئيس بحق ـ « أساس الحياة على هذه الأرض الطيبة » ..

وعلى سبيل المثال ، فانني لا أذكر أن « عبارة واحدة » في كل ما كتبت لقيت استجابة ترحيب وتمنيات كقولي في مقال سابق : « لقد جاء زمان على الصحافة في مصر كان الضمان أن يكون هذا الصحفي أو ذاك « بتاع » فلان وكان آخرون يتمنعون أن يكونوا « بتوع » احد أو « شلته » ، حتى لو شردوا أو لقوا

مصرعهم ، فالأرزاق على الله .. والموت نهـاية كل حى . أما الآن فكلنا لمصر والعروبة .. وذلك خير ضمان » ..

وقد آن أن نثوب ونعتبر ونراجع أنفسنا . وآن أن نتمسك بالمثل العليا ــ الحقيقية العلمية لا الانشائية ــ وان نصفى ونكشف كل آثار الحقد والكراهية والتعصب بأسبابها ونتائجها ، لتصح الحياة على هذه الأرض الطيبة ..

سادسا ــ جانب العلاقات الدولية

نحن ننتهج سياسة الوفاق والتضامن والصداقة مع الجميع لخير المجتمع الدولى .. وبالأخص التضامن مع دول العالم الثالث لتصفية كل أثر للاستعمار والعنصرية وقهر الدول الفنيـة للدول النامية . ونحن نطبق ــ للعدل والحرية والسلام ــ مبـدأ أصيلا متجددا من مبادىء ثورتنا وهو : نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا . لا نبدأ احدا بالعداء لأننا شعب بطبيعته وحضارته العريقة مفتوح القلب متفتح العينين مضياف ومحب للسلام ، ولكنه حريص على كرامته وحرية ارادته وأراضيه ..

والعلاقة بالقوتين الكبريين تأخذ الآن موضعها الصحيح والصحى بلا حساسية ..

ويؤكد الرئيس السادات فى اجتماع ١٩ مايو ٧٤ هذه المعانى والمبادىء فيقول :

« ان علاقاتنا بالدولتين العظميين يحكمها مبـدآن . اولهما : حرصنا على التعاون الكامل مع الدولتين فى توازن يمليه التزامنـا بمبدأ عدم الانحياز . والثانى أن ارادتنا الوطنية قد تحررت بالكامل من يوم ٢٣ يوليو ٥٢ ، واننا نتخذ كل قراراتنا من وحى مصلحتنا

وان الالتزام بهذين المبدأين قد آتى ثماره .. فعلاقاتنا بالولايات المتحدة تتحسن يوما بعد يوم .. ومن ناحية اخرى فقد تلقيت رسالة ودية من الزعيم السوفييتي بريجنيف تعتبر بداية أكثر ايجابية فى العلاقات المصرية السوفييتية » ..

وهكذا يكون التعاون مع الجميع .. لخيرنا ولخير الجميع ..

سابعا ـ جانب البناء العسكرى

لو تركت لقلمى العنان فى تناول هذا الجانب بتأكيد حيويته لنا ، فلعلى أن أكتب أضعاف ما كتبت فيما تقدم وفيما أكتب ؛ ويكفى أن القضية المصرية العربية الفلسطينية كانت شغلنا الشاغل طيلة الـ ٢٦ سنة الماضية : معاناة ومشاعر ونضالا وعملا وفكرا وكتابة ! ولقد قدمت مصر ـ بحق .. وبغير من ، كما قال أحد قادة المقاومة الفلسطينية ـ أكبر التضحيات على الصعيدين البشرى والمادى من أجل القضية الفلسطينية والقضية العربية . وكانت مصر بالدرجة الأولى ـ ومع شقيقتها الحبيبة سوريا ـ هى التى استطاعت لأول مرة فى حرب أكتوبر المجيدة تحطيم اسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى ، فردت للعرب كرامتهم ورفعت هاماتهم ومعنوياتهم وثقتهم فى النصر النهائى . قد يكون « الصلف الاسرائيلى » ما زال ماثلا ، ولكنه هذه المرة « مجرد قناع » يخفى امتقاع الوجه ويطوى « رجفة » المصير المحتوم .. ولو بعد أجيال ، لأنه ـ كما يقول السادات دائما ـ صراع أجيال .. واذا كان الزمن ـ فيما نستلهم ـ يدور لمصلحتنا ، فاننا لا نجلس لمشاهدة دورانه بل ندفع عجلاته دفعا .

ومن هنا كان التوجيه الاستراتيجى العملى والكبير الذى رآه الرئيس السادات فى اجتماع مجلس الوزراء بعد أن قال « ونحن نعمل للسلام والبناء لن يفوتنا أن نستفيد من دروس الحرب وأن

نبنى قوتنا الذاتية » فطلب أن يبدأ مع العام الدراسى ٧٥/٧٤ تدريب جميع التلاميذ ابتداء من المرحلة الابتدائية تدريبا عسكريا ونظاميا ورياضيا « ذلك أننا نواجه حقيقة لا مهرب منها ، وهى أن على حدودنا اسرائيل ، وأن اقرار السلام والحرص عليه لا يجوز ان ينال من أستعدادنا على حماية شعبنا وأرضنا » .

توجيهات تهز وجدان الشباب والشعب كله ، وباستجابة الوجدان يستجيب العمل ويشرق الغد مصريا عربيا كريما عزيزا بمشيئة الله .

ليس ادل على الايمان المتأصل بالوحدة فى اعماق هذا الشعب المصرى العربى من أن فى تاريخه الحديث وحدة تحققت وفشلت ، واخرى فشلت قبل أن تتحقق ، ومع ذلك لم يفقد ايمانه بمستقبل الوحدة العربية وحتميتها !

ولقد تجلس الى هذا او ذاك من أبنـاء الشعب فيخيل اليك بادىء الأمر أنه ثائرعلى الوحدة ضائق بها ذرعا أو « مكوى بنارها » ثم لا تلبث أن تكتشف أنه عاشق متيم بهـا ! ويخطىء من يظن ن هذه المحبة « المكنونة » هى نتـاج « أطماع » مصرية ، وانما هى « تعبد » حقيقى مقدس فى محراب العروبة ! وببسـاطة ـ وبغير مباهاة أو نزعة اقليمية . فالتاريخ شاهد ـ فان مصر قد تعودت ان تعطى الكثير الكثير ، واذا أخذت .. فليكن القليل القليل !

والغريب ، بل لعله المنطقى ، أن ما كان السبب فى عناء العرب وفرقتهم ـ وهو تحالف الاستعمار والصهيونية واسرائيل ـ هو

نفسه الهاتف والدافع الى هذا التجمع الوحدوى برغم المعوقات والصعاب ، فضلا عن أن الاتجاه العالمى « والحضارى » المعاصر هو الأخذ أو الاقتراب من صورة الوحدة ، مهما ترتفع الحواجز وتختلف اللغات ، ما دامت « المصالح » المشتركة متكاملة « و « المخاطر » الواحدة داهمة ، ويمكن دفعها بالتجمع . فكيف واسباب الوحدة تكاد تكون « مفصلة » و « موصوفة » للعرب ٢٤ قيراطا ، مع التسليم بصعاب نظرية وعملية يستطيع الزمن ـ والجهد المخلص ـ أن يذيبها ؟

على أن الوحدة الأولى بين مصر وسوريا ـ على جلالها ـ كانت فيها كل معانى « التجربة والخطأ » . ومن هنا جاء « الحذر » والمراجعة والتريث والدراسة وتوفير النضوج ، بحيث أنه عندما تقوم وحدة اندماجية أخرى تأتى « على أسس أكثر صلابة » ـ باقتناع كامل ـ لا بمبدئها .. فالمبدأ لا شك فيه ، بل بتوفير أسبابها . وبضمان سلامتها واستمرارها وفاعليتها ـ ينبعث من الضمائر وطمأنينة الاستعداد والاعداد والنجاح ، حتى ليصبح « الاستفتاء » فى خاتمة المطاف بغير موجب أو لمجرد « التكريس الشكلى والقانونى » !

ومن حسن الحظ والتكامل الاستراتيجى ـ كمرحلة أولى ـ ان تقاربت مصر وليبيا على صعيد واحد ، ثم ظللتهما مع ثورة ٢٣ يوليو ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، فبدت « نواة الوحدة » مهيأة النمو بل مفترضة التوفيق . ولكن من سوء الحظ اننا نحن الذين لا « نطمع » فى أحد .. كان « مطموعا » فينا ، ونحن الذين لا « نستهين » بأحد .. كان « مستهانا » بنا !

كانت سماء مصر الثورة تنزل مطرا طهورا طيبا ، وربما كانت سماء ليبيا الثورة ترعد وتبرق . واذا كانت أرض ليبيا الثورة تفيض بالذهب الأسود الذى نسعد به حبا فى الشعب الليبى وفى

خير العرب ، فان أرض مصر الثورة كانت تفيض بدم الشهداء والتضحيات درعا و « فرض كفاية » عن ليبيا وعن العروبة . واذا كنا قد شكرنا « الدعم » ونشكره ولا نجحده أبدا ، فاننا لا نرتاح لأن يمن علينا بفتات هذا الذهب الأسود ! واذا كنا بدافع الواجب والوطنية والقومية العربية قد تحملنا الكثير وخضنا المعارك صابرين صامدين فاننا ــ برغم كل شيء ــ قد يؤذى مشاعرنا أن تشوه تضحياتنا أو يشكك فيها حتى من أقرب الأقربين . قد نغفر ، ولكنا لا « نستغفل » لأنها ليست قضيتنا وحدنا ، بل قضية الشعب العربى كله بما فى ذلك الشعب الليبى . قد نعمل « اذنا من طين واذنا من عجين » لا عجز لسان أو قلة حيلة ، بل اعراضا عن كلام غير مناسب واهتماما بما هو أجدى وأخطر وأبقى . ولكنا فى مرحلة من المراحل قد تمتد أيدينا لتشد ــ فى رفق ــ اذن الشاتمين الهاترين المشككين ، ونقول كلمة واحدة ذات دلالة هى : « عيب » . لعل وعسى ..!!

والحق أن أحدا ــ حتى من الد أعداء الأمة العربية ــ ما كان ليتصور أن تصل أعاصير الرمال الليبية الى هذا المدى الذى حجب الرؤية الصادقة بل الى توهم الأبيض أسود ، والأسود أبيض ! وان كنت أكاد أقطع بأن « السلطة المزاجية المطلقة المتناقضة المتقلبة الغامضة » قد بلغت مداها .. ولا سبيل أمامها الا الانحسار والابصار !

ولست أكتب ما أكتب لمجرد التعقيب على رسالة الرئيس السادات الموضوعية والمتزنة الى مجلس قيادة الثورة الليبية والتى قالت عنها صحف بيروت الموضوعية المتزنة : انه لو جرى فى الأمة العربية استفتاء حول رسالة السادات هذه ، لما تردد أحد فى تأييدها وتبنى كل ما جاء فيها من حقائق .

غاية الأمر انه ربما آن الوقت ــ ونحن لم نصل الى نقطة اللا عودة ، بل لن نصل اليها أبدا بمشيئة الله ــ أن نبدأ مرحلة

جديدة متجردة ، وانه ـ وقد اخطأ من اخطأ وصبر من صبر ثم انكشف ما انستر ـ قد آن الوقت لنعتدل ، ثم ندعو ابناءنا وأبناءهم ـ وهم واحد ـ ونبتهل ، فنجعل لعنة الله على العدو الواحد المشترك ! ولطالما ترددت الدعوة الخالصة : ايها العرب اتحدوا ، فهذا عدوكم وحده . صفوا خلافاتكم أو أجلوها على الأقل ، والتفتوا الى قضاياكم ـ بل قضيتكم ـ الأساسية .

ومع ايمانى الشديد بالوحدة الشاملة وحتميتها ، فانه من المحتم أيضا أن نقوم بالتربية والاعداد ، وعلى القواعد الشعبية العريضة .. وعلى مراحل .

ولربما كنت أول من كتب فى تجاوز شبه « جرىء » ـ مطالبا بتأجيل الوحدة الاندماجية الفورية بين مصر وليبيا عندما كان « الالحاح » عليها قد بلغ حد « الحصار » ! بل اننى تحفظت تجاهها ـ وصراحة ـ أزاء ما بدأ لى « خلطا » لدى القيادة الليبية . ونقلت الصحف والاذاعات العربية والأجنبية هذا الرأى فى حينه ، بوصفه يمثل « علامة » ذات دلالة ، مع كونه لا يعدو أن يكون وجهة نظر شخصية اجتهادية « على مسئوليتى » !

كتبت فى مقال بعنوان « مصاعب الوحدة » نشرته « الجمهورية » بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٣ :

« اننى بايجاز أقول من موقع الايمان والاعزاز للوحدة العربية المصيرية كقدر يأتى حتما فى مرحلة آتية يتوافر لها النضوج الأكثر والضمان الأوفى ، واقول من موقع التقدير للنقاء البادى لدى الأخ العقيد القذافى ، واقول أيضا من موقع الاحساس والادراك بأن ثمة خلطا كثيرا فى المسائل وفى الفهم وفى وضوح الرؤية وبالأخص منذ فورة الثورة الشعبية واللجان الشعبية التى بدأت فى ليبيا مع ابريل ٧٣ ، وتصاعدها ثم تجسيمها بدرجة ملفتة وضعتها على مستوى الوحدة بل ربما قبل الوحدة وأهم . أقول بعد ذلك ـ حفاظا على الوحدة بل على الأمة العربية نفسها التى

من أجلها ننشد الوحدة ـ انه من الأسلم تأجيل الوحدة الاندماجية الفورية ، وتجنب معارك جانبية ، واتقاء جدل صعب مفتت حولها ، فكل هذا لا موجب له ولعنه لا خير وراءه .. هنا بالذات ولمصلحة القضية العامة والخاصة قد تكون حل الصعاب هو تجنبها ، وليس على طريقة النعام التى تدفن رؤوسها فى الرمال ؛ وانما بالمصارحة والحسم والاخوة وعدم وضع العربة قبل الحصان ! هذا رأيى الشخصى بعد ملاحظة التطورات ورصدها ، وبعد سماع خطاب الرئيس القذافى مساء ٢٣ يوليو ٧٣ . وللمصلحة العليا لقضية التحرير التى أرى لها الاعتبار الأول . ولا خلاف على هذا . الوحدة لا ينبغى أن تتم بضغط من هنا أو هناك ، ولا باشتراطات ولا بفرض اتجاه معين أو فلسفة مستحدثة . وليس هذا هروبا أو نكوصا او ردة . انما هو تنبه وتنبيه .. حذر وتحذير .. قدر وتقدير . ونحن لا يفزعنا ولا نفضنا النقد ؛ فلقد نكون أكثر نقدا لأنفسنا بما ينتقدنا به غيرنا سواء كانوا من الاصدقاء أو غير الأصدقاء . وخطاب السادات فى عيد الثورة ملىء بالنقد الذاتى بل هو محاولة للبحث عن حلول لما نحن فيه . ويعلم الله اننى لا أصدر فيما اراه واكتبه من رأى وملاحظات عن تطورات الموقف الوحدوى بين مصر وليبيا ؛ لا أصدر عن غرض ولا توجيه ولا حتى تعصب مصرى . انما هو يصدر عن ايمان بالوحدة المصيرية الواجب قيامها على دعامات قوية ثابتة غير مهزوزة ، وعن أمل فى نقاء القذافى ، وعن تقدير لما تمثله ثورة الفاتح من سبتمبر من كسب حقيقى للامة العربية ، وبوصفها من روافد الثورة الأم .. ثورة ٢٣ يوليو كما يؤكد قادة ثورة ليبيا ، وعن احساس لا يخفى ـ ولا يخادع ـ بوجود بعض الخلط فى المسائل لدى ليبيا قد تكون المصلحة فى التأنى عليه وترشيده .. فان ثمة أشياء كثرت أم قلت هي غير مفهومة ! » .

ولم تكن « المسيرة الليبية » المشهورة قد بدأت بعد ، وعندما بدأت فى أوائل أغسطس ١٩٧٣ .. بدت المسائل أطوع للفهم . ووضعت النقط على الحروف : لماذا نبتت فجأة « بدعة » اللجان الشعبية الليبية التى « طاحت » نزواتها بكل شىء . والتى لم تكن لها مقدمات بل كان الحديث عن الوحدة الاندماجية « المستقبلة » فى الظاهر سابقا عليها بشهور طويلة .. وكأنما يقال شىء ثم نعمل شىء آخر غريب لاقامة العقبات دونه . ولكن المسيرة الليبية بما أفصحت عنــه من نيــات غير صحية ــ وأقــول : أفصحت .. واقول : غير صحيــة . وهما تعبــيران « متلطفان » ! ــ كانت « الخطيئة الكبرى » الغريبة من جانب القيادة الليبية ــ عفـا الله عنها ــ وكانت « الصدمة الكبرى » لمشاعــرنا وافكارنا .. ولا أزيد ..

ثم جاء ٦ اكتوبر .. وبدأت المعركة . ولقد أسهب السادات فى رسالته ــ بألم بالغ بليغ ــ فى تناول موقف القيادة الليبية الغريب من المعركة ، وعبر بكلماته عن مشاعرنا جميعا وذهــولنا ــ نحن المصريين ونحن العرب ــ من الاستخفاف والتشكيك .

واذكر اننى خلال أيام المعركة التى وجدت بها نفسى كما وجدنا كلنا أنفسنا ، وكان نصيبى أن اقيم فى الجريدة بالليل والنهار ، وعينى على نشرات وكالات الأنباء ، واذنى على محطات الاذاعة ، ويدى على القلم ــ كان اغرب وأوجع ما قــرأت هو تصريح للأخ القذافى الى « أريك رولو » محــرر الموند الفرنسية وافتنا به وكالات الأنباء وقال فيه ما يلى بالحرف الواحد : « اننى لا أوافق على اسلوب الحرب التى شنتها مصر على اسرائيل . وحتى اذا انتصرت مصر فى معركتها على اسرائيل فاننى لا أوافق .. ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون ملهاة !! » .

التضحيات والنصر « ملهاة » ؟ !

ولا اريد أن اطيل فى المرحلة الماضية اكثر من ذلك .. سواء فيما دابت عليه الاذاعة والصحف الليبيـة او فيما « تفنن » به المأجورون فى بعض الصحف العربية وأراقوا من الحبر والحياء للتشويه والتشكيك حتى « يقبضوا » أكثر !

فقط أقول ان رسالة السادات ـ على حرارتها ـ كأنما القت عليهم جميعا « دشا باردا » ـ ولا أقول القمتهم حجرا .. فنحن لا نتعامل بالحجارة ـ وعسى ، بل من المرجح .. بل من المؤكد ، ان يفيق من ينبغى ان يفيق ، ويراجع نفسه ، ولا تأخذه « العزة بالاثم » .. ويثوب ويستعصم « بالنقاء » الذى بدأ به ـ بعد أن ثبت انه لا يصح الا الصحيح..وأن « التائب » لن يعتبر مقهورا ! بل له أجره مرتين .. ـ ويعود بل يشرف الصف العربى .

الأمل قائم ولا يمكن أن يضيع أو نضيعه نحن . لا نخدع انفسنا ، ولا ناخذ المسائل بخفة ، فالتاريخ العربى والعالمى ملىء بسوء الفهم والخلافات ثم التصحيح وصفاء الأنفس . انه مع المكاشفة الموضوعية بمثل هذه الروح الكريمة التى حرص عليها السادات ، يمكن ان تستقيم المسائل وتنقى وتصح بعد ان بلغت ذروتها ، وخاصة « أن كل هذه الامور التفصيلية يمكن على وجه اليقين معالجتها والتغلب عليها .. فاننا فى هذه المرحلة التاريخية نقدم اسمى خدمة للعلاقات المصرية الليبية ولهدف الوحدة لو اننا وضعنا أيدينا على أصول الخلافات بيننا وليس على مظاهرها . ان علاج هذه المظاهر أمر هين جدا اذا توصلنا الى أرضية مشتركة نستطيع أن نتفاهم عليها ، تقوم على أساس من المصارحة الكاملة مع النفس ، والتعامل الموضوعى مع الحقائق » .

واذا كنت أشير الى رسالة السادات التى هزت الوجدان العربى كله .. والوجدان الليبى .. وأعماق القيادة الليبية فيما اتصور وأرجو ، فاننى لا اريد أن أختتم هذا الموضوع « الهادىء

الأمل » قبل أن أضمنه أعز فقرة من فقراتها الصادقة وأكثرها دقة ، وهى قول السادات :

« قد كان الجو السائد فى العالم العربى قبل يوم ٦ أكتوبر هو جو اليأس من جهة ، وجو الحيرة فى محاولة البحث عن أول الطريق من جهة أخرى ، بل كنا لا نسمع من كل من يحدثنا الا التحذير من المغامرة . ونحن اليوم لا نقول اننا حققنا للأمة العربية نصرها الكامل ، ولا نقول اننا نتصرف على أساس أن المعركة قد انتهت ولكن من حقنا أن نقول اننا قد قضينا على جو اليأس الذى كان سائدا من جهة ، واننا بالدم الذى بذلناه قد كسرنا الوهم وبدلنا الموازين وعثرنا على أول الطريق . ولكن بعض الذين كانوا يشفقون من أى معركة ، انقلبوا بين يوم وليلة الى موقف الاستخفاف بتعقيدات الموقف والاستهانة بمعنى القتال والنصر ، وازاء عدو يجد من يزوده ساعة القتال بأحدث الأسلحة حاملا اياها اليه وراء خط القتال مباشرة ، بينما تعرفون أى جهد بذلنا ونبذل لتجميع الأسلحة وغيرها مما يضعنا فى مركز القوة ويضيف الى ما يمكننا أن نحققه . اننا مصممون على الا نفقد عقولنا بسبب ما حققناه رغم اعتزازنا الكبير به .. ونحن مصممون على أن نكون على يقظة تامة لكل متغيرات الظروف الدولية والمحلية ، وعلى الا نترك سلاحا دون أن نستخدمه للاستفادة من ثمار تضحياتنا ولتصعيد الضغط على العدو .. ولكل سلاح عسكرى أو اقتصادى أو سياسى وقته وأسلوب استخدامه » .

كلام واضح مباشر ومخلص ، وعمل أوضح وأخلص ..

كسرنا الوهم وبدلنا الموازين وعثرنا على أول الطريق ..

ولكن المعركة لم تنته بعد . غير أن الجو اختلف وأصبح ملائما لمسيرتنا .

أفلا يكون هذا كله داعيا لأن نردد ونؤكد مرة أخرى قولنا وعملنا : أيها العرب اتحدوا ، فهذا عدوكم وحده .

ولينصرن الله من ينصره .

المعركة لم تنته

بعد العاشر من رمضان

• الفصل بين القوات بداية

اذا كان احد ـ فى المنطقة العربية أو غيرها ولا أظن « آحادهم » كثيرين ـ «يقلل» من اهمية ما تحقق ! فهو واهم .. اذا لم يوصف بأنه « ظالم » !

ففى اليوم الرابع من مارس ١٩٧٤ على وجه التحديد تم التنفيذ الكامل لاتفاق الفصل بين القوات على الجبهة المصرية ، واستعادت قواتنا المسلحة سيطرتها الشاملة على الضفة الشرقية للقناة ـ مع الضفة الغربية طبعا ـ بعد مرحلة عجفاء ، وسنوات ثقال الصبر والاستعداد منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

وهذا الذى تحقق ـ وهو مجرد بداية ـ كان يبدو فى أعين البعض ، بل الأصدقاء منهم ، حتى الخامس من اكتوبر ١٩٧٣ ضربا للرؤوس فى حائط « بارليف » يكسرها ولا ينكسر ، أو بعبارة أخرى .. ضربا من المستحيل !

واذا كان احد ـ من جانب آخر ـ « يبالغ » فى أهمية هذا الذى نحقق او يتصوره نهاية المطاف ، فهو ايضا واهم ، ولا نتردد فى وصفه بأنه ظالم لنفسه !

والتقييم الصحيح لما تم انجازه ـ وهو جليل منذ ٦ اكتوبر وعلى جميع المقاييس ـ ينبغى أن ينصف ويتزن بين « المزايدة » التى هى خبائث التشكيل والاستخفاف ، وبين « المناقصة » التى هى مزالق « التطبيل » والاسترخاء !

لا بد أن توضع المسائل فى اطارها الدقيق بلا زيادة ولا نقصان ، بهذا نكون قد استوعبنا دروس ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ودروس العمر والمستقبل . لنكتسب الثقة ـ وحق ان نكتسبها ـ فلا نفرط فيها أو « ننام » عليها ، بل تمنحنا النور الذى يضىء طريقنا الطويل الاكيد النصر بمشيئة الله ، ما دمنا نرى خطانا فيه ونحسبها دون خوف ولا اندفاع ولا زلل .

لماذا ينبغى الا تقلل من أهمية ما تحقق ؟

سوف أدع الآخرين يتكلمون .. وما أكثر ما تكلموا منذ يوم ٦ أكتوبر ، ولكنى سأكتفى بأحدث ما كتبوه .

مثلا .. يقول « أريك مارسدين » فى « الصنداى تايمز » :

« يتصرف الاسرائيليون تصرف من تعرضوا لهزيمة مدمرة فى حرب ٦ اكتوبر . ويشعر المرء بهذا الاحساس فى الشوارع والمتاجر والمكاتب والمسارح . ومن المستحيل الآن أن تذهب الى حفل فى اسرائيل دون أن تدخل فى جدل حول المشكلة . وفى السابق كانت المشكلة الكبيرة تتمثل فى : كيف سنطور المناطق المحتلة حتى يعود العرب الى صوابهم ؟ (!) أما الآن ، فالأمر مختلف . انها تدور حول : كم من الأرض سوف يتعين علينا أن نعيده ؟ ويزداد باستمرار ـ الآن ـ تسلط الشعور « القومى الاسرائيلى » حول

مسالة : ماذا حدث من خطأ خلال حرب اكتوبر . وتتضاعف الهموم والكآبة مع مشاهدة الاسرائيليين لجيشهم ـ وهو ينسحب الى عمق سيناء ـ فينتمو شعور بأن العرب سوف يحصلون من خلال الضغوط السياسية على اكثر مما حصلوا عليه من مكاسب في ميدان القتال . ثم تجمع هذه المشاعر جميعا مرارة التفكير فى أن الآلاف من الأرواح قد فقدت أو دمرت بغير طائل » .

ويدور حول هذه المعانى ايضا احدث الكتب الاسرائيلية الصادرة أخيرا وأكثرها انتشارا ، وهو كتاب « كيبور » الذى اشترك في تاليفه سبعة من رجال الصحافة الاسرائيلية .

ويكتب « هنرى اليج » فى « لومانتيسه » الفرنسية سلسلة من المقالات التحليلية بعنوان « الشرق الاوسط والبحث عن السلام » ويبدؤها بقوله : « تمثل حرب اكتوبر تحولا رئيسيا بالنسبة للوضع فى الشرق الاوسط ، فالمنطقة تمر الآن بمرحلة جديدة في المواجهة المستمرة منذ ٢٥ سنة بين اسرائيل والدول العربية . وقد نشبت هذه الحرب بسبب رفض زعماء اسرائيل الدائم للامتثال الى قرارات الامم المتحدة الخاصة بالانسحاب من الاراضي المحتلة واحترام الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى» .

ويستطرد بعد ذلك قائلا : « وجاءت حرب اكتوبر لتقضى بضربة واحدة على أوهام اسرائيل . ان المسلك الشجاع الذى اتبعه الجنود العرب في الجبهة ، والخسائر التى كبدوها للعدو قد أدت الى القضاء على العقدة التى كانت تعتمل فى نفوسهم ، فلم يعودوا الجيش الذى يهزم باستمرار . ومرة اخرى تولد لدى العرب الامل في ان يتمكنوا من اسماع صوتهم وكسب الاعتراف بحقوق الفلسطينيين .. »

ويتعاظم دور مصر ورئيسها السادات بعد حرب اكتوبر ، وتبدأ في استعادة مكانتها ـ بحق وبغير ادعاء او هالات اثارة ـ

فى المنطقة العربية وبين الدول الافـريقية والاسيوية والاسلامية وفى العالم . وتلمع حصافة السادات وشجاعته . وباصالة مصر وحكمتها وثورتهـا فى يد ، وبكرامة ٦ أكتوبر فى اليـد الأخرى يذهب الى مؤتمر القمـة الاسـلامى فى الباكستان فيبلغ القمـة المشرفة بالفعل . وتكتب « الجارديان » البريطانية مقالا افتتاحيا تحت عنوان « مصر لها الفضل فى عودة مجيب الرحمن » قائلة : « وقد بد أن الشيخ مجيب الرحمن وذو الفقار على بوتو قد جمعت بينهما موجة مفاجئة من الحماسة الاسلامية الشديدة ، ولكن الحقيقة أن لقاءهما هذا ـ الذى أقام العلاقات بين الباكستان وبنجلادبش لأول مرة منذ الحرب والانفصال ـ قد دبر بهدوء وبصعوبة خلال فترة طويلة من جانب أطراف خارجية على رأسها مصر ، وعندما سئل الرئيس السادات عن عملية التوفيق التى تولاها ، ابتسم ابتسامة رجل الدولة والزعيم وأجاب ليس لدى تعليق » .

ويمكن أن أملأ صفحات وصفحات استشهادا بما كتب ـ خلال أسابيع قليلة فقط ـ للاجابة الضمنية على السؤال : لماذا ينبغى ألا نقلل من اهمية ما تحقق ؟ ولكنى أجتزىء بما أوردت .

والآن .. لماذا ينبغى الا نبالغ فيما تحقق .. أو نستنيم اليه ؟

خير مدخل للاجابة على هذا السؤال ربما كان عبارة شهيرة بليغة للسادات ، هى شعار مرحلة وقد لا يهم ما تحمل بلاغة التعبير بقدر ما تجسد ضرورة التنفيذ وصدقه ، وهى قول الرئيس المقاتل « لقد قاتلنا .. وأمامنا قتال شديد » ..

والقتـال يعنى القتـال على كل صعيد .. عسكريا وسياسيا ودبلوماسيا واقتصاديا وتنفيذيا .. وجهـاد النفس ونضال بناء الانسان الجديد

وفى نطاق قضيتنا العربية مع اسرائيل ـ ولن تبرح القضية الأولى ـ امامنا عمل دائب وصعب وطويل ، ولكنه اشرف الأعمال والأهداف طرا حتى تصبح كلمة الحق هى العليا ، وهى التى تملع ارادتها وشرعيتها وانسانيتها كاملة .

أمامنا ـ أولا ـ ما التزمنا به من ضرورة البدء بتنفيذ الفصل بين القوات فى الجبهة السورية وعلى الوجه المرضى (وفيما بالتزامنا وتم الفصل فعلا) .

ثم تجىء اجراءات استئناف مباحثات السلام فى جنيف .

ثم التنفيذ الحقيقى لقرار مجلس الامن ٢٤٢ بكل دقة وبغير تلاعب بالألفاظ ، فالمسألة جد لا لعب فيها ولا هزل ، ولا مجال ـ بعد ٦ اكتوبر الذى ألغى ٥ يونيو ـ الا للانسحاب الاسرائيلى الكامل عن جميع الاراضى العربية المحتلة .. واحترام حقوق الشعب الفلسطينى واستعادتها . وغنى عن البيان «عروبة القدس» التى « زأر » بها المؤتمر الاسلامى الذى عقد بلاهور فى أواخر فبراير ١٩٧٤ لقداسة ما يمثله مسجدنا الاقصى ..

على أن ذلك كله ـ مع بداهته وضرورته وشرعيته ـ ليس بالأمر اليسير ، فنحن نعلم ضراوة العدو الذى نواجهه مهما « يستضعف » أو « يستأسد » أو يحتل مركزا وسطا .

ومن هنا لا نبالغ فيما قطعناه حتى الآن ..

المؤسسة العسكرية فى اسرائيل « مضروبة » ، ولكنها تلعق جراحها وتحاول أن تتماسك ..

ديان يهتز .. ديان يرفض الاشتراك فى الوزارة .. مائير تخسر مقاعد وتضطرب .. مائير تتنحى عن الحكم ـ تصر على ذلك ـ .

واذا تعمقنا في التحليل قد نطيل وقد نذهب مذاهب شتى ..
ولكن ببساطة يجب أن نذكر دائما أن اسرائيل هي اسرائيل !

ولدى نماذج أخرى من صحف الغرب والشرق للتدليل على الوجه الآخر للصورة .. على الرغبة الكامنة « المتأصلة في الاجرام » لدى اسرائيل للحصول على أى مكاسب وأى توسع ..

أشير فقط الى قول المعلق السوفييتى « الكسندروف » :
« يبدو عدم استعداد الدوائر الحاكمة الاسرائيلية للتخلى عن اطماعها الخاصة فى الاراضى العربية من مشروع الميزانية الجديدة لعام ٧٤ ـ ٧٥ التى أعلنت أخيراً ، اذ تخصص نصف نفقاتها للاحتياجات العسكرية ، ويستهدف مشروع الميزانية زيادة القدرة العسكرية لاسرائيل الى أقصى حد مما يعكس الاغراض الحقيقية للعسكريين الاسرائيليين وآمالهم ، وهم الذين وضعوا مخططاتهم من أجل اعادة رسم خريطة الشرق الاوسط لصالح اسرائيل .
وتتأكد تطلعات التوسعيين فى تل ابيب أيضا من الموقف السائد على الجبهة السورية الذى تقع مسئوليته على اسرائيل ، وكذلك على الحدود الجنوبية للبنان » ..

غير ان هذا كله لا يخيفنا . بل استطيع القول بأننا متفائلون والحمد لله ، كما أننا لا نستطيع الا ان نضيف ـ انصافا للحق ..
وبرغم كل شيء ـ أن سياسة الولايات المتحدة الامريكية فى المنطقة قد بدأت تتغير وأصبحت أقرب الى الاعتدال فى هذه المرحلة ، وقد كان جهدها واضحا فى محاولة التوصل الى أولى خطوات السلام .

ولكن الحرب كما قال الفريق الجمسى رئيس أركان حرب القوات المسلحة : « لم تنته وما زالت أمامنا مراحل ثانية نستعد لها بنفس الاصرار والعزيمة التى كنا بها فى حرب اكتوبر » ..

الخلاصة اننا اذا كنا لا نقلل من أهمية ما تم تحقيقه حتى الآن منذ ٦ اكتوبر ـ ولا نبالغ فى الوقت نفسه ـ فاننا نقف على طول الضفة الشرقية للقناة رافعين أعلامنا رافعين رؤوسنا ، فى صلابة واستعداد وحسن تقدير للموقف وسلامة حساباته . نقف بكل مصريتنا وعروبتنا ونقول : ان الفصل بين القوات هو مجرد بداية ، واننا قادرون بمشيئة الله وبالشعب وبالجيش أن نحقق أهدافنا العادلة كاملة ..

•• التعمير والتخريب

ليس من سمع كمن رأى ، وليس من رأى الصور والأفلام السينمائية كمن شاهد « على الطبيعة » ما جرى من دمار اجرامى لخط قناة السويس .. وبالتحديد المدن المصرية الثلاث الصامدة العظيمة : السويس والاسماعيلية وبورسعيد .

كل منزل تهدم ، وكل مصنع ضرب وأتلف وتوقف ، وكل شارع مسخت معالمه ، وكل بيت من بيوت الله تساقطت عليه صواريخ وقنابل أعداء الله ، وكل مصلحة تعطلت ، وكل أسرة تشردت ، ثم أولا وقبل كل شيء .. كل روح ازهقت ، وكل دم أهدر ـ وقد عايشت هذا كله فى مراحل مختلفة خلال السنوات الماضية منذ يونيو ٦٧ ـ انما كانت تعمق فى النفس ليس فقط مشاعر الكراهية « الانسانية والمشروعة » لما تمثله اسرائيل ، بل أيضا ترسخ عقيدة « ايجابية » لم تتحول : بأن ما تمثله اسرائيل « جسم غريب » حقيقة فى هذه المنطقة العربية ، ولا يمكن أن

يستمر على صورته تلك أبدا . وقد يشهد هذا الحق الحاسم جيل ابنائنا أو أحفادنا .. ولكنه آت لا ريب فيه . انه حتمية التاريخ الذى نصحح أنفسنا ونفرضه ليصحح هو ويفرض نفسه . وليس هو خطب ومزايدات « الالقاء فى البحر » ولا قصده !

ولا يعنيني كثيرا أن « يتهمني » من شاء بما شاء : بالتكرار أو بالانغلاق على النفس أو بالتطرف أو بالعداء للسامية (وما عاد أحد « يأكل » من هذه الاتهامات) ! واذا كان تطرفا الخ .. حب كل حق وكل بوصة أرض الوطن العربى ، فعندئذ مرحبا بالتطرف !

آثار اسرائيل اذن وجرائمها مثيرة مجسمة في منطقة القناة وفي سيناء .

وليشهد شبابنا - بصفة خاصة - بأعينهم ما اقترفته اسرائيل وماذا تعنى اسرائيل التى هى الاستعمار نفسه . اننا محتاجون - وباستمرار - الى « الهاب » الطاقة للغد ، وان كان تاريخ اسرائيل خلال ربع القرن الماضى كافيا بذاته لأن نفتح أعيننا لهذا الغد . محتاجون أن نشد عزمنا لسلسلة قد تتصل من المواجهات السياسية والعسكرية .

ولقد أبدو - وبغير انقطاع - داعيا الى « الحقد الوطنى » تجاه اسرائيل . ولست اتبرأ منه ولا أبرأ !

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان دعاة تهذيب أو استئصال الحقد والكراهية بين فرنسا والمانيا - على سبيل المثال - كثيرين . وكنت وما زلت أراها دعوة صالحة وواجبة لسلام العالم .

وكثيرا - وبالأخص مع الدوائر الأجنبية فى مصر - ما يشار الى هذه المعانى « اسقاطا » على العداء بيننا وبين اسرائيل .

ولكن الموقف مختلف تماما ، وهذا هو « جوهر » القضية التي قد لا يدركها بهذه الدقة أجنبي « يبهر » عندما يقرأ عن « حضارة » اسرائيل المستحدثة المستوردة ، أو « يستخف » بنا وبحقوقنا لمجرد أنها اغتيلت ببساطة تحت سمع العالم وبصره زهاء ٢٦ عاما !

الفارق كبير جدا بين النموذجين .

فرنسا بلد مستقل وقائم بذاته له تاريخه وتعداده الضخم ومكانته وحضارته وثقافته الخ ، والمانيا بالمثل . ولقد قامت بينهما حروب متصلة عبر هذا القرن والقرون الماضية ، واحتلت هذه أرضا من تلك .. والعكس صحيح ، ثم حدث الانسحاب والتصحيح لمسار التاريخ . (ومن المؤكد أن ما أتناوله في سطور قليلة هو « تبسيط » شديد جدا لمجلدات ضخمة جدا) !

بل أن أفواجا من الالمان نزحوا الى فرنسا واستوطنوها وذابوا فيها كأبنائها ، وظلت فرنسا هي فرنسا . كذلك الأمر بالنسبة لأفواج الفرنسيين الذين نزحوا الى المانيا .

ولقد أراني غير محتاج بعد هذه الصورة الى المقارنة بالصورة الأخرى ، لأنها واضحة وفاضحة « بمفهوم المخالفة » كما يقول رجال القانون !

فلسطين ضمت أهلها بالدرجة الأولى .. وأهلها يعني أهلها فحسب ! منهم المسلمون ومنهم المسيحيون ومنهم اليهود شأن أي دولة في العالم تجمع مختلف الأديان .. اما أن يطرد أهل فلسطين لتخصص لليهود وحدهم . أما أن ينتزع هذا البلد تماما ويداس بالأقدام ويمحى من التاريخ . فهذا أمر لا مثيل له في تاريخ العالم ، ولا يقبل مهما تتجاهله قوى أو تعتمد الوضع الجديد بزيادة .. وبلا نقصان !

فأين هو وجه الشبه بين القضيتين .. قضية فرنسا والمانيا ــ مثلا ــ من جانب ، وقضية البلدان العربية واسرائيل (فلسطين سابقا .. ولاحقا) من جانب آخر ؟

ولعلى أكون قد اقتربت من « المحاذير » فى هذا الانسياق .. بل جاوزتها !

ولكنى أسأل سؤالا واحدا : ماذا يعنى احترام حقوق شعب فلسطين وضمان هذه الحقوق .. تلك التى نص عليها حتى قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذى رضينا به فى ظروف غير مواتية ؟

وأوضح حتى لا يساء فهمى : لم ندع أبدا الى الغاء اليهود أو طردهم من فلسطين ، ولكنا أيضا لا يمكن أن نرضى بالغاء فلسطين وطرد أهلها . حتى لو استغرق تحقيق ذلك أجيالا طويلة ، ومن الأرجح انه سوف يستغرق هذا الزمان غير القصير .

هل هى ثقة بالغة لا تستند الى واقعيــة عملية ؟ هل هى خيالات « شاعر » ؟ لا بأس ! فليذكر عباقرة « المحللين » الأجانب وغير الأجانب أن ٦ اكتوبر كان حلما « شبه مستحيل » ، ولكنه تحقق بالمعاناة وبالصبر وبالارادة وبالحق .

وانما استطردت فيما استطردت فيه ، دفاعا عن « الحقد الوطنى » المشروع والذى لا ينبغى ــ تحت كل الظروف ــ أن يفتر تأججه والهامه وبناؤه ، ولا أن يقبل الطعن فيه بنماذج غير مماثلة .. غير مستوفية الشروط من هنا وهناك !

ولنعد الى التعمير !

لقد رات الدولة ــ بحق ــ أن تولى منطقة القناة عناية خاصة باعتبارها الواجهة التى تحملت أكثر من أى منطقة أخرى عذابا فادحا ، ودفعت ثمنا غاليا ..

وعندما التقى الصحفيون بالرئيس انور السادات فى أسوان ليلة الوصول الى اتفاق الفصل بين القوات المتحاربة ، كان 6 اكتوبر هو الذى يظللنا بظله الوارف .. وعندما عرض السادات للتعمير كنت ارى « الارادة المصرية » واسمعها وهى تختار وتحدد وتزن وتخطط .

اننا نعرف العدو الشرس الذى يواجهنا ونواجهه . تاريخه عدوان متكرر ، بل هو كيانه كله .

ومن هنا فان اليقظة والاستعداد والمواجهة أقل ما هو مطلوب منا . ومن هنا أيضا فالتنسيق مع القوات المسلحة فى جميع مشروعات التعمير ضرورة حتمية ومصيرية .

ونحن نتصور أن تخطيط هذه المدن المناضلة سوف يقوم على اساس انها « مدن مقاتلة » بكل ما فى هذا التعبير من معان ؟ ولسنا أقل قدرة من اسرائيل على « الكيبوتزات » وما شابه ذلك .

فنحن حينما نشرع فى التعمير فعيننا على التحرير الكامل . التعمير مستمر وواجب .. والتحرير الشامل أكثر استمرارا واشد وجوبا .

ونحن نستعد ـ بفضل الله وحمده ـ لكل الاحتمالات ، ومعنا الضمان الذى لا يكذب ولا يتراخى ابدا : الشعب والجيش كما يؤكد ذلك دائما الرئيس السادات ، ويثبته تاريخنا ومستقبلنا .

ربما لم يستغرق خطابه فى عيد العمال اكثر من ساعة ؛ فهو يعد - نسبيا - من الخطب القصيرة فى امثال هذه المناسبات ، ولكنه من ناحية جاء بعد « ورقة اكتوبر » المستفيضة الشاملة والتى امعنا فيها التأمل ونستعد لها بالعمل ؛ ومن ناحية اخرى فان خطاب الرئيس السادات فى عيد العمال قد اثار قضايا بالغة الأهمية ، فضلا عن قراراته الشعبية العظيمة الحانية « والمكلفة » رعاية وتيسيرا على فئات الشعب ذات الدخل المحدود ■

واعتقد أنه ما من عربى بين الراشدين من المائة والعشرين مليونا فى أى بلد عربى ، اصغى السمع وقلب النظر فيما تحدث به السادات يوم أول مايو الا حكم للخطاب ووصفه بالشجاعة والحصافة والاقناع . وثمة شروط لضمان هذا الحكم والوصف ؛ وهى أن يتوافر للسامع والناظر : الموضوعية والتجرد والفهم

الواسع الافق ! ونحمد الله أن الملايين والملايين من الشعب المصرى والعربى ـ الى درجة تقترب من الاجماع ـ تملك صفات الموضوعية والتجرد واتساع الافق ، سواء بالعلم والثقافة ، أو وعى رجل الشارع والعامل والفلاح البسيط ، أو الاحساس ، أو الفطرة !

ولست احاول بهذا أن أنثر الزهور على موكب السادات وأقواله . ولكنى ـ ببساطة وبغير مداهنة ـ أمارس ما تعودت أن أمارسه ولن أبرح ما حييت ـ من مكانى المتواضع ـ فى الصفوف العريضة اللا نهائية التى وقفت وما تزال للذود عن مصر والقومية العربية .

ولسوف أبدا بتناول معان فى هذا الخطاب المهم قد يلوح فى الظاهر أنها « لا تتفق » مع بعض « كتاباتى » التى تبدو لقوم هنا أو هناك أحيانا « متطرفة » فى عدائها لاسرائيل ! ثم استطرد الى سائر النقاط .

أولا : شعار « القاء اسرائيل فى البحر » ـ وهو على اى حال ليس من « وضعنا » ولا مما نعتمده ـ نبذه حتى غلاة العرب و « مجوه » ، لا لأن أعداءنا استغلوه أبشع استغلال فحسب ؛ ولا لمجرد انه كان « بالونات » حماسية فارغة محلقة مسرفة فى الخيال و « الخلد » .. ولم تحتمل « غارات الطائرات » فى هجمة اسرائيلية شرسة غادرة ، ولكنهم نبذوه لأن احدا من العرب ليس فى نيته ـ حقيقة ـ القاء اسرائيل فى البحر ، وانما فقط ـ ومع الزمن ـ احقاق الحق .. وعودة فلسطين لاهل فلسطين مسلمين ومسيحيين ويهودا !

وفى منطق سياسى عملى ومسئول يقول السادات فى هذا الشأن : « ان من يتجاهل ان أمريكا تضمن امن اسرائيل ، وان

روسيا أيضا تضمن أمن اسرائيل ، وان المجتمع الدولى كله حين لا يذهب الى أبعد من قرار مجلس الامن يضمن أيضا أمن اسرائيل ـ ان من يتجاهل هذا انما يدفن رأسه فى الرمـال . ونحن من موقع المسئولية التاريخية تجاه قضايا هذه الامة لسنا مستعدين أن نريح أنفسنا بدفن رؤوسنا فى الرمـال . ونحـن لا نمضى فى خطوات نضالنا على غير هدى . ولا نكتفى بأن تكون خطواتنا مجرد رد فعل ، ولكنا ندرس عناصر كل موقف ونتحرك حركة مرسومة ولكنها دائما وبعون الله الى الأمام » .

« ظاهر » هذا القول هو فى نظر القلة القليلة ـ التى فى قلبها مرض والتى لا تكتفى بدفن رأسها فى الرمال وانما « تضربه » أيضا فى الحـائط ـ ورد فعلهـا هو « الرفض » ، أو ربما الاتهـام « بالانهزامية » .. هكذا !

ولكن القضية أعمق من هذا كثيرا وأعقد !

اننى ـ مثلا ـ عندما أؤكد على عدائنا لاسرائيل « والح » ـ بنفس عربية خالصة صافية ـ على بث الحقـد والكراهية ضد اسرائيل « رافضـا » كيانها العـدوانى ، انما أفـرق بين ما هو « ممكن » وعاجل اليوم .. وبين ما هو « غير مستحيل » وآجل فى الغد البعيـد .

ولهذا فان السادات « يستكمل » منطقه العملى بعبارة أخرى يضيفها ، ويصل بها الى ذروة الفكر والمسئولية لديه كزعيم سياسى ورجل دولة ومستلهم للتاريخ ، فيوضح بقوله :

« ان المعركة لم تنته بعد . اننا وقد سمينا حـرب أكتوبر الشرارة ـ أى انها البداية ـ وان العبور وفك الاشتباك مرحلة سوف تتلوها مراحل أخطـر ، وأن قوتنا العسـكرية وتجـربتنا القتالية اليـوم أكبر وأعظم ، وان صراعنا صراع أجيال بأشـكاله العسكرية والسياسية والحضارية ، فان جيلنا يقوم بواجبه فى تخليص أمتنا من عـار الهـزيمة وفتح أبواب التقـدم والانطلاق

امامها وتسليم الأمانة الى الأجيال المقبلة . فى صورة وطن قادر على النصر عامر بالثقة بالنفس مؤهل لمواجهة التحديات المقبلة » .

وابدا لم أتخل عن يقينى بأن « حتمية التاريخ » تقضى بأن النصر ـ كل النصر ـ للعرب آخر الامر ، وان حرب العاشر من رمضان هى التى رأينا بها « برهان ربنا » ، وانها كانت ـ على سبيل القطع لا الخيال والمبالغة « واستسهال » القول ـ بداية النهاية لكيان اسرائيل العدوانى ، ولا يهمنى بعد ذلك أن يفسر هذا القول على أنه توقع لنهاية اسرائيل ذاتها فى مرحلة تالية قربت أم بعدت ! ولعلنا ، لمرة .. هى معركة اكتوبر التى اربكت حسابات اسرائيل وقياداتها ومؤسستها العسكرية وأطماعها ومسانديها ومموليها ، لعلنا « جبرنا خاطر » نظريات الفيلسوف والمؤرخ البريطانى « توينبى » التى ما برح يؤكدها ويكررها ، وكانما ينظر الينا ـ فى ابتهال ـ أن نصنع شيئا حتى لا يبدو كاذبا أو واهما أو « عربيا » أكثر من العرب !

اذن ، فبغير اسراف فى التفاؤل .. بل بكد ومثابرة واصرار وتجربة قتالية لن تحيد أو تفتر أو تسترخى ، فان اسرائيل ـ لأول مرة ـ تتكشف « وتتعرى » أمام نفسهاوامام أصدقائها وأمام العالم ، وتأخذ « حجمها » الحقيقى ـ وهو ما كانت تتجنب الوصول اليه فى اى لحظة وتعمل له ألف حساب ـ وهو حجم « بلطجى » يهدأ روع نفسه بالصلف ، معتمدا على مساعدة غيره ! فاذا ما تردد هذا الغير فى مساعدته ـ وغير نظرته أو نظرياته ـ فليس امام هذا البلطجى من مصير الا « الموت » من البرد ومن الخوف .. ربما بعد « انتفاضة » تطول أو تقصر !

ثانيا : ومن هنا تأتى قيمة وضرورة « الموقف العربى المتماسك ، والتضامن العربى » التى ذكر بها ويذكر دائما الرئيس

السادات ، والتى أسهبت فى تبيان مضمونها فى موضوع « أيها العرب : اتحدوا فهذا هو عدوكم وحده » !

ويضع السادات النقط فوق هذه الحروف « العربية » المضيئة بالذات فيقول :

« لو لم يكن لحرب أكتوبر المجيدة من أثر الا أنها جعلت العالم لأول مرة يصدق ما نقول ، ويأخذ مواقفنا المعلنة مأخذ الجد ، لكفانا هذا سببا للفخر بما انجزته حرب أكتوبر وما قامت به القوات المصرية والقوات السورية الباسلة فى تلك الملحمة المجيدة . واذا كان يسعدنا أن نسجل ان كل دولة عربية تقريبا قد ساهمت فى هذا النصر بنصيب فان هذه النظرة الجديدة من العالم تشمل اليوم كل دولة عربية فى مجال علاقاتها الدولية . ولم يكن هذا ممكنا بغير القتال الذى قاتلناه والتضحيات التى تحملناها ، فان القول السياسى المأثور يقول : هات القوة وتكلم ! هات القوة وتفاوض ! وهذا ما جعل الموقف العربى كله مختلفا . كنا نتكلم وكنا نتفاوض بغير قوة او بغير استعداد لاستخدام القوة ، ولكننا اليوم نتكلم ونتفاوض بعد أن أثبتنا استعدادنا لاستخدام القوة ودفع ثمنها ، وبعد أن اظهرنا مصادر قوة متعددة عسكرية واقتصادية ومعنوية »

وتلك هى صميم « فلسفة السادات » فى المجال العربى : الارتفاع بوحدة الصف العربى الى درجة تسمح بتنسيق حقيقى ساعة المعركة التى منذ أن بدأت فهى مستمرة بصور شتى ومنسقة ، وهى نفسها التى توحى وتوصى بالارتفاع عن اية معارك جانبية . وهى ايضا منطق الحكمة الخالدة الثابتة « لا يصح الا الصحيح ». ولقد أعلم أن ثمة « صغارا » — فى « الداخل » — فاتهم ركب التطور ، وهم لا يضيقون ذرعا كما يضيقون بتأكيد هذا

القول المأثور ! وفى « الخارج » أمثالهم ! .. ولقد « عفى » عليهم الزمن .. عفا الله عنهم وهداهم سواء السبيل !

ثالثا : لست أستطيع أن أحصى عدد ماكتبت ونددت ـ وكتب غيرى وندد ـ بامريكا « الرسمية » ابتداء من هارى ترومان حتى ريتشارد نيكسون مرورا بالبنتاجون والكونجرس والمخابرات المركزية الامريكية والصهيونية الضالعة ! غير أن أقوال السادات وخطبه وتصريحاته في الماضى وبالأخص فى السنتين السابقتين على معركة اكتوبر ٧٣ « ترجح » وتزيد ـ بحق وبعلم وبتجربة مسئولة ـ عن كل ما كتبت وكتبنا .

ولا أستطيع ـ ولا يستطيع أحد ـ أن أزعم أن امريكا قد تحولت الآن الى « صديق » للعرب .

ولكن أحدا لا يستطيع ـ فى الوقت نفسه ـ أن ينكر أن ثمة تغيرا قد طرأ على موقف أمريكا . ليس تغيرا كبيرا وواسعا بطبيعة الحال ، ولكنه « تحرك بناء بعض الشيء » بعد جمود وتشدد معنا وتحيز وحشى واضح لاسرائيل . وهذا التحرك ـ مهما تكن ضآلته .. وهو ليس ضئيلا على أى حال ـ يسمح بل يفرض علينا أن نتحرك معه ونفيد منه ، والا رضينا « بأمية سياسية » ضارة ! ونحن بالتأكيد لا نعادى أمريكا كراهية فى امريكا لذاتها . . فهذا عبث وجمود فكرى سياسى متعصب نربأ عنه . ولكننا نعادى مواقف حكومات تعادينا بينما تمتد أيدينا بالصداقة الى الشعوب .. فالشعوب ـ فى أعماقها ـ عادلة محبة للسلام .. باستثناء اسرائيل طبعا لأن كيانها ظالم عدوانى بالنشأة والممارسة !

ومثلما قال الرئيس السادات فى خطابه الشجاع الحصيف يوم عيد العمال أن الخطابات السياسية والمذكرات القانونية وقرارات الامم المتحدة لم تكن هى التى غيرت موقف امريكا بل انها

قابلتها بالاهمال والعناد والعرقلة ! « انما الذى غير من موقف امريكا امران : الأمر الأول هو المعركة ذاتها ، والنجاح الذى لم تكن تتوقعه أبدا لقواتنا . والأمر الثانى هو تحول التضامن العربى الى حقيقة واقعة سواء فى زمالة السلاح أو فى استخدام سلاح البترول . لقد اكتشفت أمريكا ببساطة أن أسس انحيازها المطلق لاسرائيل واستهتارها الكامل بالعرب لم تعد صالحة للصمود . اكتشفت امريكا أن اسرائيل قابلة للهزيمة على أيدى العرب بل انها تنهزم فعلا وتستغيث .. ولم تعد اسرائيل عصا غليظة لامريكا ترهب بها العرب . هذا كله هو الذى غير موقف أمريكا ولم يكن ممكنا الا أن تغير من موقفها . ببساطة نحن الذين غيرنا بهذا كله موقف أمريكا ، وبالتالى فهذا هو أحد انتصاراتنا التى حققها العرب والتى يجب أن تكون مصدر الهام لهم وليس مصدر تشكيك » .

فالرحلات المتتالية التى يقطعها كيسنجر جيئة وذهابا لمحاولة « حل القضية » وتطبيق قرار مجلس الامن ٢٤٢ هى تغير واضح فى موقف امريكا. ولا مانع — مرحليا بالنسبة لنا — أن يكون دافع أمريكا وراء ذلك هو حماية مصالحها ، بعد أن تغيرت الصورة .. عما كانت تراه امريكا قبل ذلك من أن اسرائيل وحدها التى تحمى مصالح امريكا من أن تضار ! ونحن على أى حال يهمنا حماية مصالحنا نحن بالدرجة الأولى وكسب ملموس لقضيتنا . وليس أدل على تغير موقف أمريكا من « مقارنة بسيطة » بين هذه الرحلات التى يداب عليها كيسنجر وما تصل اليه من نتائج فى اطار تنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وبين ما صرح به كيسنجر نفسه قبل المعركة بأيام قليلة — وكان حديث العهد بتعيينه وزيرا لخارجية امريكا — لدى مقابلته سفراء الدول العربية فى واشنطون وقوله لهم بالحرف الواحد : « دعكم من قرار مجلس الأمن ٢٤٢ فانه قالب جامد .. واتركوا القضية بين يدى » ! ونحن نعلم ماذا كان يعنى ترك القضية بين يديه فى ذلك الحين والحال على ما

كان عليه بغير تحرك ناجح فى قتال وبغير استخدام لسلاح البترول . كانت ستصبح قالبا أكثر جمودا .. ربما أشد من قالب « مبادرة روجرز » !

وباختصار .. لا « عقد » الآن فى التعامل مع أمريكا .. ولا « غفلة » ايضا .

ولقد سأل التليفزيون الامريكى الرئيس السادات قبل أيام من خطابه فى عيد العمال سؤالا صريحا ومباشرا : هل صحيح أن تفاؤلكم بالنسبة للسياسة الامريكية قد بلغ حدا يجعلكم تتخيلون انها يمكن أن تتخلى عن تأييدها لاسرائيل الى درجة انها تزودكم بالأسلحة .

وكانت اجابة السادات أكثر صراحة ومباشرة : « كلا .. كلا .. اطلاقا .. اطلاقا ! وحينما أقول أن هناك تغيرا فى السياسة الأمريكية فاننى لم اقصد اطلاقا أن الولايات المتحدة قد تخلت عن تأيدها لاسرائيل وضمانها لاسرائيل ، بل على العكس من ذلك .. ففى الحرب الأخيرة قدم الرئيس نيكسون الدعم لاسرائيل أكثر مما يتطلبه انقاذها . لقد عاونهم وأعطاهم ٢ر٢ بليون دولار ، وهذا ما لم يفعله اى رئيس أمريكى من قبل ! ولكن التغيير الذى أحدثكم عنه هو أنهم كانوا ينظرون الى منطقتنا على انها منطقة معادية أو على أنها منطقة نفوذ لقوة كبرى هنا .. أما الآن فقد انتهى ذلك ، وهذا هو ما أعنيه بالتغيير فى السياسة الامريكية . فان أمريكا الآن ـ فى عهد نيكسون وكيسنجر ـ تسعى الى اقرار السلام .. »

وفى هذه المسائل .. وفى غيرها . يكون العقل المفتوح والقلب المفتوح والعين المفتوحة . فما أطيب الفكر الواسع اليقظ ، والقلب الواسع غير المعقد ، والبصر الواسع الحديد !

رابعا : أكد السادات ما يؤكده دائما ، وما نود أن يفهم على وجهه الصحيح .. بلا زيادة ولا نقصان وهو « اننا لا نريد ابدا أن نفرط فى صداقة الاتحاد السوفيتى ولا أن ننقص من رصيده لدينا » .

وهنا ربما لزمت وقفة قصيرة لنقول « للمتفسخين » من أقصى اليمين الذين يتهموننا « بالشيوعية » لأننا نحرص على الصداقة ونحفظ لموسكو — وفاء وتقديرا — مواقفها معنا وما « أمكنها » أن تمدنا به من تجهيزات عسكرية ، كما نقول « للمتشنجين » من أقصى اليسار الذين يستكثرون علينا « عتاب الأصدقاء » — نقول انها مصر والعروبة فى أعماقنا وفى حبات عيوننا .. فلا طعن ولا تثريب ! ونقول للاتحاد السوفيتى الصديق فى كلمة مقتضبة ومخلصة : راجع حساباتك .. وتعال الى وقفة مع الصديق

« ونحن قد نختلف ، ولكننا نختلف من وجهة نظرنا ، لا لحساب أحد .. »

خامسا : من أبرع ما تناوله السادات وأكثره صدقا وحسما فى شأن « الذين ينتحلون اليوم صفة الحديث باسم عبد الناصر » ثلاثة مواقف ذات دلالة كاشفة ؛ تجدر الاشارة اليها :

١ — فبالنسبة للموقف من المعركة وحدود مطالبنا التى ربما تكون قد قضت بها الظروف ، فان عبد الناصر فى مارس ٦٩ أعلن أنه لا ينبغى لأحد أن يطالبنا بأكثر مما التزمنا به حين قبلنا قرار مجلس الامن ٢٤٢ فى نوفمبر ٦٧ . وكانت تصريحات عبد الناصر تلك مقترنة بشعاره « المأمول » : ان ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ..

وهو نفس موقف السادات اليوم بعد أن تحول الأمل الى عمل .. ومضى يسترد بالقوة ما اخذ بالقوة . ففيم اذن المحاجاة والمزايدة أو « التمحيك » والتشكيك ؟!

٢ - بالنسبة للموقف تجاه أمريكا فان السادات قد ذكر « المتناسين » بخطاب عبد الناصر فى آخر عيد للعمال شارك فيه - رحمه الله - أى فى أول مايو ٧٠ ، عندما وجه نداء الى نيكسون لتعيد أمريكا النظر فى سياستها « الأمر الذى ترتب عليه تقدم أمريكا بما سمى بمبادرة روجرز والتى قبلها عبد الناصر بعد ذلك » .

أى أن هذا النداء كان يصدر عن ايمان من عبد الناصر والثورة ومصر بأن الموقف فى الشرق الأوسط لن يتحرك بغير مساهمة فعالة من أمريكا وروسيا .

ويعود السادات فى موضع آخر من خطابه فيوضح هذا المعنى العميق الاصالة بقوله : « ان عداءنا لأمريكا لم يكن أبدا مسألة مبدأ ، ولكن مسألة سياسات متعارضة ومتصادمة . ودعونى أذكركم بشعارنا منذ بدات الثورة : نسالم من يسالمنا ، ونعادى من يعادينا » .

٣ - وفى تأكيد اهمية التضامن العربى ووحدة الصف والهدف العربيين وقومية المعركة لوحدة المصير وذلك بين كل العرب بغير استثناء وبغير خلافات ، ضرب السادات مثلا بالأيام الأخيرة لعبد الناصر ، ربما « يفيق » كل الذين تجمعوا ومشوا فى جنازة عبد الناصر عاقدين العزم على أن يسيروا قادة عربا وشعوبا عربية فى طريق التضامن العربى والالتفاف حول مصر ودول المواجهة لكسب المعركة وتحقيق التحرير والسلام والأمن للعرب . فقال السادات « اننى اذكر بأن عبد الناصر قد مات شهيدا فى محاولة من أشق واقسى المحاولات .. محاولة الابقاء على خيط من التفاهم بين اكثر الأطراف العربية تباعدا واحساسا بالمرارة .. أعنى بين المقاومة الفلسطينية والملك حسين . وكان هذا بدوره تعبيرا عن أدراك أن التضامن العربى وتحقيق اكبر قدر مستطاع بشريا .. هو سلاح من اهم اسلحة المعركة » .

وعلى الرغم مما يبدو على السطح احيانا من « خلافات غير مبررة » فانني لم ايأس ولن أيأس ابدا من أن الايجابيات غالبة.. والعروبة غالبة وثائبة !

سادسا : فى معركة البناء وحتى وهو يقرر ما قرره من اجراءات وتيسيرات اتخذتها الوزارة الجديدة واستهلت بها أعمالها رعاية للطبقات الكادحة حتى تكون هى بالذات التى تقطف - بحق - الثمار الأولى للنصر ، فان السادات - والدولة والوزارة - مع تحمل هذه الأعباء المالية الجديدة العادلة ، لا تفوته الموضوعية والمسئولية والتبصير فى شجاعة وحصافة فيقول « ليس من الأمانة أن نسمح بزيادة الدخول النقدية عما هو متاح فعلا من سلع وخدمات اذ ليس من العدل بل من العبث أن نعطى باليد اليمنى ما سوف نسلبه باليد اليسرى نتيجة لارتفاع الأسعار وهى النتيجة الحتمية لتضخيم القوى الشرائية اذا لم يصحبها زيادة فيما يمكن أن تنتجه مصانعنا ومزارعنا - بمعنى آخر .. أريد منكم أن تواجهوا الواقع معى وأن نطالب أنفسنا بزيادة انتاجنا قبل أن تزداد دخولنا .. وأن نحقق الاستخدام الكامل لطاقتنا الانتاجية » .

وهى معادلة صعبة اذا توانينا .. وسهلة اذا تفانينا ، ولا خيار الا أن نتفانى لنبقى !

سابعا : الايمان مسئولية وممارسة . مثلا .. الايمان بسيادة القانون وبالحريات وبالتخلص من الاجراءات الاستثنائية والمعتقلات الخ .. ليس مجرد شعار يسقط فى أول امتحان ، فهى ليست مسألة دعاية بل ايمان متأصل . وقد ارتفع السادات - بايمانه - فوق الغضب وفوق استفزاز صغار المحاولات الصبيانية ..

وها هو ذا يقضى بأن يحال المتهمون فى حادث الكلية الفنية العسكرية الى النيابة العامة وليس - كما هو متبع .. وقانونا حتى فى الظروف العادية - الى جهة عسكرية .

وكذلك وفى المقام الأول « الايمان الذى أعرفه ويعرفه هـذا الشعب العريق هو الايمان بالله وكتبه ورسله . الايمان الذى يتيم الحق والعـدل والخير والسـلام . الايمان السمح الذى يبتى به الناس ولا يهـدمون ، ويجمعون ولا يفرقون . الايمان الذى يرفع الوية الحب والاطمئنان لا الوية الحقد والتزمت والبغضاء » .

« وهذه المحاولة الصبيانية مثـال مؤسف لما يمكن أن تنتهى اليه عمليات انحراف فى شرح جوهر الدين وحقيقة علاقته بالحياة. وهذا يوضح ضخـامة المسئولية الملقـاة على رجال الدين وأجهزة التربيـة والاعلام الدينى ووسائل التثقيف العـام ، وهى تباشر دورها فى تعريف أجيالنا بدينها وفى اضاءة حياتها بقيمه الانسانية الرفيعة » .

ولا أحسب أنه فى المستطاع أن يوجه حديث فى الايمان الخالص أكثر دقة ووضوحا من هذا الحديث الذى تناول به هذه القضية الرجل الذى رفع شـعار دولة العلم والايمان . والحديث موجه بالدرجة الأولى الى الموجهين والمربين من رجال الدين .. والى كل راع « وكلكم راع .. وكلكم مسئول عن رعيته » .

وبقى - كالعادة - أن نضع هـذا كله موضع التنفيذ . فاذا كان العالم - كما أشار الرئيس السادات - قد بدأ الآن يصـدق ما نقول فى المجالين السـياسى والعسكرى ، فلا أقل من أن نعمل نحن بما نقول فى المجال السلوكى .. وفى الانضباط !

●●●● لم يعد يونيه يوجعنا

لأول مرة ــ بعد عناء كثيف ممرور وصبور منذ يونيو سيىء الحظ والسمعة ــ يقبل علينا شهر يونيو . فاذا به كسائر شهور الله وأيامه ! لم نعد نتأذى ــ بل نتلظى ــ فيه بالخامس منه . لعلنا الآن لا نكاد نذكر معه الا السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان . كنا ننتظر وننادي ونستعد « ليونيو المصرى العربى » وها هو ذا قد عرف طريقه ، فلم يعد « يونيو » يوجعنا ..

ولقد كان يونيو وسائر الشهور منذ حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ « عذابا » مقيما . « مزقنا » فى بدايته ، فتماسكنا . طاردنا بمحاولة التيئيس ، فلم نيأس . ربما « هربنا » منه فى مرحلة من المراحل بالتفجع أو بأحلام اليقظة أو انقسام الشخصية التى تعذب الذات وتعالجها فى الوقت نفسه ! ربما نال منا فى السطح وفى عمق من الأعماق ، ولكنه أبدا لم يحطم ارادتنا ، فتلك وحدها ــ ومن معجزات هذا الشعب ــ التى لم تنكسر . وربما

جاوزت « الخسائر » التى الحقها بنا فى عالم الماديات أرقاما فلكية لا يمكن حسابها ، غير ان حسابات الشعوب - برغم كل شىء - والانتصار الأخير الحافل بالتضحيات غالبة على أمرها ، فهى أشبه بالحسنات يذهبن السيئات !

سنوات ست مضت وقفنا فيها أمام « حائط مبكى ٥ يونيو » نحطمه بكل الآمال والاصرار والعمل الجاد المتجلد الدؤوب . فلما جاءت السنة السابعة ، وكان أمامنا « أن نكون أو لا نكون » - ولا خيار - عزمنا أمرنا وتوكلنا على الله . ومع تحطيم آخر حجر فى حائط المبكى وحاجز « الخوف » الذى أرادوا ارهابنا به ، عبرنا لنجد انفسنا كالعهد بها دائما عزيزة كريمة قادرة . دخل ٦ أكتوبر التاريخ ليطرد من تاريخنا ٥ يونيو وهزيمته المنكودة . واذا كان « النصر العسكرى » هو « البعد الأول » لانجازات ٦ أكتوبر ، فان الأبعاد الأخرى التى نلمسها الآن ونحققها ونمسك بخيوطها تفوق الحصر سياسيا واقتصاديا وعربيا وعالميا .. يكفى أن ننظر الى صلافة أسرائيل « وارتفاع اسهمها » منذ توقف القتال فى يونيو ٦٧ ، ثم نقارن ذلك بهزيمة اسرائيل « وانكسار موجتها » منذ توقف القتال فى أكتوبر ٧٣ الى الآن .. و « لسه » !

وكان أحد الزملاء يحدثنى عن « مؤتمر السلام » ، وكنت احدثه عن « الأسلحة » وما هو مطلوب من مزيد كحتمية لا غنى عنها ، ليس حبا فى هذا المزيد وتكديسا ، وانما استعداد ويقظة ومواجهة ..

ويبدو انه لم يفهمنى فسألنى : ما لى أراك « دمويا » ، كأنك لا تريد بديلا للحرب ؟!

قلت : على العكس ، ما احسبنى دمويا ، كما اننى - مع كراهيتى لما تمثله اسرائيل ، وبرغم انها تستحق مزيدا من تنفيذ العدالة الالهية والانسانية بأيدينا - لم أعد « الآن » اريد الحرب ..

انني أرحب الآن ـ والآن فقط بعد ٦ اكتوبر ـ بأن تحل القضية سياسيا وسلميا . ولو أننا « فرضنا المستحيل » وكانت القضية قد حلت قبل العبور المصرى المجيد ـ اى قبل انجازات معارك العاشر من رمضان وجسارة المقاتلين المصريين الذين أكدوا كرامة هذا البلد العزيز وقدرته القتالية و « الحضارية » المتأصلة الخارقة ـ لو أن القضية حلت بهذه « البساطة » ، لربما كنت قد مت كمدا و « بحسرة » هزيمة ٥ يونيو التى لم تلتئم حتى ٥ أكتوبر ! وهذا هو الدرس العظيم الذى لقنه لنا الرئيس المقاتل أنور السادات فى خطابه يوم ١٦ اكتوبر ٧٣ وفى حكمته الخالصة « أقول لكم بصدق وأمانة اننى أفضل احترام العالم ولو بغير عطف على عطف العالم اذا كان بغير احترام » .

فالسلام اذن غير محظور الآن ـ من وجهة نظرنا ـ بل ربما هو مطلوب ، لأن أمامنا مهام تعميرية لا حصر لها ، وفى وجداننا متطلبات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ولتحقيق التقدم العلمى والحضارى لبلادنا التى « عوقت » طويلا ، والتى تستحق أن تترك فى سلام تمارس ارادتها الانسانية للبناء والتقدم ، لأنها أكثر بلدان الأرض حبا للسلام وللانسانية .

ولكن هل اسرائيل ـ وهى ما هى بصقورها وحمائمها « مصاصة الدماء » على السواء ـ ستجنح للسلام ؟ هل ستمتثل آخر الأمر للضغط العالمى المتزايد ؟ هذا هو السؤال الذى لا يستطيع احد أن يقطع فيه بجواب شاف ، وان كانت الدلائل تشير الى أن « لعبة » المناورات وكسب الوقت والتسليح المتفاقم وتحين الفرص العدوانية تستبد باسرائيل .

غير أن عجلة التاريخ قد صححت ، وأصبحت الآن ـ وبحمد الله ـ تدور لصالح العرب وقضيتهم العادلة ، بشرط الا نقف

موقف المتفرجين بل ندفعها دفعا بالعمل العربى المشترك والواعى والمتدفق ..

ولعل هذه هى خواطر جماهيرنا العربية ومشاعرها مع يونيو الجديد فوداعا لـ « ٥ يونيو التعس » الى غير رجعة . وأهلا بـ ٦ أكتوبر وصبحه المشرق الدائم بمشيئة الله ..

أهلا بأعياد تتعاقب بعد العاشر من رمضان ...

●●●●● جـاء نيكسون .. ثم ماذا؟

شهد شهر يونيو سنة ١٩٧٤ ثلاثة أيام هى الرابع والخامس والسادس منه ــ فى أثناء زيارة الرئيس السادات لقواتنا وأبطالنا فى السويس والاسماعيلية وبورسعيد ــ كانت أياما مصرية عربية خالصة ، أطلعها العيد الذى جاء بعد العاشر من رمضان .

كما شهد الشهر نفسه ثلاثة أيام أخرى ، هى ١٢ و ١٣ و ١٤ منه ــ مع لقاء السادات ونيكسون ــ كانت أيضا أياما مصرية عربية وابنة ٦ أكتوبر الذى شققنا به الصخر ، وانتزعنا فيه بصبرنا وتضحياتنا ووحدتنا ودمائنا .. الكرامة وبشائر النصر النهائى .

واذا كان شعبنا العريق المقاتل الكريم المحب للسلام قد استقبل نيكسون هذا الاستقبال « الفذ » الذى بهره ، وكان محور اهتمامه وامتنانه وتقديره ، كما كان حديث العالم كله ، فمرجع

ذلك اننا فوق هذه الصفات ـ وبرغم كل شيء ـ شعب قد يغفر وان لم ينس ، ولكنه خال من « العقد » ومن « التعصب » وان « من يراعيه قيراطا يراعيه قيراطين » !

لا « حساسيات » اذن ولا « اندلاق » ولا « تبعية » ولا « جحود » .

فى شهر ديسمبر ١٩٧٣ جرى احتفال كبير بتشغيل الفرن الثانى لمجمع الحديد والصلب فى حلوان . وشهدت آلاف العمال يتجمعون ويتظاهرون ويهتفون للسادات الذى أقام « السد العالى الثانى » ويحيون الاتحاد السوفييتى الذى ساهم فى بنائه هاتفين ـ فى حرارة خالصة ملحوظة ـ بحياة الصداقة العربية السوفييتية .. وكان ـ فى تلك الآونة ـ قد تردد ما تردد عن « بعض قصور » فى امدادات معينة وتعزيزات طلبت قبيل المعركة وخلالها ، ولكنا لا نجحد تقاليد العرفان الأصيلة ، ثم اذا تصرفنا ـ وبدبلوماسية حميدة ـ فاننا نعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر !

ثم كانت هذه المئات من الآلاف ـ أو المليون .. أو ربما المليونان ـ من الوجوه المصرية الشماء التى حيت الرئيس نيكسون على طول الطريق . . فماذا تعنى تلك التحيات الصادرة من مصر العربية والتى هى بالدرجة الأولى لمصر والعروبة وفلسطين ؟ .

هنا سؤال أرجو الا يكون « مستفزا » أو « قليل اللياقة » : لو فرضنا « المستحيل » ، وكانت هذه الزيارة قد تمت منذ عام واحد ، أكان ممكنا أن يستقبل الشعب المصرى الرئيس نيكسون بهذه الروح ؟ أم ترى كانت « الهتافات الفاضبة » هى التى تملأ عنان السماء بنفس القدر ـ وبتداعى الأفكار ـ الذى ملأت به طائرات الفانتوم الاسرائيلية ـ الممنوحة من امريكا ـ سماءنا وأعماق مصر الصامدة تضرب الاطفال الآمنين فى بحر البقر والعمال

الـكادحين فى ابى زعبـلّ ، حيث كانت « الربيبـة » المدللة تلقى ـ ولعلها لا تزال ـ كل التأييد العسكرى والسياسى والاقتصادى ؟

لعل التايمز البريطانية ترد على هذا السؤال « الافتراضى » بقولها :

« بدا حتى الأمس القريب كما لو كانت اقبح صورة فى اذهان العرب هى صورة العم ســام ، وانه فى نظـر العواصم العربيـة ينغمس فى تخريب المسيرة العربية نحـو التقـدم . وخلف كل مؤامرة كان يكمن العم سام . وكان الدولار هو سلاحه المميت .. واسرائيل خادمه المخلص . غير ان ذلك يبدو وقد تغير الآن . « فالسلام الامريكى » أعاد الولايات المتحـدة مرة اخرى لنفس العواصم التى كانت على خلاف معها عبر الحقبتين الماضيين » .

وتضيف التايمز فى مقال تال قولها : « ومنشا هذا التغيير يكمن فى ازمة الطاقة وحرب اكتوبر . فقد أدى نقص البترول الى ان تدرك واشنطن مدى الحاجة الملحة الى الحفاظ على ود العـرب . وكشـفت حـرب اكتوبر ـ وسقـوط نظـرية الامن الاسرائيلية ـ عن مـدى الضغـط القائم فى الشرق الأوسـط . ولعلها زادت ، بدرجة كبيرة فى الوقت نفســه ، من قوة الضغط الامريكى على السياسة الاسرائيلية » .

ولضع « لومانتيه الفرنسية » النقط على الحروف بقولهـا « لقد وصل نيكسون الى القاهرة فى أعقاب فشـل آخر محاولات تثبيت النظام أو التحالف الامريكى الاسرائيلى . وأظهرت حـرب أكتوبر ان الجندى الاسرائيلى لم يعد ذلك الذى لا يمكن قهره . وبغير شك فان هذا الانتصـار الذى حققته مصر على آلة الحرب الأمريكية الضخمـة التى استخـدمت فى الشرق الاوســط هو ما كانت تحتفل به الجماهير المصرية وهى تستقبـل نيكسون . لقد انتهى الزمن الذى كان وزير الخـارجية الامـريكية فوستر

دالاس يهين فيه مصر لانها رفضت الدخـول فى حلف عسكرى امريكى . واليوم فان نيكســون هــو الذى يأتى لزيارة عاصمة شعب لم يخضــع للضربات العنيفــة التى وجهتهــا له الولايات المتحدة » .

ولست أخفى سعادتى بأن ثمة « تحولا ملحوظا » قد طرأ على الموقف الرسمى الامريكى حيــال قضية الشرق الأوسط اقــر ــ ولأول مرة ــ ضرورة الانسحــاب الاسرائيلى الكامل من جميع الأراضى العــربية المحتلة ، كما أقر المصــالح المشروعة للشعب الفلسطينى

ونحن لا نرغب فى معــاداة أحــد . لا دولة كبرى ولا دولة صغرى . بل الأمر على العكس تماما . واذا كانت الدولة الكبرى التى تمد يدها ببداية صداقة جــديدة وبسلام جــديد .. هى أمريكا بالذات ــ وتاريخها القديم فى مساندة العدوان الاسرائيلى معروف ــ فان السعادة ــ بمتغيرات أكتوبر وبجهود الســادات الشخصية فى ذلك السبيل ــ تتضاعف .

وغنى عن البيان اننا نملك مع القلب المفتــوح .. العيــون المفتوحة !

ولربما داعبنى أحد الأصدقاء وكان يعلم اننى ســوف التقى بالرئيس نيكسون فى مأدبة العشاء ليلة وصوله وأصافحه فقال لى : اعتقد أن نيكســون سيتوقف لدى مصافحتك ويســألك : هو أنت ؟ !

ذلك أن الصديق كان يشــير الى ما كتبته عن نيكسون فى رسالة مفتوحة « حامية » ثم فى مسرحية « ساخرة » ، وذلك قبيل اكتوبر بشهــور عنــدما كان يتصــاعد الصلف الاسرائيلى ويتصاعد معه التأييد و « التجميد » الامريكى ويوزع « الفيتو »

لصالح تل أبيب كما يوزع الأموال لها وأسلحة الدمار بغير حساب . ولم يكن أحد حينئذ بالمنطقة العربية ـ ابتداء من الرئيس السادات الى أصغر مشتغل بالسياسة أو حريص على الوجود العربى والتحرر والكرامة « وأن نكون » ـ الا قد أشبع السياسة الامريكية المنحازة لوما وتقريعا .

وقلت للصديق : لا عليك ! ولا تثريب ، وهو لا يعرفنى طبعا ! واذا كان هذا الذى سوف أصافحه هو شخص آخر غير نيكسون الذى ألفناه من قبل ، فاننى أيضا شخص آخر غير الذى كان من قبل ! أو بالاحرى فان ٦ أكتوبر جاء شيئا آخر .. وفاصلا ! ثم اننا لم نتعود أن نكره شعبا ـ فالشعوب عامة تجمعها الاحساسات الانسانية .. باستثناء الكيان العدوانى لاسرائيل طبعا ـ بل ندين سياسة حكومة هذا البلد أو ذاك .. وحكامه اذا جاروا على الحق والعدالة والامن الدولى ! نحن نحضن السلام فى ضمير الشعوب ، ولكنا لا نرتمى فى أحضان سياسة دولة أو حكومة أجنبية حتى لو كانت صديقة تؤيدنا . نقدرها نعم . نبادلها التضامن . نشكرها ونحفظ لها الود .. ولكن ذلك كله من موقع حرصنا على استقلالنا ومصريتنا وعروبتنا ودورنا الايجابى فى المجتمع الدولى .

ولأننا منطقيون مع أنفسنا وطبيعيون أيضا فى مشاعرنا ولا نخفيها عادة ، فليس غريبا أن يكون جانب من هذه الآراء قلته وقاله لى كذلك عدد كبير من دبلوماسيى الغرب والشرق وصحفييهما الذين التقيت بهم .

ولسنا نريد المغالاة فيما أحرزنا من كسب سياسى على طريق السلام ، وان يكن ملحوظا . ذلك أن امريكا لن تتحول بين يوم وليلة أو سنة واثنتين عن مساندة اسرائيل بصورة أو بأخرى . غير انه فيما يلوح لنا أن ثمة اتجاها لدى القيادة الحالية للولايات

المتحدة الأمريكية نحو انتهاج « سياسة متوازنة » فى الشرق الأوسط . ما هو التفسير الدقيق للسياسة المتوازنة ؟ هذا ما سوف تكشف عنه المرحلة القادمة ، كما تساعد عليه جهودنا الدبلوماسية .. و .. و « خلى السلاح صاحى » ، أو بمعنى آخر ، ادراكنا أن الحرب ـ كما لا يفتأ السادات يردد ـ لم تنته بعد .

اذن ، فقد جاءت جولة نيكسون فى المنطقة ـ بصفة عامة ـ ناجحة سواء بادراكه وادراك امريكا عن كثب حقيقة مشاعر العرب نحو السلام .. ونحو اسرائيل (ونراجع بكل التقدير خطاب الرئيس السادات الموجه للرئيس نيكسون مساء الأربعاء ١٢ يونيو ١٩٧٤) . كما نجحت الزيارة لأنه لمس على الطبيعة أن مصالح امريكا فى المنطقة لا تحميها اسرائيل ولا امريكا نفسها ، وانما يرشدها (بتشديد الشين) العرب انفسهم .

واذا كان نيكسون قد عقد اتفاقات اقتصادية مختلفة مع مصر وغيرها من الدول العربية ، وعقد أيضا مع اسرائيل اتفاقات واسعة ، فينبغى ان يرى ماذا فعلت اسرائيل العدوانية قبل مغادرته المنطقة ليحكم أن اسرائيل ـ مهما ادعت ـ سوف تبقى اسرائيل المجرمة ! ذلك أنها ـ « واستفتح رابين » .. وخاب كل جبار عنيد ـ قد شنت سلسلة من الغارات الوحشية على جنوب لبنان . ان السلام لن يتوفر له الجو الصحي بمثل هذا « الاستمرار الارهابى الاسرائيلى » .

فهل وضع الرئيس نيكسون هذا الموقف فى اعتباره ، وهو فى طريق عودته الى واشنطن ، وكيف أصرت اسرائيل على ان تعكر ـ كالعادة ـ صفو الامن ، لتكون أسوأ ختام لرحلة نيكسون السلامية التى حاولت جهدها أن تبنى لا ان تهدم ، وأن تنجح لا ان تفشل ؟

السؤال ليس موجها الى نيكسون وحده .. بل الى المجتمع الدولي كله ، الذى اكاد اراه يؤمن اكثر من أى وقت مضى بانه لن يستقر ـ أى المجتمع الدولي ـ الا باستئصال « الكيان العدوانى» من اسرائيل !

وليس أصدق ولا احسم من قول السادات فى هذا المجال: « ليس هناك طريق آخر يؤدى الى سلام دائم بغير حل سياسي للمشكلة الفلسطينية . وليس معنى هذا ـ كما يدعى الاسرائيليون لتبرير مخططاتهم التوسعية ـ تصفية اسرائيل . فالتاريخ يشهد بأن اليهود قد عاشوا تحت سقف واحد مع الفلسطينيين من مسيحيين ، ومسلمين ، وفضلا عن ذلك فان التاريخ يظهر بما لا يدع مجالا للشك أن اليهود عاشوا قرونا طويلة فى ظل الحكم العربي دون اى تفرقة او تمييز سواء فى الشرق الأوسط او افريقيا أو اوروبا » .

« فاهمين » ؟! هذا هو حكم التاريخ .. ماضيه ومستقبله بمشيئة الله .

● ● ● ●

والحق اننا كلما حاولنا طرق موضوع قضية داخلية لا نلبث أن نعود فنتحسس « الدرع » ، ونسرع « المطرقة » فوق رأس اسرائيل ردا على مطارقها . والقول هنا لا يتناول « الكتابة » فحسب ، فربما كانت هى أهون المسائل . المهم هو الجهد والعمل والمال والجماهير .. والوقت . ويا للوقت ! فانه وقت طويل حقا ، عمره ٢٦ سنة وزيادة . غير ان هذا هو الهدف الرئيسى من اصطناع اسرائيل فى المنطقة . هو الغاية العدوانية المباشرة وغير المباشرة من اقامة الصهيونية والاستعمار « لصاحبة السفالة » .. اسرائيل : أن تشغلنا . ان تفرقنا . أن تعرقل نمونا ونهضتنا . أن تضرب ثورتنا وحرياتنا السياسية والاجتماعية . أن تستنزف أموالنا

وطاقتنا . ان تحول دون توسيع رقعتنا الزراعية ، وتصنيع بلادنا .. بل تحاول القضاء علينا لحسابها وحساب أسيادها . ولقد دفعنا ثمنا غاليا ولا نزال . غير اننا - على اى حال - لم نمكنها من أن تحقق مراميها كاملة . ولن نمكنها أبدا - وقد عرفنا الطريق الى « مفتلها » فى ٦ اكتوبر - من أن تحقق شيئا فى المستقبل . العكس هو الذى سيكون بمشيئة الله . ستذوق وبال أمرها . ستعود الى حجمها الحقيقى : « لا شىء » .. تقريبا !

لقد قصدت اسرائيل أن يكون فى الساعات الاخيرة لزيارة نيكسون « ختام درامى اجرامى » اقترفته هذه الملعونة واستمر العدوان على جنوب لبنان . ومع هذا لا خوف من جانب الفدائيين ولا احجام . جرت العملية الفدائية الرابعة خلال ثلاثة أشهر فى قلب اسرائيل .. أو بالاحرى « فلسطين المحتلة » . شباب فلسطينيون رائعون مشوقون لبلدهم الذى سلب منهم واغتصب فى أبشع جريمة فى القرن العشرين . واشهد أن « ظفرهم » .. هو بكل قض اسرائيل وقضيضها . وددت لو كنت فى عمرهم وفى رفقتهم . وأقسم اننى لأتمنى على الله لو كنت استشهد فى عملية فدائية مشروعة كهذه ، وأبعث من جديد ثم أستشهد .. وهكذا الف مرة ، أو مائة الف مرة ، حتى تثوب اسرائيل - ومن وراءها - الى رشدها .. اذا ثابت !

ولقد كتب السادات الى فرنجية يبلغه أن مصر مستعدة لتقديم العتاد والرجال للدفاع عن لبنان ضد الاعتداءات الاسرائيلية .. ودعت الجامعة العربية الى اتخاذ موقف موحد لمساندة لبنان والفلسطينيين . وفى رأيى أن الحل لا يكمن فى وضع قوات طوارىء دولية « على الحدود » جنوب لبنان . انما يحسم الموقف

أن يسلح جنوب لبنان ومعسكرات « اللاجئين الفلسطينيين » هناك بشتى أنواع الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات ، وأن يزودوا بالمدفعية والدبابات والنيران التى تجعل فلول « المؤسسةالعسكرية الاسرائيلية» المنهارة تفكر مائة مرة قبلأن تقدم على عدوان جديد. فاذا اعتدت ، ووجهت « وحرمت » ، وضربتوتضاءلت ، وتساقطت من الداخل أكثر وأكثر . ولا هوادة .. ولا رحمة مع اسرائيل التى لم ترحمنا هذه السنوات الغاصبة الطويلة .»

تجربة ساخنة في الصحافة المصرية

قبل وبعد العاشر من رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

« والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك
ربك وما قلى . وللآخـرة خير لك من الأولى .
ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما
فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا
فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا
تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث . »

[صدق الله العظيم]

فيما يروى عن النبى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يأتى زمان على أمتى يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر » .

وهذا صحيح بلا شك .. وصدق رسول الله .

على أنه ـ فيما يبدو .. وكمدخل و « استعارة » ـ صحيح أيضا أن اى قابض على مسئولية غير هينة فى الصحافة هو كالقابض على الجمر !

ولقد ارى ان هذا الكتاب لا يتم فصولا بغير أن أخصص للصحافة قبل العاشر من رمضان وبعده بابا .. وان كان اشبه بالباب الذى تهب منه الريح !

هو اذن « امعان » فى القبض على الجمر !

والقطـاع الذى أعرض له ليس بالتأكيـد « كل الصحافة المصرية » .

كما أن « الشريحة » التى أركز عليها فى هذا القطاع بسلبياتها لا تعنى ان السلبيات أساس فى القطاع . بالعكس وبغير تبسيط أو تجميل أو مجاملة ومداهنة ، فانالايجابيات حتى فى القطاعالذى أتناوله موفورة وغالبة ، والا ما قام واستمر ! غير ان السلبيات ـ عادة ـ تحاول أن تؤثر . أن تلتهب . أن تنتهب . ومن الغريب أنها فى وقت واحد : تعمل فى الخفاء ، و « تجعجع » وترفع عقيرتها بشتى السبل والطلقات بأملأن تصيب ولو بطلقة واحدة ! ومن الغريب كذلك : أن جزئيات هذه السلبيات يكره بعضها بعضا ، و « يكشفه » ويحتقره ، ولكنها « تتماسـك » ابتغـاء الطوفان وتتحالف ! وهى لا تجمعها المبادىء عادة ـ وان حاولت أن ترتدى قناعها مهما يكن مشوها ـ وانما « تولفها المطامع » .. وفى تعبير أخف « المصالح » !

ومن أسرع الصيحات وألحها و « أرذلها » على ألسنتها بمناسبة وبدون مناسبة .. وبافتعال واضح مفضوح دائمـا هى صيحتها التقليدية : امسك .. « شيوعى » !

غير أننى أروض نفسى ، ومنذ أمد بعيد جدا ، على دعاء عظيم مثالى جليـل للنبى الكـريم : « ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

لا أبالى بما يقولون ، والفضلُ والحمدُ لله .

ولطالما تصوروا انهم « نكبوا بى » ! ولكم كان شخصى الضعيف « قذى فى عيونهم » ! ولكن ما حيلتى ..؟ لست عقبة فى طريق احد . غاية الأمر أننى أقف على قدمى متيما بحب مصر ، وأمضى شديد التعلق بها !

لقد ولدت ابن هذه البلدة الطيبة العزيزة وعشت ، ولسوف أموت راضيا فى كنف كبريائها الوطنى .

وفى ظنى اننى سأروى حكاية ـ أو حكايات ـ لا ينقصها كثير من الصراحة قد يكون عنوانها « المستنفع .. ومواجهة المستنقع » أو « مخاطر السير فى الغابة » أو « التجربة الساخنة »
ولكن السؤال هو : لماذا أتعرض لها فى هذا الكتاب بالذات ؟!

وفيما أرى أن ثمة ثلاثة أسباب رئيسية ربما تدعو الى ذلك :
أولا ـ انها « خلفية » واقعية ـ كمثال له أشباه عديدة ـ « لاصطخاب » الحياة المصرية فى الجبهة الداخلية والتى تؤكد جلال الانجازات التى حققتها معركة العاشر من رمضان برغم ما سبقها من صعاب وبرغم كل شىء ، وانها لتضفى بذلك على قرار المعركة وصاحب قرار المعركة ومتخذى قرار المعركة البواسل عظمة التجرد فى حب مصر والتبتل لها ، والتعالى عن صغار الأمور ، والاهتمام والاحتشاد للب المسائل . فاذا جاء « العيد » بعد ذلك ـ وقد جاء .. وسوف يمتد بمشيئة الله ويكبر ـ فانما هو منتزع فى ظل ظروف بالغة الصعوبة .

ان « العبور » كان « من الداخل » أولا قبل أن يكون عبورا للقناة وفوق محنة الهزيمة العسكرية . أن « المحصلة » التى أمسك بها الرئيس السادات واستطاع أن يجتاز « بالوحدة الوطنية » ـ التى أرهقته ـ صعابا كثيرة نجحت وفرضت نفسها وأثبتت مبدأ انه « لايصح الا الصحيح » . ان النجاح فى تحطيم أسطورة الجيش الاسرائيلى « الذى لايقهر » قد سبقه عمل دائب فى « ترشيد » الارادة الوطنية . كذلك قد أعقبه نجاح آخر فى مواجهة المزايدات والمناقصات والتطلعات والالتواءات .

ولربما لاح الاستطراد المتقدم ـ فى هذا الصدد .. لدى « الهائجين » المتحفزين ـ كأنه « تعمل » أو « ركوب موجة » !

واشهد الله أننى لا أفتعل شيئا بل انطلق على سجيتى ، كما لاأعرف ـ ولم امارس .. ولم أرد ابدا ـ ركوب الموجات ! قد أخطىء التعبير أو اسىء التشبيه ـ جائز .. وعفوا ـ ولكننى لا اسىء القصد ولا أطمع ان اكون « فى الصورة » ! ذلك اننى لم ابغ ـ ولن ابغى ما حييت ـ أى نوع من أنواع السلطة ولا طمعت فى جاه أو مال او شهرة !

الحديث « محرج » و « ثقيل » لأنه « شخصى » . ولست ملاكا ، كما لا أحسبنى ـ مهما يبد من ظاهر الحديث هنا ـ « نرجسيا » !

ثانيا ـ أنها تسجيل لتجربة قد أرى ـ وقد يرى بعض المهتمين بتجميع « الظواهر » والبواطن وتحليلها فى مراحل تاريخ الحياة السياسية والصحفية فى مصر ـ انها قد تفيد .

ولماذا نداريها أو نخفيها ؟ هل تبقى فى الصدور ؟ هل تمضى مجرد أحاديث مجالس وحجرات مغلقة ؟ ولصالح من تجهض ؟ واذا لم يتصد للكتابة عنها بعض الذين عاشوها ، فمن الذى يتصدى اذن ؟ وكيف نتعلم من تجاربنا اذن ؟ ولماذا لا « تكشف » التيارات والنزوات والشلل وما دبر بالليل والنهار حتى لا يتكرر ما حدث وما يراد بالحاح غير مفهوم أن يحدث ؟ لماذا لا نتكلم .. وبأدب نسبى ومحسوب ؟ الشرفاء .. الوطنيون : الكل يتحدث عن الشرف وعن الوطنية ، فأين الحقيقة بقدر المستطاع وبقدر ما نفهمها ؟

ولا مندوحة ولا خيار : كيف أتحدث عن هذه التجربة بغير ضمير المتكلم ، اذا كنت شخصيا قد عشت فى قلب التجربة ، ومن واقعها اكتب ما شاهدت وما لاحظت وما عانيت أشد المعاناة وتحملت بصبر طويل ؟ !

اذكر عبارة كان شقيقى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى

يرددها عندما يعرض أحد لحديث التجارب . كان يقول : ان الكتاب المشروع الذى يحق لأى انسان ان يصدره هو الكتاب الذى يضع فيه تجاربه وذكرياته ومذكراته !

ولست أدعى انها وافيـة ، ولا ازعم أننى مع جانب كبير من المصارحة مفصح عن كل ما عندى . واضيف أنها فى النهاية تحمل وجهة نظر ، وقد تتعدد وجهات النظر وفقا للزوايا و « المواقع » . غير أن « الوقائع المادية » ثابتة لا خلاف عليها ولا تزيين فيها ولا كذب . والشهود العدول أحياء يرزقون ! الخلاف قد ينشأ حول سردها : أهو كلمة شجاعة ؟ أهو « مجازفة » ؟ أهو سابق لأوانه ؟ أهو ما لا يصح ؟! ومن جملة هذه الأسئلة ومـع تقديس حـرية الكلمة ومراعاة « الحساسيات » معا ، أسجل التجربة فى هدوء فى صفحات كتاب وليس على أعمدة الصحف .

ولقد يرى من يرى أنه لا فارق بين أن ينشر ما ينشر فى كتاب او فى صحيفة فهو فى النهاية سوف يعرف ولو فى نطاق محدود ، وبالتالى يستوى الامران . وربمـا كان هـذا صـحيحا . غير أن « الخيط الرفيع » الفاصل هو أنه فى الكتاب يبـدو أقرب الى العرض الموضوعى ، وفى الصحيفـة قد يتهـم بأنه « حملة » . وأشهد ربى أننى لا اشن حملة حتى لو كنت قد نشرت ما اكتبه الآن فى أوسع الصحف انتشارا وفى كافة وسائل الاعلام ، وهو ما لم أفعله . « الموضوعية » حلمى ورائدى . أما « الحملات » فهى ما تعرضت لى ، وليس ما أعرض له !

ثالثا ـ انها بالتالى ـ وبالاشارة الى ما جاء فى « ثانيا » ـ اشبه بمذكرة « تفسيرية » لبعض ما جاء فى كتابى « كلام عنا وعن اسرائيل » وفى هذا الكتاب ايضا .

واذا كنت قد رأيت « برهان ربى » واقول ـ بسجود خاشع حامد لله ـ و « نصرته » أيضا ، فى حين كانت « الطعنات » التى

صنعتها أحقاد ــ عفا الله عنها ــ تحيط بي وتبيت بليل أو بليال متصلة ، واذا كنت قد شهدت العيد العام ــ الذى له المحل الأوفى من الاهمية ــ بعد العاشر من رمضان وأعنى أشد العناية بما سوف يجىء بعده من أعياد مصرية حرة مزدهرة ، فانني قد شهدت أيضا « عيدا خاصا متواضعا » بعد العاشر من رمضان .. وان كان قد تراخي شهورا . أما وقد شهدته ورأيت ، كما قدمت ، برهان ربى مرة ، فلست والله أهتم ــ من الناحية الشخصية الخاصة ــ بما سوف يجىء بعده لو كرر « المتنمرون » هجماتهم المغيظة الوحشية .. حتى لو أطلقوا الرصاص ، واستقرت واحده فى أعماقى . يكفى أننى أموت مرتاح الضمير .. وقد رأيت برهان العزيز الحكيم ــ كانه ليلة القدر ــ مرة واحدة فى عمرى . ومن أكون فى سلسلة عظيمة متصلة من الشهداء الابرار ؟

أعرف أن هذا كلام لايعجب المتنمرين المتآمرين . وقد « يفرسهم » أو قد « يستخفون » به . وقد يعلقون : انظروا الى هذا المدعى « النرجسى » المنافق الذى يتجر فى الكلام ، والذى يحاول أن يبدو فى أعين الناس « متساميا » أو « تقيا » أو « مستضعفا » أو « مستشهدا » ، وهو كذا وكيت ! لا تعليق الا أن اقول ما قاله عز وجل . « .. ان الله عليم بذات الصدور » .

● من أين نبدأ ؟ ؟ ●

الحقّ أننى لست أعرف بالضبط كيف أبدا هذه الدراسة اذا جاز أن تسمى كذلك ؟! من اى تاريخ .

ربما كان من المناسب الا أوغل فى أعماق تاريخ الثورة وعلاقتها بالصحافة وعلاقة الاخيرة بها . فقد أجدنى محتاجا الى حديث بالغ الطول يستغرق مجلدا ضخما ، ولا أظننى وحدى قادرا عليه

أو مؤهلا له . وقد استطرد ـ مثلا ـ فى الحديث بفصل مفرق الطول عن مجلة التحرير التى كان لى حظ المشاركه فى تأسيسها وفى العمل الصحفى والادارى بها وفى كتابة الموضوعات والمقالات والاشعار فيها منذ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ .. أى بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأقل من شهرين ، اذ تشرفت بالعمل فيها مع انور السادات فى حين كان بعض « الصحفيين الاماجد العباقرة » الدين « يتمسحون » فى الثورة وفى أنور السادات الآن ـ وينكرون أو يستكثرون على شخصى وعلى غيرى .. حتى حق مسئولية العمل الصحفى ـ أما يرتدون « البنطلونات القصيرة » ، و « يفزقزون اللب » و « السودانى » ، او يقضون الليل بين الكأس والاجساد والوجوه الحسان ، أو يتباكون فى سهراتهم على « الايام السعيدة » التى خلت وانفضت ، والتى كانوا يصرفون فيها بمآثر الفاروق وكل حاكم ، أو يفيضون المصروفات السرية ، أو يتسارون ويتشاورون مع « المباحث » ، أو يعملون لحساب الاقطاعيين والرأسماليين .

فلنؤجل تناول هذه المرحلة الطويلة بايجابياتها وسلبياتها .

ولنقصر الحديث على فترة حديثة بالغة الاهمية .. هى التى نعيشها الآن والتى بدأت منذ حركة التصحيح فى ١٤ ، ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والتى قادها بشجاعة وايمان ملحوظين الرئيس انور السادات .

ولعل مرجع هذا التفضيل أنها فترة عشتها بالكامل ، وكنت فيها ـ على الاقل ـ « شاهد تاريخ » مباشرا .

لقد اختارنى الرئيس أنور السادات ـ مشكورا أخلص الشكر ـ بعد حركة التصحيح بثلاثة أيام لتولى مسئولية غير يسيرة فى العمل الصحفى : رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير ورئيسا لتحرير الجمهورية .

وأعتقد ـ والله أعـلم بالسرائر ـ انني لم اخن الامـانة بفضل الله ، وذلك حبا فى مصر وفى شعب مصر وفى الثـورة رفى السـادات ».

وأعتقد ـ ولا فخر .. بلْ هو عناء حقيقى وجدت فيه متعـة تستحق كل تضحية ـ انني واحد من قلة فى الصحافة المصرية خلال السنوات الثـلاث الماضـية قد حملوا وقد تحملوا ما حملته وما تحملته . سواء فى العمل الدائب بدمى وأعصابى وفكرى وقلمى ويدى ليلا ونهارا بغير انقطاع ، وفى الصغيرة وفى الكبيرة . كثير من الامور .. من الخط السياسى .. من الموضوعات .. للمقالات .. للمانشـيت .. للأخبار .. للافكار .. للتوجيه .. للمراجعة .. للمشاركة فى أفكار الكاريكاتير وفى التصحيح .. للعمل الادارى الضاغط .. لمحاولة حل مشكلات من أعمل معهـم جميعا وافتح لهم قلبى قبل بابى ..

ولا يرجع ذلك الى « حب التكويش » أو المبالغة فى « الاحساس بالذات والمقدرة » . أبدا .. المسألة ببسـاطة : أن « الظروف » اقتضت ذلك وكان ذلك هو « قدرى » فى العمـل الصحفى ظنـا منه أو منى أن الامر بذلك يكون اكثر احكاما وانضبـاطا ، كما أن « عشم » القاعدة التى أعمل معها والتى « أخذت على » وعرفتنى وربما أنست الى .. جعلها تظن أننى « الاخ الروحى » . وليتنى كنت أملك أو كانت المسـائل اسخى واوفق .

وعندما أقول أننى حاولت اجادة أداء رسـالتى حبـا فى مصر والسـادات وولاء لهما ، فلست أصدر فى هـذا عن نفاق . فوالله الذى لا اله غيره أننى عاهدت نفسى الا أنافق أحداً ، وربما كان سر « تعبى » خلال السنين الأخيرة أننى تعودت أن أكون بالغ الوضوح والمصارحة ، والتزمت هذه القاعدة فى الحدود التى أراها معقولة وواجبة .»

وكالعادة ، عندما يأتى « قادم جديد » مهما يكن وجها مألوفا وغير غريب على من قدم عليهم ، بل مهما يكن يعرف ـ بالاسم ـ غالبية من عاد اليهم ، فان « الشـكايات » من « العهـد الماضى » تكاد تخرق « طبلة أذنه » كما تكاد تغرقه فى سيل من الطلبـات والتظلمات !

وكل هذا قد يكون أمرا طبيعيا ، وبشريا ، و « مفلسفا » .. اى يؤخذ بالحكمة وسعة الافق وسعة الصدور !

غير ان الجانب الآخر من الصورة ، والذى يمثله بعض المثقفين واشـباه المثقفين وانصـاف المثقفين هو ما يسـمى « محـاولة الاحتواء » !

وهنا تكون أوجب : الحكمة والبصيرة ، وتحديد الهـدف فى هدوء وفى حسم معا ، والانفتاح على الجميع دون الميل مع الهوى أو التأثر بالكلمات المعسولة أو الشعارات الكبيرة المصنوعة !

ببسـاطة : نحن نبدأ من جـديد .. ومصر والعمـل الوطنى والصحافة محتاجة للجميع دون ايثار احد على أحد ، ودون تأثر بوشايات أو روايات لا تقوم على أساس .

وتمتد اليد لكل من يستطيع ان يؤدى واجبه .. على مشقة اطلاق امتداد اليد ، وعلى صعوبة الحصول على نتاج خالص لاداء واجب يبتغى وجه الله والوطن لا غير .

ولم يخلق بعد الذى يستطيع ان يرضى الخلق جميعا .

ولم نصل بعد الى « معجزة » تطهير الأنفس أو الخلاص من نظرية « اللى فى القلب .. فى القلب » !

● اليمــين واليســار ●

وعلى الفور .. أو بعد قليل : يبــدو أن ظاهر المسألة يأخذ شكل « اليمين واليسار » .

وأقول « ظاهر المســألة » لأنها ليست على اطلاقها يمينا ويسارا !

والحكاية وما فيها انها تنازع تيارين : تيار «رجعى» متعفن ، وتيار « تقدمى » نستطيع أن نصفه أيضا بأن « قلبه واجعه » على البلد .

أما موضوع « اليسارية » فحقيقة الامر انه ينبغى الا يكون ثمة نزاع حوله .

فمصر العريقة العظيمة أم الحضارات والمتطورة لا خيار أمامها الا أن تكون ـ فى ظروفها كأمة نامية ـ دولة يسارية .

والثورة تنادى بذلك . مواثيقها كلها تؤكد اليسارية . حتى المبادىء الستة التى بدأت بهــا فى ٢٣ يوليــو ١٩٥٢ فيهــا كل المضامين اليسارية موجزة ، فما بالنا بالميثاق الوطنى بعد عام من القرارات الاشتراكية التى صدرت فى يوليو ١٩٦١ ، ثم بيان ٣٠ مــارس ١٩٦٨ ، ثم برنامج العمــل الوطنى ١٩٧١ ، ثم ورقــة أكتوبر : وكلها تقول بأن مصر دولة اشتراكية .. أى يسارية ؟! بل ان دستور مصر ١٩٧٢ ـ وهو أبو القوانين ـ ينص على الاشتراكية واليســارية . والســادات بحكم تكوينه وثوريته ومسئوليــاته والمواثيق التى كتبها وأصدرها قائد يسارى بالتأكيد . والتنظيم السياسى الوحيد فى مصر اسمه الاتحاد الاشتراكى العربى .

ومع هذا فهناك من يصابون « بالارتكاريا » من مجرد ذكر كلمة الاشتراكية او اليسارية !

أعود فأقول أن القضية ليست قضية يمين ويسار ووسط .. وقوائم مطلوب أن يسجل كل راغب فيها اسمه واختياراته « على الكيف » ! ولست أعنى أو أستهدف مصادرة على حرية الرأى . ولكن المسألة هى ان نعرف اولا من نحن وما ظروفنا وما نريد ، كما نعرف بوضوح أن « قضية التقدمية » ليست هزارا أو لعبا بالالفاظ من ناحية ، وليست مجالا « للتريقة » و « التشكيك » و « الاستعداء » من ناحية أخرى ! هى علم وثقافة . وهى واقعية وتطور تاريخ ، وهى فى النهاية لصالح الجماهير العريضة .. لصالح المجتمع .

فبين النافرين من الاشتراكية من هم « معقدون » من الشيوعية ـ وربما هم معذورون ـ وبالتالى يعتبرون انفسهم من « اليمين » ، ولكنهم وطنيون من الطراز الاول . بل تقدميون من حيث يدرون أو لا يدرون !

هذه ـ بالطبع ـ فئة ممن اصطلح على تسميتهم باليمين فى السياسة المصرية والصحافة المصرية ، وليست الكل . فهناك قطاعات منهم تلوثوا بحب زمان وأيام زمان و « عز الرأسمالية » ـ حتى لو كانوا من خدمها ! ـ و « أحلام الحياة الامريكية » التى هى ـ فى رأيى ـ لا تناسبنا على سبيل القطع .

وبين المنتسبين الى اليسار من هم متعصبون جامدون يرون فى الاتحاد السوفييتى المثل الاعلى الذى لا يبارى والذى قد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. أو « يبلعون له الزلط » ! ومنهم من يؤمن « بالماركسية » كمذهب وان كانوا لا يقرون موقفها من الدين الذى تعتبره « أفيون الشعب » فهم يستوعبون « المادية الجدلية » من جانب ويؤدون صلواتهم وشعائرهم الدينية كاملة من جانب آخر . ومنهم من لا تعنيهم الماركسية كثيرا ولا النظريات ، ولكنهم يؤمنون بحتمية الحل

الاشتراكى فى مصر مهما قيل ان الاشتراكية لا تتجزأ ، ومهما قيل انه لا توجد اشتراكية أوربية واشتراكية عربية بل هى اشتراكية واحدة . وهؤلاء غالبية اليساريين ابتداء من رجل الشارع والحقل الى طالب العلم الى المثقف المخضرم ! بل انك لتجدهم وهم الحريصون على الجانب الروحى الذى يمتاز به الشرق العربى ومصر على وجه الخصوص ، يرون فى صميم الدين الاسلامى الحنيف - مثلا - اشتراكية لا نظير لها يمكن ان « تقنن » ، ويكفى احاديث من قبيل « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » أو « ليس منا من يبيت شبعان وجاره جائع » الخ ..

وعودة الى « ظاهر » اليمين واليسار .

ومن الغريب - أو قد لا يكون غريبا - انك تجد بين المحسوبين على اليمين من صنعتهم العمالة لأجهزة المباحث والمخابرات فى مختلف العهود . وفى الوقت نفسه - ومن الغريب أيضا - أنك تجد بين المحسوبين على اليسار من صنعتهم كذلك العمالة لنفس الاجهزة !

ماذا يعنى ذلك .. على كراهيتى الشخصية لكلمة « العمالة » وندرة استخدامى لها سواء لحساب سلطات مصرية أو سلطات اجنبية من باب أولى ؟ !

فى كلمتين : أن الموضوع ليس عندهم « يمينا ويسارا » بل هو « مصالح » و « أطماع » و « مداهنة » ورغبة فى التوسل بالسلطة للتوصل للسلطة !

واذا كنت أنفر من كلمة « العمالة » لأنها تعبير قاس أشبه بشن سيوف المهاترة التى لا تلائم طبيعتى ، فاننى انفر كذلك من اجهزة المباحث والمخابرات .. مع تسليمى بأن المفروض أن مهمتها ينبغى أن تكون « وطنية » لحماية الدولة .. اذا سلمت نيات القائمين عليها صغارا وكبارا . وأقول المفروض لان التجربة

اثبتت ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن هذه الاجهزة فى الستينات وحتى نكسة يونيو ١٩٦٧ وهزيمته كانت تعمل لحسابها الخاص ولشهواتها الشخصية ، بل انها كانت أحد الاسباب الرئيسية التى أدت الى الهزيمة !

فهل « أعذر » فى نفورى المتأصل من هذه الاجهزه .. وان كنت فى أعماقى أتمنى لها السداد والاستقامة ، والبعد عن الهوى والصغائر ؟

● مبنى المخابرات المهيب ●

انني لا أذكر اننى دخلت مبنى المخابرات العامة « المهيب » الا مرتين فى حياتى

الاولى : فى سنة ١٩٥٩ ـ وكنت لا أعرف أين يقع وبالتالى لم اره من قبل قط ـ وكانت بمناسبة « اعتقال » واحد ممن يمتون لى بصلة النسب . وكانت التهمة الموجهة له انه تلفظ ببعض كلمات اعتبرت « جارحة » فى أحد اصدقاء أولى الامر كان قد مات فجأة . وبمجرد كتابة مذكرة صغيرة « بالحادث » ـ حادث « الدردشة » لا الوفاة ـ كانت « التأشيرة » التى تعتبر واحدة من أغرب التأشيرات فى العالم لان تسلسلها غير منطقى اطلاقا ، ولكنها ـ على العموم ـ نموذج لما كانت تسير عليه الامور ومنذ امد بعيد الى أن « شفى غليله وغليلنا » الرئيس السادات وأنهى والى الابد أساليب الاعتقالات وامتهان القانون . التأشيرة كانت كما يلى : « يعتقل ويفصل من عمله ويحقق معه ! » . هكذا .. « الحكم » والادانة والتنفيذ « قبل المداولة » بل قبل المحاكمة او التحقيق !.

وذهبت الى المخابرات العامة وتهت فى دهاليزها ــ وان كنت فى رفقة حارسين فارعين ــ الى ان وصلت الى مكتب صلاح نصر مدير المخابرات كى اتشفع للنسيب المعتقل . وكنت قد التقيت بصلاح نصر مرة أو اثنتين فى بداية الثورة عندما كان قائدا للكتيبة ١٣ التى أدت دورا هاما فى تأمين التحركات ليلة ٢٣ يوليو ٥٢ .

ومن الطبيعى اننى كنت أشبه بمن يقوم بعمل انتحارى ضاربا رأسه فى الحائط بلا جدوى ! وكان الكسب الوحيد هو اننى استطعت الخروج « بالسلامة » من مبنى المخابرات !

ولم أجد بدا من « توسيط » المرحوم صلاح سالم ــ الذى كان يرأس مؤسسة دار التحرير فى ذلك الحين ــ لدى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر شخصيا . ونجحت الشفاعة ، وكأنها احدى المعجزات ، فقد أطلق سراح المعتقل خلال اسبوع واحد وعاد الى عمله .. وبغير تحقيق ، وكأن شيئا لم يكن ! وصحيح أن كل شىء ينسى بعد حين .. ولكن « النسيب العزيز » لم ينس ــ وقبل مضى عشر سنوات على الحادث المذكور ــ أن يبلغ عنى «المخابرات» بدعوى لا صدق فيها ولا أصل تقول اننى اعتديت على «ممتلكاته» ، مع أن الامر لا يعدو اننى ــ بحكم قضائى ــ « أعدت » لأصحاب هذه الممتلكات ممتلكاتهم التى كان يضع يده عليها بغير حق ! وضحكت من المفارقات ومن سحرية الاقدار ، وصفحت ، ذلك اننى عشت حياتى أحتج على أن ينسب للرسول الكريم عليه السلام القول المأثور المعن فى الزراية بالقيم الانسانية : « اتق شر من أحسنت اليه » . فهو لم يرو عن النبى ابدا وبالتالى ليس حديثا شريفا ، وانما الاولى أن نتبع فى هذا الصدد الحكمة المصرية النبيلة «اعمل خير وارميه فى البحر » .

والثانية : فى أواخر سنة ١٩٦٦ وكان « على صبرى » قد رؤى ان يشرف على دار التحرير وجريدة الجمهورية . وكنت فى

ذلك الحين مفوضا على رياسة مجلس ادارة دار التحرير ورئيسا لتحرير الجمهورية . وارتأى « على صبرى » ـ بسبب مجهول أو معلوم ـ أننى لا أصلح للتعامل معه ، فاستصدر قرارا بابعادى وتعيينى رئيسا لمجلس ادارة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر . وقبلت الابعاد ولكننى ناقشت المنصب المعروض ، واستطعت أن « أغيره » ، فأصدر المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر قرارا كريما لى بأن أعود الى مؤسسة دار الهلال عضوا منتدبا لها « وبدرجة رئيس مجلس ادارة » ، وذلك بناء على ما طلبته من ان أعود الى نفس المكان الذى كنت اشغله قبل نقلى من دار الهلال الى دار التحرير فى مايو ١٩٦٥ . وكان الصديق الأعز أحمد بهاء الدين الذى كان يراس مجلس ادارة دار الهلال منذ سنة ١٩٦٤ قد يسَّر استصدار هذا القرار ـ باقباله ومودته الصافية الحصيفة ـ لأعمل معه مرة أخرى .

وفجأة وفى نوفمبر ١٩٦٦ بعد عودتى الى دار الهلال بأسبوعين طلبتنى المخابرات العامة . وقلت : يا حفيظ . وذهبت اليها ـ للمرة الثانية والاخيرة ـ لألتقى بواحد من العاملين فيها ينهى الى أننى سوف أسافر خلال ٣٦ ساعة مع أحد الشخصيات الكبيرة فى ذلك الحين الى بلغاريا ورومانيا والمجر ! لماذا ؟ وما علاقتى بالمذكور ؟ وما الذى دعاهم لأن يتذكرونى فجأة وقد انتقلت الى دائرة الظل .. (وان كنت حريصا على البعد عن الاضواء عزوفا عنها حتى فى الاوقات التى يخال فيها من يخال اننى أسبح فى بؤرتها !) .

وسألت : لماذا اختارونى ؟ ولم ألق جوابا شافيا الا أن يقال : أوامر ! .

ولقد شككت منذ البداية فى ان ثمة خطأ قد وقع او التباسا . ولكن الذى لم افهمه هو : لماذا يجيء اخطارى عن طريق المخابرات ؟

وليس الاتحاد الاشتراكي مثلا أو المؤسسة التي أعمل فيها ؟ أو بالأحرى لماذا استدعوني لينبتوني بسمري ! ولم تطل حيرتي . فلم يلبث الموظف الهمام أن أسر الي بما تريده المخابرات مني . قال : نحن في انتظار تقرير واف منك عن الرحلة بعد عودتك ! قلت : يا سيدي ومع احترامي للدوافع الوطنيــــة التي تطلبون التقرير من أجلها ، فليست هذه مهمتي ، ولا أصلح لها ! انني اذا كتبت فانما اكتب للقراء .

على ان الله أراحني من « الأخذ والرد » ، ومن أن أوضع — رسميا — في « القائمة السوداء » ! فسرعان ما تبين أن المقصود بالسفر مع الشخصية الكبيرة هو الدكتور الطبيب مصطفى بهجت — لا العبد الفقير — وذلك ليكون تحت رعايته الصحية ! وكفى الله المؤمنين القتال ..

وربما اكون قد استطردت طويلا في حكايات جانبية — أرجو الا اكون بعدت بها كثيرا عن صلب الموضوع — حين رحت اتحدث عن المخابرات والمباحث ، وكأنما لأمهد بطريقة « بضدها تتميز الاشياء » لما يتردد — وأحيانا يتأكد — في جــو الصحافة عن علاقة بعض الصحفيين بالمخابرات والمباحث عبر سنواتطويلة.وهيدنيا مظلمة حقا . واذا كانت الشائعات التي تحوم حــول البعض من « بعض الصحفيين » هؤلاء ظالمة بالفعل ، واقرب الى « التشنيعات » ، فان آخرين قد «تخصصوا» في كتابة التقارير بانتظام .. وبافتعال .. وبكيد وتشف ! بل ان منهم من سلطوا سيف الارهاب على زملائهم بعلاقتهم بالمخابرات والمباحث ، واستطاعوا حتى أن « ينكـــدوا عيشة » البعض من « مسئولي الصحف » ابتزازا واساءة وفتنـــة حتى أرهبوهم بل أودوا بهم ! وهذه — على ســبيل المثال — قصة معروفة يستطيع ان يكتبها أفضل مني من عاشوها وعانوها ! بنوا « مجدهم » و « رقيهم » بل « تنقلاتهم » على الوقيعـــة وعلى قدرتهم الخارقة في الوصول بالتقارير الى مراكز السلطة ! انهم

ـ بالعربى ـ لا يصلحون الا ان يكونوا « عملاء » لمسئول او لآخر ، وبقدر « انحناءتهم » وبقدر ما يكررون كالببغاوات « حاضر يا فندم .. حاضر يا فلان بك » ، وبقدر ما يكون شغلهم الشاغل « تلميع » « فلان الفلانى » وتسخير المجلة أو الجريدة « لصور » هذا الفرد و « نشاطاته » بمناسبة وبدون مناسبة ، ومراقبة وحجب كل ما يمكن أن ينشر و « يظن » أنه «يمس» من قريب أو بعيد «عصمة» « النجم اللامع » ، بقدر ما يكون هذا شغلهم ـ أو شغل اى عميل مصعد ـ بقدر ما كانت تزداد فيهم الثقة والتصعيد .. للأسف الشديد ! واذا كانت الصحافة « زمان » تقوم على هـذا الاسلوب الرخيص ، فان الدنيا « تنورت » وأصبحت هذه « الملكات العاطلة الباطلة » لا تجوز ولا تجاز ! وأصبح لا يصح الا الصحيح !

● القـــديم والجديد ●

فى يونيو ١٩٧١ وفى أعقاب حركة التصحيح كان من الطبيعى والمنطقى أن تجرى انتخابات جديدة شـــملت مجلس الشـعب ، ووحدات الاتحاد الاشتراكى من القاعدة للقمة ، واللجان النقابية ، وأعضاء مجالس الادارة المنتخبين ، ثم النقابات المهنية ومن بينها نقابة الصحفيين . ومع حل مجالس النقابات المهنية تشكلت لجان مؤقتة لادارتها ولاجراء الانتخابات الجديدة .

وقد عهد الى برياسة اللجنة المؤقتة لنقابة الصحفيين ، وتمت خلال أسابيع قليلة انتخابات لمجلس النقابة اعتبرت واحـدة من الانتخابات « التاريخية » التى جرت حرة واضحة أمام أعين الجميع بغير ضغط ولا محاولات تزييف أو انحياز . وكان عدد المرشحين كبيرا ـ كالعادة ـ سواء لمنصب النقيب أو للعضوية . وكانت تلك هى التجربة الثانية التى أعبرها مع انتخابات النقابة . اما الاولى

فقد جرت فى اغسطس ١٩٦٧ عندما حل مجلس النقابة فى مارس ١٩٦٧ وتشكلت لجنة مؤقتة برئاسة رئيس محكمة استئناف القاهرة وكنت أحد أعضائها . ومدى علمى ، برغم الظروف « الرذلة » والصعبة التى كانت تجتازها بلادنا فى تلك الآونة ، فاننى لم ألمس « ضغطا » مارسه أحد على انتخابات ١٩٦٧ سواء من جانب « السلطة » أو مستشار الاستئناف ولجنته . فتح باب الترشيح على مصراعيه لمن يشاء من الزملاء الصحفيين أن يتقدم . ولم تصادر حرية أحد .

ولكن التجارة بالكلمات هى « أسهل » و « أرخص » أنواع التجارة سواء ممن « تفاخر » بالانتساب الى « اليمين » أم من بعض من حسب على اليسار ــ وربما اليسار المتطرف ــ الذين يعتبرون أنفسهم « زعماء » !

فمن « العينة » الاولى « يستشهد » بعضهم ويطعن ــ بالباطل وبمسخ الوقائع ــ فى انتخابات ٦٧ التى لم يتقدم اليها ، والتى اقتصر المتقدمون اليها على العدد المطلوب للعضوية اما « بالمقاطعة » ، وأما بتجنب الفشل ، أو حتى بتوهم الضرر . وبالتالى فقد نجح من تقدم بالتزكية . وهو نفسه ــ ذلك المكابر مدعى البطولة ــ الذى عاد « ليجرب حظه » فى انتخابات يونيو ٧١ « فيسقط » فى القاع .. لأن الحياة متجددة ، ولأن القديم غير المتطور عفى عليه الزمن « وانكشف » ! ولا يملك الا ان يكظم غيظه ليفجره فى أول مناسبة قادمة : كيف جرت الاقدار أن هذا الذى لم يكن محل رضائه ــ مع كونه لم يسىء اليه ابدا بل تسامح معه وأكرمه وأفسح له مجالات العمل ــ أقول كيف يكون هذا الذى لا يرضى « باعث التقزز » عنه عضوا فى اللجنة المؤقتة أيام « مراكز القوى » ، ثم يصبح هو نفسه رئيسا للجنة المؤقتة بعد حركة التصحيح التى ثارت على مراكز القوى ؟! هذا شىء « يقلق » وبالتالى فان شخصية هذا « الانسان الغريب » هى « مثيرة للحيرة والتساؤل » ! (*)

ولم يفكر « باعث التقزز » فى انه يمكن أن يوجد أناس « بسطاء » لا يدورون مع تيارات « السلطة » أيا كانت ، وانما يبتغون وجه الله الكريم . ويذوبون وجدا فى حب مصر وحريتها وتقدمها . كل ما يفكر فيه « المزقوق » المتوتر ان يلوث وأن يشكك .. وفى اية صورة ؟ فى صورة كأنها بلاغ الى المدعى العام الاشتراكى ! يا سلام ؟ !

هل نقول كما قال الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام ؟!

وربما كان هذا البيت « أكبر » مما يستحقه الأناس البسطاء ..

أو نقول كما قال الشاعر :

تحاول ارضاء الحقود ولم يكن

ليرضيه الا ان ترى فى الرمائم ؟ !

وربما كان هذا البيت « أقسى » من أن يعبر به عن « هيافة » ذلك الذى « عليه غضب » واحزابه. وأقول أحزابه لأن «البلاغات» للمدعى العام الاشتراكى ولغير سيادته حدثت أكثر من مرة . ولقد أعرض لها فيما سوف يتلو ذلك من حديث عن « الشلة » التى يستفزها ــ ويعوقها ــ أى « نقاء » ..

ومن « العينة » الثانية ــ أى بعض اليساريين الحمقى تجار الكلمات ــ ما هو بالغ الغرابة كذلك ! .

فى ابريل سنة ١٩٧٢ كانت قد « استوت » مأساة نقل بعض الزملاء الصحفيين من بعض المؤسسات الصحفية الى شركات القطاع العام الاستهلاكية وغير الاستهلاكية وتقرر اعادتهم الى العمل الذى نشأوا فيه ومارسوه .. وهو العمل الصحفى . وكان

صاحب قرار اعادتهم هو نفسه .. ودائما .. صاحب قرارات التصحيح والانصاف والحرية وسيادة القانون والتحرير : الرئيس انور السادات .. والذى توج قراراته بقرار التصحيح الأكبر : معركة العاشر من رمضان .

واحتفل فى نقابة الصحفيين بعودتهم فى حفل شاى حاشد حضره كبار المسئولين فى الاتحاد الاشتراكى العربى والجهاز الحكومى والعائدون ــ طبعاً ــ وعدد كبير من الزملاء الصحفيين .

ولقد سرنى أن البى الدعوة وأشارك فى الحفل ..

غير أن بعضا مما جرى فى الحفل المذكور من خطب ــ وتجارة كلام ــ لم يسرنى !

وقف واحد من أعضاء مجلس النقابة الذين اشتهروا بالتطرف ليلقى خطبة منبرية قاصدا أن « تشن وترن » ! ولا يهم ماذا يهدد به ولا ماذا يفترى ولا ماذا يقترح من سخافات ما دامت تستدر التصفيق .. واى تصفيق !

قال لا فض فوه :

« نحن الصحفيين لا نسمح لأحد بأن يتعرض لنا . ومن يفعل فاننا نعصف به . نحاربه . بل نقتله بالرصاص ! » (ياسيدى .. على حرية الرأى !) .

ومضى قائلا :

« بالأمس كان زملاؤنا المنقولون فى زيارة رئيس مؤسسة صحفية (وكان يقصدنى .. دون أن يذكر الاسم) فقال لهم كلاما غريبا . قال انه لا يستطيع ان يقبل عودتهم الى المؤسسة التى يراسها فيتحمل مرتباتهم .. ذلك لأن المذكور عندما عين فى الدار

الصحفية المشار اليها وجدها مدينة بمبلغ ثمانمائة الف من الجنيهات وزيادة ، وانه كتب للمسئولين يلتمس سداد ديونها التى نشأت نتيجة الظروف الصعبة التى اجتازتها ! »

ثم تساءل سيادته .. أى الخطيب الديناميكى المفوه :

« ولكن ما لنا نحن والمليون جنيه التى يطالب بها المذكور للمؤسسة ؟ اذا كان ولا بد أن تدفع الدولة مليونا من الجنيهات فلتدفعها لهؤلاء الصحفيين الاربعين أو الخمسين الذين نقلوا ليصدروا بها صحيفة جديدة » !

وهنا حسبت أن صاحبنا كان يعلن أخطر الانباء وأعظمها وأكثرها أملا على الاطلاق . كأنه كان يقول : فى اللحظه التى اخاطبكم فيها الآن تدخل جيوشنا المصرية والعربية المظفرة أعماق تل أبيب لتحرير فلسطين السليبة وتعيدها الى أهلها الشرعيين !

فان التصفيق استمر ــ ووقوفا ــ لمدة ٥ دقائق كاملة مع صيحات الاعجاب : « آعد .. آعد » !

وقلت لنفسى حزينا كاسف البال متوجعا على مصر المظلومة التى ذهبت نفسى حسرات عليها وعلى ظروفها العصيبة . هل هذا معقول ؟ هل هذا هو « الوجه الحقيقى » للصحافة المرجوة فى بلادنا ؟ كيف يكذب صاحبنا هذا الكذب الشنيع « عينى عينك » . فما قلت لهم أمس هذا الكلام . انما قلت أن المؤسسة مدينة بهذا المبلغ . ولست مسئولا عن نقلكم منها فى سنة ٦٤ و ٦٥ . ومن المؤكد اننى يسعدنى زمالة وعدالة وانسانيا ومهنيا أن تعودوا . ولكنى لا أستطيع أن أعيدكم بقرار منى . واذا صدر قرار الرئيس بعودتكم فصدقونى أننى سوف ارفع يدى له بالتحية وانفذه على الفور . غاية الأمر اننى قد أكون كتبت بشأن تلك الديون مذكرتين . وبعد عودتكم سأكتب الثالثة . هذا ما قلته لهم بالحرف الواحد

وعلى مشهد ومسمع من الجميع ، فلماذا ولصالح أى شيء تحريف الكلام والكذب فيه ؟ ! وقد يهون الامر أن أكون ضحية « فرية » تبتغى « الشعبية » والاثارة . ولكن بالله ما ذنب ألفين من العاملين فى تلك المؤسسة ليقترح ـ بسلامته ـ أن « ينغلقوا » وبدلا من أن يدعموا ، تخصص المليون جنيه للزملاء الاربعين أو الخمسين ليصدروا بها صحيفة جديدة .. وليذهب الآخرون الى الجحيم !

غير أن الذى لم أستطع احتماله ـ حقيقة ـ هو رد الفعل الحماسى والمؤسف الذى وقع .. وكأن تجارة الكلمات « المصنوعة » .. تجارة لن تبور !

ولكننى قلت : الامر لله من قبل ومن بعد .. و « أكم » !

وجاء دور واحد آخر من الخطباء . « زعيم » يسارى ـ أشهر نفسه بالتطرف الزائد ـ من الذين نقلوا وعادوا .

قال :

« لم يكن نقلنا راجعا لأسباب اقتصادية وانما كان لاسباب سياسية . كان مطلوبا تنحيتنا عن المنابر واقصاؤنا عن الصحافة . »

وحتى هنا .. الكلام « ماشى » و « مبلوع » !

ولكن ذروة تجارة الكلام .. بلغها فى العبارة التالية . قال :

« ولو اننا كنا ظللنا فوق أعواد منابرنا الصحفية ولم ننح عنها .. لما وقعت نكسة يونيو ١٩٦٧ » !!!

هل يمكن أن يكون ثمة « تبكيش » و « تكويش » .. وكلام اوزل من هذا الكلام وأرخص ؟!

فلا نامت أعين الجبناء .. من الخطباء ! .

وربما كان المطلوب ان تتبع « أهواءهم » .

و « الأهواء » هنا قد تندرج على « أقصى اليمين » المنتفع أو طالب الانتفاع ، وقد تنسحب كذلك على أقصى اليسار الجامح الذى ربما يرغب فى صراع طبقى فى حين ينبغى أن نتجنب الصراع الطبقى ، وأن نختار — بحق — طريق الاشتراكية المعتدل والمناسب ، والذى قد تكون صيغة « تحالف قوى الشعب العاملة » أسلم الطرق وأكثرها ملاءمة لها .. على ما قد يبدو فيها أحيانا من اتساع ومن غموض .

هذا اليمين واشياعه يريد ان يجذبك اليه ، وبهذا فقط تكون محل رضائه « المؤقت » ليستغلك لهواه ومنفعته باسم « الفهلوة » و « الشطارة » و « خفة الدم المزعومة » و « الصحافة » التى تعجب الناس وترفه عنهم و « تلاغيهم » وتثيرهم والتى مضمونها فى النهاية : لا شىء .

وذاك اليسار الجامح المتطرف يريد أيضا — بحمق شديد واندفاع — أن يشدك اليه .. وليكن ما يكون . ولكنك بهذا تكون موضع رضائه واعجابه .. أو لعلك تكون « مرحلة » !

ولكنك لا تنساق وراء الجانبين .

تحتقر الاول فى أعماقك لانك لا تحب خداع الجماهير أو تخديرها .. ومع هذا تعطيه فرصة ، وتروضه عساك تستطيع أن تستخرج منه « أفضل » ما يمكن أن يقدمه .. بعد الحذف والاضافة والتعديل والتهذيب ، وبعد أن تحاول أن تجعل من « التظرف » السمج الذى يملكه مادة يمكن ان توصف بالظرف ! وأن تضع مواصفات وتشارك مشاركة ايجابية فى جعل « الاثارة » شيئا مقبولا ومقروءا وسائغا . وان تقلل بقدر المستطاع من

« العك » ! ولكنك بهذا « التقييد » وبالامتناع عن الخضوع سرعان ما تكون موضع غضبه وسخطه ثم تآمره .. فأنت تسد عليه الطريق والمنافع والمطامع !

وتسكن الثاني . تعقله . تناقشه . تنصحه . توجهه . ونحاول أيضا ان تطوع « ثقافته الثورية » الحادة المتطرفة وأن نروضها لما يمكن أن يكتب وينشر وأن يصبح عنصرا مفيدا وعاقلا . وقد تنجح فى تغييره وكسبه وقد تفشل . وقد تتعرض لعاصفه من الرمال الحمراء الحمقاء . ولكنك لا تحنى راسك للعاصفة !

وبين هذا اليمين المتعفن وذاك اليسار المغامر تمضى فى طريقك .. لا تتبع اهواء احد ، فقد ملك هوى مصر — ومصر وحدها — شغاف قلبك ونفسك وفكرك وقلمك ورياستك للتحرير !

والنتيجة ان الهجمات الضارية تشن عليك . وتجىء اكثر ما تجىء من اليمين الأفون الحاقد الضالع فى الفساد والذى يريد ان يلوث أى انسان شريف للاضرار به والاطاحة ، ولتشيع الفاحشة ! ومن هنا يبدأ حملة من الشائعات والمنشورات . ولكن هذا صنف من الناس يصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « طعامه حرام وشرابه حرام وملبسه حرام يرفع يده الى السماء : يا رب .. يا رب ! كيف يستجاب له ؟ » !

وهكذا يقال عنك ويذاع همسا وفى الكواليس — وفى البوليس — ما يقال وما يذاع . ثم تطبع المنشورات الحقيرة الموتورة .

فى شهر واحد هو شهر يونيو ٧٢ — وكان قد « يئس الذين كفروا » — ارادوا أن ينفسوا عن أحقادهم ، فانهمرت على شخصى الضعيف المنشورات الطاعنة المسمومة .

فى واحد من المنشورات « المدبجة » قالوا ان « العبد لله » هو مبتذل و « زئر نسـاء » ! ما أسخف ما يكتبون وما اشـده ابتذالا ! .

وفى منشور آخـر قالوا اننى « مستغـل نفـوذ » .. بل « مرتش ». ولا يهم ان يقام دليل أو تضرب أمثلة. ولا يهم أن يكون المرء يعطى أضعاف ما يأخذ . ولا يهم ان تكون الكتب التى أصدرها أصر على الا أحصل منها على مكافأة تأليف . ولا يهم أن تعمل ليلا ونهارا وفى العطلات الاسبوعية والعطلات الرسمية بغير مقابل. ولا يهم انك تهدى المؤسسة التى تعمل فيها ما تهديه ، ولا ان تعطى « من الزكاة » لمن تعطى ما تعطيه . لا يهم كل ذلك . المهم أن يثار دخان حتى يقال « مافيش دخان من غير نار » ! المهم أن تطلق الأعيرة النارية حتى يتحقق المثل « العيار اللى مايصبش يدوش » !

وهكذا منشورات ومنشورات تدور فى دائرة المستنقع الذى فيه يتنفسون .

ولكنهم رجعوا الى انفسهم .. لا « رجـوع توبة » ـ عفا الله عنهم ـ وانما رجوع « اعمال فكر عملى » فيما يتصورون . قالوا لانفسهم : لطالما قيل عن أناس كثيرين مثل هذا التجريح ، وثبت كذبه وكيده ، وبالتالى لم تعد هذه الاقوال تثير أحدا أو تحركه . فلنبحث عما هو أكثر وجعا وأقرب الى تحقيق الغرض !

فليبحثوا عما تصوروه طعنة فى الصميم ، عما خالوه « صيحة هذا العصر » : التآمر ومحاربة النظام .

واطلقوا السهم الاخير .

فى منشور « رائع » قالوا ان العبد الفقير يجتمع باصـدقائه « اعداء النظام » بصفة دورية كل اسبوع مرة فى منزل واحد منهم للتآمر ! وعددوا أسماء « نقاوة » لتثير « المواجع » فيما تصوروا !

ولطالما تمنيت أن اجد الوقت لاجتمع بهؤلاء الذين عددوهم ـ وهم من الاصدقاء الافاضل الشرفاء ـ ولو مرة كل شهرين .. ولن نتآمر بطبيعة الحال . لاننا لا نعرف هذا التآمر الذى برع فيه كتاب المنشورات والتقارير والذى من امثلته « الصغيرة » ما فعلوا فى منشوراتهم . ليتنى كنت بالفعل أرى هؤلاء الاصدقاء كثيرا ، ولكننى للأسف لا أجد الوقت ..

غير أن هذه « السهام المسمومة » طاشت كلها . ولم تجد فتيلا مع أحد من المسئولين أو غير المسئولين . وطاش صواب الذين عكفوا ـ فى سواد الليل وفى سواد الغل ـ على كتابة ماكتبوا على « الرونيو » وغير الرونيو ! وتربصوا .. من يدرى ؟ فقد تسمح الايام والظروف فى المستقبل بمحاولة أخرى .. وأخرى !

وأكون ظالما لو تخيلت ان « واو الجماعة » فى كتبوا وطعنوا وتربصوا الخ .. تعنى « جماعة كبيرة » . أبدا . فمصر اجمل من ذلك وأكرم . والصحافة المصرية أفضل من ذلك وأسمى . قد تكون واو الجماعة منصبة على خمسة اشخاص او عشرة او حتى عشرين أو ثلاثين .. ولا يزيد !

فبين هذا اليمين المتعفن وذاك اليسار المتطرف .. غالبية .. قاعدة عريضة . مؤمنة . اشتراكية بالضرورة وبالتفكير السليم وبالدراسة للواقع المصرى . وبينهم ايضا « حرفيون وطنيون » قد تكون المعانى الاشتراكية غائمة فى أذهانهم وقد لا يعدون اشتراكيين بالمعنى الدقيق ، ولكنهم « مستقيمون » .. وفى هذا الكفاية . نعم فى الاستقامة وفى السلوك الحسن الكفاية لان الاشتراكية فى النهاية ليست هى الغاية ! ولان القيم الخلقية والانسانية والعملية الحميدة البناءة هى التى تبنى أمل مصر الحقيقى : الانسان الجديد السوى !

● « بتوع ١٥ مايو » ! ●

والمنشورات المشار اليها هى بطبيعة الحال مجهولة التوقيع وان لم تكن مجهولة النسب الشيطانى و « السرطانى » على سبيل الترجيح ! ».

ولقد نشرت فى كتابى « كلام عنا وعن اسرائيل » فصلا عنوانه « كلام مليان فى الفاضى » وهو قريب الشبه بالحديث الذى نتناوله فى هذا الباب ، وهو أيضا من « أفضل » ما كتبت و « اصرح » حتى أن بعض الذين عرفوا « بالنعومة الخبيثة » نقلوا الى انزعاج بعض الذين عرفوا « بالفلطة المغرورة » بعد أن قرأوا الكلام المليان المذكور ، وكلاهما .. الناعمون والفلاظ فى الهم سواء أو ربما كان الناقلون أشد سوءا وفجرا !

عرضت فى جانب من الفصل المذكور لحديث المنشورات الطاعنة المطعونة واستشهدت بأبيات شعر كنت كتبتها اعزى بها نفسى :

أتخلص ؟ ترعى الله تخشى المحارما ؟
وتزهد ؟ فازهد ! لست تعدم ناقما
وتعدل ؟ فاعدل ! هل توهمت انما
سلمت ولم تحسب لدى البعض ظالما ؟
اذا خلت أن الخلق يرضون كلهم
كفى بك داء انما عشت واهما
فيا صاح لا تحزنك فتنة ناقم
وخسة موتور وحقد شراذما
سخائم .. منشورات طعن وفرية
مجهلة ردت اليهم هزائما

اذن « فالجريمة المستترة » لا تفيد . فليجرب هؤلاء واضرابهم « الجريمة المعلنة » !

وتنشأ « مجموعة عمل » بالغة الغرابة والفجاجة والهيافة ، وتحسب انها بالغة أمرها !

وتشتهر أو تطلق على نفسها اسم « بتوع ١٥ مايو » .. هكذا والله .. و ١٥ مايو برىء مما يسلكون ومما يعملون ومما يقصدون ! ثم ان ١٥ مايو ليس له « بتوع » .. ذلك ان حركة التصحيح فى ١٥ مايو مملوكة للشعب « والذين يتصورون أن حركة التصحيح فى ١٤ و ١٥ مايو ملك لفئة دون أخرى يخطئون كثيرا ، ويظلمون حركة التصحيح والسادات ومصر . اما الذين يتجرون ويزايدون عليها فانهم لا يكتفون بأن يظلموا حركة التصحيح والسادات ومصر ظلما كبيرا ، بل يظلمون انفسهم ويخسرون كثيرا ، فى حين ان هدفهم الظاهر ـ والله اعلم ـ هو الكسب الشخصى ، أو ربما بسبب أن هدفهم هو الكسب الشخصى . »

ويتصرفون كانهم « الحفظة » على حركة التصحيح ، وتشهد هى مسلكهم وحماقاتهم فتقول : يا حفيظ !

واحد من الذين اشتهروا بانهم « مع كل سلطة حتى تسقط وضد كل سلطة بعد ان تسقط » ظن ـ ولست أدرى من اين جاءه هذا الظن ـ انه « الوارث الصحفى الشرعى » لحركة ١٥ مايو ، واستطاع بالفعل أن « ينفش » فى البداية . ومن باب التجربة رايت أن « اترخص » فأتيح له فرصة الكتابة اليومية . ولست ـ بطبيعتى وبمسئوليتى ـ متقبلا « لاى كلام » ، ومن هنا جاءته المتاعب ولا اقول جاءتنى ! مثلا . كتب مرة كلمة عن « ضياء الدين داود » ملأها بالسباب الرذل المجوج الذى لا يليق ان ينشر فى صحيفة تحت اية ظروف . والغريب انه ـ الطاعن نفسه ـ كان يسمى المطعون فيه نفسه ـ منذ اشهر قليلة ـ « ضياء مصر » .. ورايت انه اساءة لحركة التصحيح وللجريدة

ولكاتب الكلمة أن ينشر هذا النموذج القميء من القول . ومنعت نشر الكلمة .

اننى لم التق فى حياتى بضياء داود الا مرتين فى اجتماعين عامين . وبصراحة وجدت أن « السلطة » الفجائية التى صعد اليها كانت قد أوهمته أنه « قطب كبير » بكل نتائج الوهم و « القطبية » وزعامة « الكوادر » ، وبالتالى زاد نزيفى الداخلى الذى كان يدمى فى أعماقى حسرة على مصر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وكتمت « الدم على القيح » . ولكن هذا شيء وما يصح ان يكتب بعد ان انتهى ضياء داود وسجن شيء آخر . وتحمل صاحبنا الكاتب « الغليظ المغرور » حجب كلمته .. ربما لانه شعر بأنها سوف تكشفه ! ولكنه لم يتحمل أى حذف آخر أو تعديل أو تهذيب ، فكان « يصبحنى » بتليفون فى السابعة صباحا بين يوم وآخر اذ يجد أن « جواهره المكنونة » ناقصة جوهرة أو مضاف اليها عبارات « فالصو » كتلك التى اضيفها ! واحتملت طويلا « الغثاثة » والنزاع حولها .. حتى طفح الكيل ! وفى يوم ما رأيت أن ما بعث به للنشر هو من نوعية ما كان ينشر فى مجلة « البعكوكة » بفارق واحد هو انعدام خفة الظل . فاتخذت قرارا بعدم نشر الكلمة بل بوقفها ، فما يصح أن يكون « رأيا » ومع صفحة الراى مثل هذا الكلام عن القباقيب والفستق والحمص الشامى والسيرك والقذف فى حق خلق الله بالحق وبالباطل !

● **الوحى لمحمد بدلا من على ! ..**
أو مكانه .. مكان « هيكل » ! ●

وجاءنى الكاتب الالمعى .
ـ لماذا لم تظهر الكلمة ؟!

ـ لا تصح .. وغيرها كثير من قبل كان لا يصح . ولهـذا فسوف تختفى من الآن فصاعدا لانه « لا يصح الا الصحيح » ! ولك أن تنشر تحقيقات صحفية محترمة أو تكتب « طقاطيق » فى صفحة فنية . أما السياسة فلعلك « غير مؤهل » لها !

ـ بأى حق تتصرف هكذا ؟

ـ والله لقد سمعت بأذنيك السيد الرئيس يقـول ان رئيس التحرير هو وحـده المسئول عمـا ينشر فى الجـريدة التى يرأس تحريرها . ومن موقع المسئولية اتخذت هذا القرار .

ـ أنت بهذا سـوف تخسر خمسين ألف قـارىء لا يقرأون صحيفتك الا شغفا بما أكتبه !

ـ عليه العوض .. وربنا يقدرنا ونستطيع أن نعوضهم تباعا !

ـ من أنت حتى تتصرف وفق هواك !

ـ اننى انسان « فى حالى » . مجرد « مجذوب » من مجاذيب مصر .. مصر العريقة الطيبة المؤمنة .. مصر وحدها . ثم أحب أن أوجه نظرك الى أنه ليس هوى ولا ديكتاتورية . أنه وزن للامور ، واستجابة لتعليقات ونقد العقلاء الذين « أكلوا وشى » من نوعيـة ما كان ينشر .

ـ أصحابك هؤلاء معروفون جيدا . لهم ملفات فى المخابرات والمباحث . انهم شيوعيون !

ـ لا شأن لك بأصحـابى شيوعيين كانوا أم غير شيوعيين . اننى لا أخاف أحدا لا مباحث ولا مخابرات . لا أخشى الا الله ..

ـ شىء غريب . بعد هذه السنوات الطويلة من العمل فى « الصحافة » ابتلى بك وتتحكم انت فى !

ـ قسمتك .. وقسمتى !

ـ هل تدرى ان « الموقع » الطبيعى الذى ينبغى أن أحتله هو الكرسى الذى يجلس عليه « محمد حسنين هيكل » فى الاهرام ؟!

ـ سبحان مقسم الارزاق ! ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه !

وشن « صاحبنا » حملة ضارية على العبد الفقير.« وساق » عددا كبيرا من الزملاء يحادثوننى بشأنه . الغريب أننى كنت كلما أقول عنه كلمة مقتضبة كانوا يضيفون اليهـا كلمات ! اذن ما هى الحكاية ؟ قيل هو كذا وكيت ولكن قلبه كالاطفال . وكأن المطلوب منى أن اعمل جليس أطفال baby sitter على آخر الزمن !

وعاد صاحبنا الى « طقاطيقه » الفنية الاسبوعية .. معقول ومقبول . ولكنه من وقت لآخر كان يسوق « الدلال » ، فأحتمل . وكان يشن بين آونة وأخرى وبمناسبة وبدون مناسبة حملات على « الصحافة الحمراء » .. فأتجاوز !

ثم حدث ان عفا الرئيس المؤمن الحصيف عن الصحفيين المبعدين ، وأعادهم فى ٢٨ سبتمبر ٧٣ الى أماكنهم .

وهنـا لم يحتمل صاحبنـا هـذه « الكبيرة » . فامتنع عن الكتابة ! وجاءت معركة العـاشر من رمضان فى ٦ أكتـوبر وظل ممتنعا . ومرت أسابيع وأسابيع على المعركة وهو ما زال ممتنعا . وبعد وقف القتال بشهر أو يزيد استأذن فى أن يكتب صفحة كاملة فأذنت له .

● الذين شفوا .. والذين مرضوا ! ●

وفى لقاء كان يظن انه جاءنى فيه راكبا « حصانا أبيض » دار حوار جديد .

ـ جئت أصفى الحساب .. ولعلنا نبدأ « صفحة جديدة » !

ـ كله يهون .. ما عدا أمرا واحدا لا اظنه يغتفر !

ـ ما هو ؟!

ـ عندما اكد الرئيس الوحدة الوطنية وأعاد كل الصحفيين الذين أراد البعض « تشويه صورتهم » والاساءة اليهم ـ أعادهم الى اعمالهم ايذانا ببدء المعركة . أنت لم يعجبك قرار رئيس الجمهورية وامتنعت عن الكتابة . لماذا ؟ هل لانك كنت « تغرد » قبل ذلك وتقول « صباح الخير أيتها الصحافة البيضاء من غير بقع حمراء » ؟!

ـ أنا كاتب « جماهيرى » .. ولابد ان « أدلل » ويطلب منى ان أكتب !

ـ ولكن سكرتير التحرير طلبك حتى تكتب عن معركة اكتوبر وقت اشتعال المعركة ..

ـ ليس كافيا .. كان واجبا أن يلح على !

ـ ياسيدى .. لقد كنا فى معركة . والمعركة لا تحتاج الى دعوة . انها انفعال ومشاركة . لقد كانت الجريدة « تشغى » بكل العاملين فيها . لم يتأخر أحد . كلهم جاءوا من تلقاء أنفسهم نهارا وليلا .. وبدافع الواجب والاحساس بالمسئولية . كلهم كتبوا .. كانت الصفحة الاخيرة قد اخذت شكلا جديدا يناسب المعركة .. فيها كل يوم اكثر من ٤ كلمات بأقلام مختلفة . كانت الجريدة جريدة المعركة . تحاول أن تكون على مستواها . حتى الذين لم يكتبوا من قبل كتبوا . حتى « الكتاب الضيوف » بعثوا بمقالاتهم ولم ينتظروا عليها أجرا ولم يصرف لهم عنها مقابل .

ـ أنا شيء آخر .. أنا كاتب جماهيرى !

ـ ما علينا . ليس هذا هو مجال المحاسبة المباشرة على اى حال . تكتب أو لا تكتب . تنفعل أو لا تنفعل . أنت حر ! ولكن

الشيء الجسيم هو انك بعد ستة أسابيع طلبت ان تكتب صفحة كاملة . قلنا : فليكتب . فماذا كتبت ؟ ! ملخص الذى أخذت تبدأ فيه وتعيد وتزيد هو فى كلمتين : عزيزى القارىء . اعذرنى . لقد غبت عنك طيلة هذه المدة لأننى « مريض بالقهر » ! قهر ؟ أى قهر ؟ لقد كان أبناء مصر البواسل يبذلون دماءهم وارواحهم فى سبيلها لا يطلبون شيئا سوى النصر أو الشهاده ، ولكن انت فى ذلك الوقت لم تكن مشغولا بشيء الا بذاتك « تجتر » القهر المزعوم ! مريض بالقهر ؟ لقد كنا جميعا مرضى بالقهر قبل المعركة ، أما وقد جاء العيد بعد العاشر من رمضان وعرفنا « حلاوة النصر » فقد شفينا جميعا من القهر ومن المرارة . وجدنا انفسنا . عبرنا .. فعبرنا عن انفسنا .. وأنت .. أنت وحدك دون الملايين تعيش فى عالمك الخاص المقهور !

وبهت « الذى قهر » !

ولن ادخل فى تفاصيل اخرى فهى كثيرة كثيرة وغريبة غريبة !

● ٣ لقطات على الهامش ●

ولكن ربما بقيت « لقطتان » أو ثلاث عن هذا « المفتون المقهور » !

فى العشاء الذى اقامه بقصر القبة الرئيس انور السادات تكريما للرئيس نيكسون فى زيارته الاخيرة لمصر ، وامام جمع حاشد من الصحفيين « صاح » واحد من أصدقاء اخينا وأصدقاء سهراته قائلا : مصطفى بهجت بدوى هذا « بطل » انه استطاع تحمل فلان (وذكر اسم صاحبه) ! وعملت اذنا من طين وأذنا من عجين !

وكرر قوله مرتين ! ثم سالني سؤالا مباشرا : كيف احتملت فلانا ده شخص مخه طاقق ! ولم اجد مندوحة من أن ارد . قلت : والله لكم تحملت ! على اى حال عفا الله عنه وعنا جميعا !

(ولم يكن غريبا ان هذين الزميلين المتصادقين او المتعاديين كانا يجلسان معا فى « رواق ما » بعد زيارة نيكسون — وبعد « المخ الطاقق » — يتسامران ويتنادمان ! وانهما — كما كتبت صحفية لبنانية فى مجلة بيروتية — كانا يتنافسان فى التغزل بها وفى طلب المواعيد الخاصة !) »

وفى الحفل الساهر نفسه مساء الاربعاء ١٢ يونيو ١٩٧٤ — ليلة وصول الرئيس نيكسون — كنت اجلس على مائدة العشاء مع الزميل الاستاذ موسى صبرى .

وكنا فى الرابع من شهر يونيو ١٩٧٤ قد سافرنا معا الى السويس فى أول زيارة للرئيس السادات لقواتنا الباسلة بالميدان بعد المعركة . وكان قد نشر كلمة فى جريدة الأخبار بتاريخ ٦ يونيو ٧٤ بعنوان « نجمة الشرف » وكتب فيها بين ما كتب :

« رايت الملازم سمير يشرح للرئيس السادات كيف سيطر على أخطر مواقع العدو فى الضفة الشرقية ، وطهره من الاعداء مستسلمين أو مقتولين .. بعد قتال شرس عنيف ، وبعد أن استشهد قائده الرائد البطل « زرد » . رايت الملازم سمير كيانا فارعا صلبا ، صدره كأنه درع .. رقبته كأنها حصن ، راسه الاسمر كأنه هرم .. صوته العميق المندفع قادم من بعيد .. من نبع آلاف السنين يلفحنا جميعا بروح ٦ اكتوبر ... ونور ٦

اكتوبر وهيىء لى أن طين مصر المقدس متجسد حقيقـة لا خيالا فى هذا الرجل ..

وسأل الرئيس : بماذا كرمتك الدولة ..

وأجاب الحصن والدرع والهرم : نوط الشجاعة ..

واصدر القائد الاعلى قراره على الفور : يمنح نجمة الشرف .

وكادت عينا البطل تلمعان بدمعة .. ولكنه أبى حتى أن تكون دمعة فرح . أما انا فرضيت لدمعى أن يملأ عينى .. وبجوارى مصطفى بهجت بدوى رئيس تحرير « الجمهورية » يجهش بالبكاء !

هذه هى مصر الكبرى فى ٤ يونيو ١٩٧٤ . »

وخلال « دردشة » العشاء قال لى الزميل مـوسى صبرى : هل تصدق أن فلانا ـ وذكر اسم أخينا المقهور ـ اتصل بى تيفونيا فى الساعة الثامنة صباح يوم نشر كلمتى وقال لى : ما هذا الذى كتبته ؟ كيف تكتب عن مصطفى بهجت بدوى ما كتبت ؟ ألا تعلم أنه عدو لى ؟ ! اننى غاضب أشد الغضب .. عاتب عليك أشـد العتاب ان تجعل لواحد من « معسكر الاعداء » قيمة وتكتب عنه ! هذا بمثابة عدوان على !

واجابه « موسى صبرى » : شىء غريب ! مالك أنت ومالى فيما أكتب ؟ هل تظننى « الممثل الشخصى » لسيادتك مثلا ؟ يا أخى أنا حر أكتب ما أشاء ولا اكتب ما أشاء . شىء شاهدته ورايت أن اكتبه من خلال موقف جياش كانت فيه دماء تراق وموقع حصين محتل يسترد . واعلام مصرية ترفع فوق سيناء . وضابط صغير بطل يتحدث ببساطة . ورئيس كبير القلب والعقل يقدر الابطال ويمنحهم النياشين . ما الذى « حشرك » يا أخى ؟ !

ومرة اخرى .. بهت « الذى قهر » !

● « الهبالة على الشيطنة !! » ●

ولنعد الى هؤلاء الذين برعوا فى المزايدات والابتزازات والذين أطلقوا على انفسهم ـ زيفا ونفاقا ـ اسم « بتوع ١٥ مايو » و ١٥ مايو منهم براء !

مثلا .. بسخف بالغ ، بدأت هذه التى أطلق عليها « الثورة الشعبية » فى الشقيقة ليبيا ، وأخذت « اللجان الشعبية » ترتكب « الحماقات » وتحتل الجامعات والمستشفيات وغيرها وتطرد العمداء والاطباء والمهندسين ، وتعلن نجاح طلبة كلية الحقوق جميعا بغير أداء امتحان بل بمجرد قرار ثورى ! عندما بدأت هذه « اللجان الشعبية » غير الناضجة فى ممارسة ا مارسته بليبيا « استخف » البعض هنا « الطرب » ! وعلى سبيل المثال اجتمع نفر منهم ـ يعلم الله بحالهم ـ وتذاكروا فيما بينهم : اليس من حقنا أن نحتل مكتب احد مديرى التحرير ونطرده منه ؟! وسأل واحد من هؤلاء المتذاكرين .. سأل ببراءة : من هم هؤلاء الذين سوف يحتلون المكتب المذكور .. ولماذا ؟ وجاءه الجواب : نحن .. نحن « بتوع ١٥ مايو » .. ولا تسأل لماذا .. نحتله والسلام .. وما يجرى يجرى ! وطبعا انفض سامرهم وانتهت الى لا شيء « القعدة » التى خالت أنها تمثل « القاعدة » وهى تمثل « لا شيء » !

واحد استمرأ أن « يسوقَ الهبالة على الشيطنة » ويسب الجميع ويعتدى بالضرب على البعض من الزملاء والزميلات ثم يعتذر بأنه مريض بمرض عصبى ويعانى من « عقدة اضطهاد » . ورأى أن يصدر « مجلة حائط » وأن يطلق عليها اسم « ثورة ١٥ مايو » ! وقلت لا مانع من مجلة حائط ولو كانت تشتمنى ، ولكن ينبغى أن تعرض أولا .. وفقا للأصول . ولكنه ضرب بالأصول ـ مع مجلة الحائط المذكورة ـ عرض الحائط . وعلقها ! قلت :

لا مانع .. دعوه هذه المرة حتى « ينفس » عن عقـدة الاضطهاد المزعومة ! ولم أشغل بما جاء فيها . ولكن « القاعـدة » شـغلت واحتجت . قالت : انه نشر فى مجلة الحائط المذكـورة ما دار فى جلسة من جلسات مجلس الادارة المفروض أنها « سرية » . وكان المنشور يتناول ما جاء حول العلاج الطبى ، بل كان يؤيد فيه رأيى الذى قلته فى اجتماع المجلس ، والذى يتفق مع وجهة نظر غالبية العاملين . غير أن الاصول أصول .. و « السرية » ينبغى أن تظل « سرية » حتى تنضج المسـألة ويتخذ فيهـا قرار . عنـدئذ « أمرت » بنزع مجلة الحائط المذكورة استجابة لرأى الطالبين ، وحفاظا على الحد الأدنى من التقاليد التى ينبغى أن تراعى وتحترم.»

وعلى الفور ابرق « المضطهد » الى السيد الرئيس والى كافة الجهات ببرقية مقتضبة بغية الاثارة يقول فيها :

« مصطفى بهجت بدوى يحارب ثورة مايو » ! ووقعها !

ولم « تخل » « الحيلة » على أحد !

واستأنف برقياته المثيرة الكائدة الزائفة المستفزة !

وكان أكثر ما تضيق به هذه الشاكلة من الخلق — على قلتها — ان اى طعن فى شخصى فيما يخص حركة التصحيح واضح التجنى والكذب والتضليل . ليس لأن الرئيس السادات أعادنى الى الدار بعد حركة التصحيح بأيام قليلة فحسب ، بل لأن حركة التصحيح كانت تمثل عندى غاية أنشـدها وبدت فى مشـاعرى وافـكارى وأحاديثى وكتاباتى . وكأن الرد عليهم كان لسان حاله — بحق — يقول : العبوا غيرها ، وليس كل الطير يؤكل لحمه !

ومضى « المضطهد المزعوم » فى خطته التى اسـتندت الى الهبالة على الشيطنة !

وحضر الى الدار « بالبيجاما » واعتصم ! وبدا انها مسرحية هزلية سخيفة .. فانصرف عنها الجمهور ، وانصرف !

ثم ضرب « ضربة » على نسق اللجان الشعبية الليبية . احتل قطاعا من الدار التى أكرمته وتحملته طويلا وعلق منشورا « ثوريا » يحرض فيه على اختلال العمل .. وباسم ماذا ؟ باسم حركة التصحيح التى تبرأ من هذا « الخلل » وتشجبه .

وكان لا بد مما ليس منه بد .

وكان عظيما حقا أن الذين تولوا ادانته ونحوا « الهبالة التى هى على الشيطنة » باجراء حاسم هم أعضاء اللجان الشعبية الحقيقية الشرعية المنتخبة بعد حركة ١٥ مايو . أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى . أعضاء اللجان النقابية . العاملون أنفسهم .. وجميعا !

● من الذى استغل أحداث الطلبة ؟ ! ●

على ان قمة « الصراع » بدأت فى النصف الاول من سنة ٧٣ ، ثم عادت « قمة » أخرى من صراع ما يسمى « الجولة الاخيرة » فى النصف الاول من سنة ٧٤ ! تصاعدت أحداث طلبة الجامعات للسنة الثانية على التوالى فى نفس الموعد تقريبا ، فى سنة ١٩٧٣ مثلما كان فى سنة ١٩٧٢ : يناير ..

وفى يناير ١٩٧٣ وحتى قرب نهاية مارس ٧٣ سيطر جو غريب غير مبرر على الجامعات وكأنما المطلوب تعطيل الدراسة .. والسلام ! وتعطلت الدراسة بالفعل .

ولقد قيل أن اليمين المتطرف هو الذى بدأ يتحرك ويشغب فى الجامعات فى أحداث ١٩٧٣ . (ولنذكر أن هـذا اليمين المتطرف هو ـ وحده ـ الذى أقدم على ما أقدم عليه بعد المعركة .. وفى سنة ١٩٧٤ مرة فى الحادث الاجرامى بالفنيـة العسـكرية ، ومرة أخرى بتنظيم يرتكز على فلول لحزب منحل طريد هو حزب التحرر الاسلامى المشبوه) وقيل بل هو اليسار المتطرف الذى بدأ أحداث الجامعات سنة ١٩٧٣ . وقد حدثت بعض المواجهات بين الطائفتين . وفى النهاية ـ وليس لمبدأ معين أو غاية معينة ولا حتى بمشاركة أصيلة ـ دفعت الجموع البريئة الثمن .

وكما أن هناك « حمقى » يمينا ويسارا فى الجامعات فهنـاك مثلهم بين الصحفيين والكتاب والادباء !

وكما أن هناك غالبية بين شباب الطلبة قلبها منفطر على البلد حانقة على العدو الذى يحتل من بلادنا ما يحتل حتى الشـاطىء الشرقى لقناة السويس ، وعينها على العمـل الوطنى والوحدة الوطنية والبناء الداخلى والمواجهة الشاملة لتحرير الارض والارادة ، فهناك أيضا غالبية بهذه الطبيعة نفسها ـ بل هم أساتذة ورواد شيبا وشبانا ـ بين الصحفيين والكتاب والادباء .

ما الذى ينبغى أن يقال وكيف ومتى وبأية نية ؟ بحـرية .. بديموقراطية ولكن بأصـول وذوق .. والذوق شىء ليس فى الكتب !

وفى النصف الأول من يناير ١٩٧٣ وبينما كنت على وشك عقد اجتماع لمجلس التحرير اندفع الى مكتبى واحد أراه لأول مرة .

قلت : من انت ؟

قال : فلان .

قلت : اى خدمة ؟

قال : هذه عريضة كتبها ووقعها الاستاذ الكبير توفيق الحكيم وآخرون عن الكتاب والادباء والفنانين والصحفيين ومطلوب أن تشارك فى توقيعها .

وتأدبا منى قرأت العريضة . ثم التفت اليه وقلت له بالحرف الواحد :

اسمع يا استاذ .. اسلوب العرائض لا أوافق عليه ولا يناسبنى . اننى صحفى وكاتب وصدقنى اننى لا تنقصنى الشجاعة الادبية . واذا كان لدى ما اريد قوله ـ ولدى الكثير ـ فانما اكتبه فى الصحيفة التى اراس تحريرها . وكان لدى الكثير مما أومن به واريد كتابته .. وكتبته فعلا ووقعته باسمى :و تحملت مسئوليته . أما هذا الكلام وتلك العريضة ومع احترامى الكبير والشخصى للاستاذ توفيق الحكيم فاننى لن اشارك فى التوقيع . لن أوقعها .

وخرج الاستاذ المحسوب على اليسار المتطرف والتقى ببعض الزملاء فى الجريدة وقال لهم : يعنى رئيس تحريركم عامل نفسه « جدع » .. وأهه لم يرض أن يوقع على العريضة ؟!

العجيب ان الذى وقع هذه العريضة وأمثالها عدد من اليمين واليسار . وان الذين رأى من رأى أن « يدفعوا الثمن » هم من (تهمتهم) ـ بالشهرة أو بالتقارير ـ اليسارية !

على اننى شاركت ـ استثناء ـ بل دعوت الى توقيع عريضة واحدة فى تلك المناسبة .. وكان لها قصة !

فلقد كانت هناك دعوة لعقد الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين فى يناير ١٩٧٣ لمناقشة المسائل العامة والقضايا السياسية وغيرها .

ولم احضر الاجتماع المذكور لا عزوفا ولا استعلاء وانما «انشغالا» من ناحية ، ومن ناحية أخرى انني اعلم ان مثل هذه الاجتماعات ـ عادة ـ تكون أقرب الى استعراض العضلات الخطابية ، كما تتبارى فيها ـ أ حيانا ـ المزايدات والمناقصات و «انفراد» الاهواء والمطالب الشخصية بالميكرفون . أما الغالبية فمظلومة تضرب كفا على كف أكثر مما تصفق !

و « فرقعت » بعض كلمات . وخان « التعبير » الحسن بعض مقررات حصيلة الجلسة التى أعدها من يفترض فيهم انهم يحسنون التعبير . وأرسلت الحصيلة الى الصحف ، ونشرتها .. ولم « تعترض » الرقابة عليها لسبب أو لآخر ! وصور البعض الموقف على انه ينذر بأضرار كبيرة !

ودعيت لاجتماع خاص لبحث ما يمكن أن يتخذه الصحفيون لمواجهة ما جرى فى اجتماع الجمعية العمومية المذكورة الذى لم يتكامل عدده .

وكان هناك ـ فى الاجتماع الخاص المشار اليه ـ اتجاهان :

اتجاه يقول بأن تحرر مذكرة الى نقيب الصحفيين يوقع عليها عدد كبير من العاملين فى الحقل الصحفى ، و « تحمله مسئولية » ما حدث فى اجتماع الجمعية العمومية ، وتقيم الدليل على انه خالف المادة كذا والمادة كيت من قانون نقابة الصحفيين ، وتنتهى ـ بالتالى ـ الى ما يفيد سحب الثقة منه ومن أعضاء مجلس النقابة .

واتجاه آخر يقول بضرورة عقد اجتماع عاجل آخر للجمعية العمومية لاتخاذ « قرارات تصحيح » لما ظن أنه شابه التجاوز ـ وقد تجاوز بالفعل فى بعض منه ـ خلال الاجتماع الاخير غير المتكامل للجمعية العمومية .

ولم اوافـق على الاتجـاهين او الاقتراحين ، وكنت أؤثر أن يترك الامر للتنظيم السياسى لمعالجة المسـألة كما سـبق له أن عالجها ــ بحكمة وبحسن تصرف وبنجـاح ــ منـذ أسبوعين من تاريخ عقد الاجتماع . على أن شيئا كان لابد أن يعبر به كنوع من الموازنة والايضاح والتصحيح ، ولم أر فى « حرفيـة الاقتراحين » ما يناسب .

استبعدت الاقتراح الأول لأنه يوسـع دائرة النـزاع المهنى النقابى ولا يضيقها ، كما انه يحمل مجلس النقـابة « جريره » المناقشات التى دارت دون أن يكون ــ فى واقع الامر ــ مسئـولا مسئولية مباشرة . فضلا عن أن فى المطالبـة بحل المجلس ما قد يفتح المجال « لشبهات » التطلعات الانتخابية والنقابية : وأقـول شبهات ولا أجزم بها ، وانما فقط تحسسا منى لاحتمالات ما يمكن أن يفسر به البعض الطلب ، وليس حقيقة النيات .

واستبعدت الاقتراح الثانى لاننى توخيت تجنب احتمـالات الاحتكاك والتصـعيد والتوتر فى اجتمـاع آخر جديد قـد يلوح ان فيه تحديا ومواجهة ربما يستغلها من يريد استغلالهـا فيضير الاجتماع المقترح بالصحفيين وبالنقابة بغير مبرر .

هكذا تصورت أن « الحكمة » هى فى عـدم الاخـذ بأى من الاقتراحين . ولست ازعم اننى فى هذا كنت مصيبا مائة فى المائة ، وانما عزائى أنه « رفض » يصدر عن حب خالص لبلادنا ، ولقائد مسيرتها فى مرحلة دقيقة ، وللصحافة والصحفيين .

وكان الزميل الاستاذ موسى صبرى قد أعد بيـانا جيـدا يستعرض الاحداث ويؤكد الثقة فى قيادة الرئيس أنور السادات كما يشجب بعض الاعمال الصغـيرة « الخطيرة » التى اقدمت عليها فئة قليلة العدد من الطلبة . وكان الاقتراح الثانى الذى يراه البعض ــ والذى استبعدته أيضا ــ يقول بأن هذا البيـان يعتبر

« ورقة عمل » تدور حولها المناقشات فى الاجتماع المقترح للجمعية العمومية لنقابة الصحفيين .

وقلت أن الحل الأمثل والأوفق والاسلم هو أن هذا البيان بنصه وحرفه ــ والذى لا يمكن أن يعترض عليه أحد ــ « يمرر » على الزمــلاء الصحفيين فى المؤسسات الصحفية لتوقيعه دون حاجة لعقد اجتماع خاص جديد للجمعية العمومية .

ووافق الحاضرون ــ بعد مناقشات طويلة ــ على هــذا الحل الذى طرحته ، والذى هو أشبه ببرقية ترســـل الى القيـــادة السياسية . وبالفعل طبع البيان وكنت من بين موقعيه ، ووقعه معى مئات الصحفيين بروح صافية خالصة لا تنافق ولا تزايد ، وانما تحس بالمسئولية .. وبجسامة مسئولية القيادة السياسية التى لا ترتجل وانما تجرى الحسابات .

غير أن « كثيرين » هم الذين « أرادوا » استغلال أحــــداث الطلبة واقحام الصحافة والصحفيين فيها والاضرار بهم بالباطل والمبالغة . كثيرون هم الــذين أرادوا ذلك من خارج الوســـط الصحفى ومن داخله .. للأسف الشديد !

وللأسف الشديد أن « التقارير الموتورة » لعبت دورا كبيرا فى « العملية » . وان « الملفات القديمة » ــ التى يعلم الله أن فيها تجنيا وتلفيقا أكثر مما فيها من «تحرى» ــ قد بعثت من مرقدها لتســـلط من جديد فى أوجه الخلق ومصــــائرهم برغم أنه ربما ثبت أكثر من مرة أنها تقارير زائفة ، بل برغم أن الذين قد يكونون تأثروا بها فى مرحلة من المراحل و « آخذوا » من آخذوهم قد اعتذروا عنها وعن عدم صحتها !

وللأسف الشديد ، انه فى لحظات التهويل ، والمبالغة فى تصوير المخاطر فالفزع ، ومع « السربعة » يمكن أن تصبح « الاســـاء

المشبوهة » — أو بالاحرى التى يراد فى الغالب ان توصف بذلك — من « المسلمات » بغير تدقيق أو مراجعة .

وهكذا قضى الامر .. واصدرت هيئة النظام بالاتحاد الاشتراكى فى الرابع من فبراير سنة ١٩٧٣ — مع حموة السكين — « قوائم » باسقاط عضوية عدد من الصحفيين — وغيرهم — من عضوية الاتحاد الاشتراكى العربى ، وبالتالى ابعادهم عن العمل الصحفى ، تم صدرت قوائم أخرى فى الرابع من مارس سنة ١٩٧٣ بنقل عدد آخر من الصحفيين الى مصلحة الاستعلامات — اسما — وكانت الغاية أيضا هى ابعادهم عن الصحف وعن العمل الصحفى .

وفرك « أصحاب الهوى » أيديهم فرحا وطربا . فقد كسبوا الجولة الاولى والثانية والثالثة .. وتطلعوا الى الرابعة والى مزيد ! ولكن « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

ومع النصف الأول من فبراير ١٩٧٣ ازدادت الحملة بطبيعة الحال ؛ وصور الأمر على أنه « تطهير للصحافة » من « المخربين » ومن « الشيوعيين » ومن « اليساريين » .. بل من « الخونة » .

وكانت « التقارير الكريمة » التى تستهدف — كتابة وشفاهة وسفاهة — العبد الفقير اليه تعالى تعمل ليلا ونهارا ، وتتعجل رؤية اسمى فى قائمة من القوائم .. اية قائمة ، المهم أن ابعد وأقصى لاى سبب كان !

● قالوا .. وحسبى الله ●

نظمت الحملة اذن بالشائعات وبالبلاغات الكاذبة .

تزعمها « صغار » من أقصى اليمين الذين يعتبروننى « عدوا تقليديا » ، وشارك فيها بعض الذين حسبوا على أقصى اليسار

وخالوا اننى اقطع عنهم المـاء والنـور ! وأكاد أعرفهم جميعا « بالاسم » وان كنت أذكر قول العزيز الحكيـم « أن بعض الظن اثم » .. غفر الله لهم ولى ، وحسبى الله .

قالوا همسـا ثم على ورق ـ وأجبت عنه على ورق أيضا عندما سئلت فيه ـ اننى أعقد اجتماعا .. « للتعاطف » مع الصحفيين المبعدين فى قوائم فبراير ٧٣ ! ليس هذا فحسب .. وانما ـ فى هذه الاجتماعات ـ أحرض على كراهية الحكومة .. هكذا ! غير أن هـذا كله لم يكفهم ، وانمـا أرادوا أن « يشعللوا » الاجتمـاعات المزعومة التى يعلم الله انها لم تتم على أى وجه ، ولست محتاجا لشهادة أمثالهم فى حبى لوطنى واخلاصى للثورة ولقيادتها . نعم ! أرادوا أن يوقدوها « نارا حمراء » عسى أن تحـرقنى أو تلفحنى ، فأضافوا ان الاجتماعات الوهمية المشار اليها كنت أعقدها بحضور أعضاء السفارة السوفيتية فى القاهرة ! عجبى !

غير ان الكذب الرخيص لا ارجل له ، والصغار لا أصل لهم .. وخاصة اذا كانت الحقيقة التى لا شك فيها ان « الله أكبر » !

وفى الوقت الذى كانوا يعقدون فيـه « الاجتماعات السرية » لتوزيع « التركة » والمناصب القيـادية بعـد أن تؤتى تقاريرهم الموتورة ثمارها : هذا رئيس مجلس ادارة . هذا رئيس التحرير . هذا مـدير التحـرير . هـذا كـذا الخ ، فى الوقت الذى كانوا يمـكرون ، يمـكر الله ويذهب ريحهـم . لا لاننى « مهـم » أو « واصل » ؛ أبدا .. وانما حتى لا يطغوا أكثر مما طغوا ويظنوا انهم يستطيعون أن يفعلوا كل شيء فى كل شيء . وقال لى واحد من الاصدقاء تعليقا على تلك المرحلة ـ وهو يعلم قلة حيلتى وهوانى على الناس ـ قال : ربما نحن نشـهد تفسير الحديث النبـوى الشريف « رب أشعث أغبر مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابره » ! قلت : قد أكون أشعث أغبر مدفوعا بالابواب : ولكننى لم

اصل — ولا أستطيع .. « ياريت » — الى واحد من مائة من مرتبة « لو قسم على الله لأبره » . غاية الامر ان الله — عز وجل — كأنما يريد حماية الدار من «الطوفان» !

وانبرى واحد قضى جل عمره يصيح : « ماركس ! لينن ! ستالين ! » ليشارك فى الحملة لأهداف شخصية . بالبرقيات . بالبلاغات الى النيابة والى كل مسئول . وبدعوى مرفوعة «بجنحة مباشرة » يطالب فيها بحبسى .. وقد خسرها .. وهو «أخصائى» خسارة أشياء كثيرة .

انبرى ليدلى بدلوه و « يركب الموجة » السائدة !

كنت من موقع مسئوليتى قد أبديت وجهة نظرى فى « خطأ مادى » وقع .. ويمكن أن يقع فى أى ظرف وفى أى دولة ومن اى مسئول . كان اسمه قد ادرج — خطأ — بين قائمة العائدين المنقولين الى أعمال غير صحفية ليعودوا الى العمل الصحفى فى « الجمهورية » ، فى حين أنه لم ينقل منها ، ثم انه يشتغل بالفعل بالعمل الصحفى فى مؤسسة صحفية اخرى . وأوضحت هذا اللبس . وتقبله المسئولون فى هدوء وفى اقتناع . ولكنه أقام الدنيا واقعدها .

ولأن اسمه قد ورد — كخطأ مادى كما اسلفت — فى قرار جمهورى ، ولأن أحداث الطلبة كانت فى ذلك الحين قائمة على قدم وساق فكيف لا يستغل أيضاحى اللبس وبالتالى «امتناعى» عن تنفيذ « القرار الجمهورى » الذى لم ير المسئولون اننى ممتنع عن تنفيذه بل ربما حمدوا للدار موقفها حتى لا تحمل أبناءها ما لا ضرورة له ولا مبرر ولا طاقة ولا كسب !! لم تكن « اعادته » اذن تصحيحا أو انصافا — فالآخرون عادوا .. ولا اعتراض كما

اسلفيت ــ وانما كانت ستصبح «تحميلا» قائما على « خطأ مادى » يسعد الدولة ان يصحح . ولكن الاستاذ « الداهيـــة » المحسوب على اليسار المتطرف كتب ــ مستغلا احداث الطلبة ــ فى بلاغـاته يقول : ان شخصى الضعيف لم يرفض تنفيذ القرار الجمهورى الا ليضرب المثل والنموذج للآخرين ليخالفوا ويعارضوا السيد رئيس الجمهورية ! « اديله » !! ولكن « الله أكبر » . .

● مقال منعته الرقابة ●

وكانت أحداث الطلبة ــ بعد قرارات هيئة النظام فى فبراير ٧٣ ــ لا تزال جارية .

وكنا نكتب عنها ، ونؤكد الثقة بالقيـــادة السياســـية . كنا ــ كدأبنا ــ ملتزمين . ننشر أخبارا وبيانات رسمية . نعلق . نوجه .

وتساءل البعض : لماذا لا نكتب ــ وبوضوح ــ مقالا نحلل فيه ما يجرى وندين الانحرافات المريضة ؟

ووجدت أنه من المناسب أيضـــا أن أكتب ــ وباسمى ــ فى الموضوع .

واعددت مقالا فى صفحة اليوميات ليوم السبت ١٧ فبـراير ٧٣ وتم جمعه واعد للنشر . كان المقال بنصه هو كما يلى :

« فى مثل هذا الشهر من العام الماضى ــ ١٩٧٢ ــ وعلى صفحة من صفحات « الجمهورية » عرضت فى « يوميات » عن « احداث جسيمة فى اسبوع عصيب » وجهة نظرى ازاء الأحداث الطلابية التى جرت فى يناير ٧٢ . ولعل ما كتبت كان له صداه فى الاوساط

الطلابية وغيرها ، وربما تكون قد وجدت فيه انصافا للشباب وللدولة . أو هكذا بدا لى .

وما زلت بعد عام كامل اكرر فى بداية هذه اليوميات ما انهيت به يومياتى السالفة وجعلته عنوانا لها « ان مصر فى كل سطر وفى كل كلمة وفى كل نفس يتردد » . و « مصر » عندى – وعند كل مؤمن بها وعاشق لها – لا يمكن أن تتحول – ولا ينبغى ابدا – الى تجارة كلمات .

على اننى أعترف بمشقة الحديث فى شأن الاحداث الطلابية الحالية ، على أهميته .

ولا تصدر هذه المشقة عن « خوف » من « اغضاب » احد من هنا أو هناك .. فى الدولة أو فى الاوساط الطلابية ، فلا احسبنى استهدف مثل هذا ، وقد تعودت التعبير عن افكارى «على سجيتى » بغير تكلف ولا ادعاء ولا مداهنة ودون أن تخوننى لا « الشجاعة » ولا فهمى «للالتزام» ، وتعود الجميع – فيما أظن – ان يتقبلوا ما أكتب على هذا الوجه كتابة «غير مغرضة» لاتبتغى سوى وجه الله ووجه الوطن ثم انها هكذا « تتسق » حرية القول والكتابة التى ندركها ونحمل مسئوليتها ويحميها لا القانون فحسب وانما « روح » هذا العهد التى هى أسمى ما تميز به وأعز ما نحرص على أن بحتفظ به .

غير أن المشقة ربما تجىء من كونه حديثا أتوخى ان ينطلق هادئا عاقلا – وسط جو انفعالى – وأريد به أن يصل الى الاسماع والى العقول والى القلوب .

ولقد تأتى المشقة كذلك من كونه حديثا معادا – وبعد عام كامل – وكان ينبغى أن نعى خلاله الدروس المستفادة لملء الفراغ السياسى بالأخص لدى الشباب ، فى حين أننا لم نبذل الجهد الكافى

في ذلك . وهذا التقرير ـ أى تقرير عدم بذل الجهد الكافى ـ لست الاحظه وحدى فحسب ، بل هو ما أبداه التنظيم السياسي نفسه كلون من الوان النقد الذاتى ، وهو أيضا ما انتهى اليه تقرير لجنة تقصى الحقائق فى مجلس الشعب .

وبعد ، فما هى القضية «بالتحديد» من وراء الأحداث الطلابية التى بدأت مع الأيام الأخيرة لشهر ديسمبر ٧٢ رما برحت قائمة ومستمرة حتى الآن ، والتى أشخص ـ من كل قلبى ـ الى أن نضع لها نهاية وتنتظم معها الدراسة تماما رحمة ببلادنا وكياننا ونظامنا وشبابنا ؟

من الغريب انه يمكن القول أن القضية هى أنه « لا توجد قضية » !

هل هى بداية « عنيفة » لكلمة اريدها هادئة ؟ ابدا ، هى فقط بداية صريحة محددة ..

فلعلى قد أفهم ردود الفعل فى أوائل يناير ١٩٧٢ ، وفى اعقاب سنة غلب الظن فيها أنها سنة الحسم .. واعنى بها سنة ١٩٧١ . أفهم ان يتساءل الشباب وطوائف الشعب وقتئذ ، وان يوضح الرئيس السادات لهم الأسباب الهامة التى دعت الى اعادة الحسابات .

ولكنى ـ حقيقة ـ لا اجد مبررا للتجمعات التى شرعت فى ديسمبر ٧٢ تكرر نفس ما حدث فى يناير ٧٢ .

ولست أعنى بطبيعة الحال أننى راض ـ أو أن احدا راض، وفى المقدمة رئيس الجمهورية ـ عن بقاء قوات الاحتلال الاسرائيلية فى سيناء ، أو عن امتداد سنة اخرى من عمرنا دون تحرير الأرض . لا احد يقول بهذا ، ولا احد أيضا يمكن ان يرضى بشن حرب خاسرة أخرى غير محسوبة ولا مستكملة الاعداد .

وأذكر ـ فى هذه المناسبة ـ انه قد اتسع لى صدر الرئيس السادات فى أغسطس الماضى عندما أبديت له بعض آراء قلقة حزينة عن حالة اللا سلم واللا حرب ، وأوضح ـ من موقع المسئولية الأولى والكبرى ـ أنه لن يسمح بأن يتعجله شىء قبل تمام استكمال الاستعداد للمعركة .

قصارى القول أنه برغم كل شىء لم يبرز شىء « حاد » كان يمكن أن « يكرر » الجو الذى تمخض فى يناير ٧٢ .

ومع ذلك ففى دسمبر ٧٢ بدأت « النغمة الاستفزازية » بمجلات الحائط وبالتطاول ثم بالتجمعات والهتافات من فئة محدودة فعلا .

الهدف : الاثارة . اثارة الآخرين .. واثارة الدولة .. واستمر التصعيد من جانب هذه الفئة ..

من هم ؟ وماذا يمثلون ؟ من الذين وراءهم ؟
أهم اليمين ؟ أهم اليسار ؟

ببساطة اقول ودون أن أتهم احدا بعينه ولا طائفة : انهم العمل غير الصالح . انهم الفوضى . انهم اتباع احلام ما بعد الطوفان . فمن ترى هؤلاء الذين يرغبون ويستفيدون من الطوفان ؟ ليست مصر على أى حال ..

و « الطوفان » يحاول تحريك كل من يقابله . يحاول استدعاءه واستعداءه ، انه يستخدمه ليغرقه ، وليحدث ما يحدث ثم يطفو ما يطفو .. لا يهم !

لهذا المدى يهون الأمر ، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

واعتمادا على « سلامة نيات » الآخرين تحركت هذه الفئة القليلة . وليكن هؤلاء الآخرون وقودهم وضحاياهم ابتداء وانتهاء .

فمع خلق التوتر والانفعال ثم الصدام سوف تصبح النتيجة متوقعة . وعلى حد تعبير الرئيس السادات « الاحتكاك مع البوليس نتيجته أمر طبيعي انه خيجرف قاعدة ضخمة من الطلبة» .

ان الشعار المرفوع والذى هو المحور الرئيسى للاحداث الطلابية الحالية هو : المطالبة بالافراج عن الطلبة الذين حجزتهم النيابة العامة رهن التحقيق ..

واذا سلم أحد – جدلا – بأن الحجز والمساءلة وتوقيتها كان يمكن أن يعالج بأسلوب آخر ، فهل يمكن ان يسلم انسان بأن « الشغب المدمر » يمكن ان يكون « رد الفعل » او أن يسمح له بفرض ارادته على القانون. وهل نتجاهل أن القانون لا يعطى للدولة « هيبتها » فحسب ، ولكنه يكفل ايضا للافراد الأمان فى ظل سيادته . وفيم « قضاء المحاكم » اذن اذا كنا نرتاب فيه و نصادر احكامه أو نضع القانون بين أيدينا ؟

واذا كان هذا النظام منذ حركة التصحيح فى ١٥ مايو قد عنى – اكثر ما عنى – بالشرعية وسيادة القانون وبتوفير كرامة القضاء التى يجب الا تمس ، كما حرص على عدم ابقاء معتقل واحد فى السجون ، الى جانب معاملة انسانية كريمة للذين تأمر النيابة بحبسهم تحت ذمة قضايا سياسية (وحسن معاملتهم شهادة اجماعية تؤكد أن مصر لم تشهد مثلها فيما تذكره الاجيال المعاصرة) فما هو المطلوب ؟ « لوى الذراع » والاستفزاز لاصابة هذه المعانى والقيم واخراجها عن مسارها الصحيح ؟

ولست أزعم اننا تحررنا تماما من « السلبيات » ، فما زالت « التقارير » ذات الطابع « البوليسى القديم » – للأسف – تلعب دورا ، ويلزمنا مزيد من الوقت والجهد والعلو على الصغائر حتى نتحرر منها ومن آثارها . ومع توفير مزيد من الجو الصحى لمجتمعنا سوف تختفى تماما هذه التقارير « الميكروبية » ..

سيادة القانون اذن هى « المظلة » الواقية . على أنه بالاضافة اليها من الضمانات العامة بالفعل ان الرئيس السادات هو أب حقيقى للأسرة المصرية ، وانه حريص ــ كما قال فى خطابه الأخير ــ على عدم اهتزاز القيم الاصيلة شكلا وموضوعا « مهما بدت من محاولات مصطنعة لابراز التناقض بين طبيعة المرحلة وبين مقتضيات الممارسة الديمقراطية فاننى قد اخترت الطريق الصعب : وهو انه لا عودة الى الوراء فى الممارسة الديموقراطية » . وان السادات حريص كذلك على الطريق الحتمى الذى اخترناه كأمة نامية وهو طريق الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى . وان السادات عفا كثيرا وسوف يعفو كثيرا ؛ مع عدم الاخلال بمقتضيات الحفاظ على سلامة الوطن وأمن الجبهة الداخلية بما يقتضيه ذلك من يقظة وحزم .

ولناخذ مثلا قرارات هيئة النظام للاتحاد الاشتراكى العربى . ولقد يرى البعض ان منها ما بدا متعجلا . واعتقادى الشخصى أن التظلمات من بعض قراراتها سوف تكون محل نظر ورعاية . واذا كنت أكن احتراما للهيئة ؛ فاننا ــ هيئة النظام وكاتب هذه السطور ــ نكن احتراما أشد للعدالة ولما شرعته من طرق التظلم والطعن والنقض .

وصدقونى أننى ــ واخلاصى للنظام ولقائد النظام هو اخلاصى لمصر وللحياة ــ اعتقد أن التعبير برايى هذا ونشره هما اكثر خدمة للنظام ولمصر وللحياة من السكوت عنه .

ولنعد الى الاحداث الطلابية الغريبة التى شهدها الاسبوع الماضى لنتساءل : ما هذا الذى ينساق اليه الابرياء .. والابرياء هنا تعنى القاعدة الطلابية والسلطة على السواء فى مواجهة ما كان اغنانا عنها لولا فئة مخربة ؟ ما الذى تصنعه مجموعات قليلة خبيثة تحرك به ــ فى سوء نية ــ ذوى النيات الحسنة وتخلق الصدام؟

لمصلحة من ؟ .. وكما تساءل الرئيس السادات — فى خطابه « طيب لمصلحة مين بلبلة الجبهة الداخلية وبلبلة الشعب عندنا ، واحنا بنلم نفسنا وبنلم كل شيء لمواجهة مصيرية قاعدين بنجهز لها ليل مع نهار .. لمصلحة مين هـذا كله » ؟ وتمضى هـذه المجموعات لتقتحم وتحـاول فرض ارادتهـا بالاضراب وبتعطيل الدراسة وبالتظاهر والخروج الى الشوارع وقـذف الطـوب والحجارة والاشتباك مع رجال الامن . ولن توجد دولة فى العالم تحترم نفسها وتحافظ على شعبها ثم تقف مكتوفة اليدين أمـام اضطرابات جانبية نزقة غير مسئولة .

ثم ما هذه الظاهرة الدخيلة المثيرة والاجرامية .. ظاهـرة الهتافات البالغة البذاءة والاسفاف ؟ وأقول « اجرامية » لانها بالفعل خرجت من دائرة « قلة الادب » الى صلب الاجرام فى حق الوطن والقيم . أن شعبنا يدين هذه الهتافات ومحركيها . يدين هذه الاساليب الدنيئة . يدين الخروج على المبادىء القويمة. يدين الاعتداء على الحرمات . يدين عدوان الابناء على الآباء . يدين شغل الجبهة الداخلية عن معركتها ضد العدو الاسرائيلى . يدين المحاولات المستمرة الرذلة المـرذولة لتعطيـل الدراسـة بالجامعات . ان عشرات الآلاف من طلبة الجامعات يرغبون صادقين فى انتظام الدراسة ويستأنفونها فعلا فيعـانون من شـطط و « شوشرة » المشاغبين اللامباليين المعتـدين على المحـاضرات وأساتذة المحاضرات . ماذا يقصد هؤلاء الفاضبون الاستفزازيون المهيجون .. ولم يبق من السنة الدراسية الا قرابة ستين يوما . ؟ اضاعة السنة الدراسية سدى عليهم وعلى غيرهم اذا استطاعوا ؟ ولصالح من .. مرة ثانية وثالثة ؟ ان العاقلين — وهم الاكثرية العظمى — سيفوتون الفرصة والقصد على غير العاقلين ... وليس العكس .

وعندما أناشد شبابنا .. أبناءنا طلبة الجامعات — وهم ابناؤنا جميعا — أن يسدلوا الستار على هذا الفصل المتوتر الغريب وأن ينتظموا فى دروسهم وفى نهل العلم وفى الاستعداد لأداء الامتحانات ، فلست ابدا أدعوهم الى التخلى عن اهتماماتهم الوطنية والسياسية والشبابية المتفتحة المأمولة لخير هذا الوطن ، بل على العكس الح عليها ما دامت تمارس فى الاطار السليم ، فان الشباب كان ولا يزال شعلة مصر الخالدة .

ويبقى أن نتعلم نحن ايضا الدروس لخير هذا الوطن .

ان اقسى الأمور على مصر أن يسرى تفتت فى جبهتها الداخلية ثم لا يعالج ، او يبدأ تراخ أو لا مبالاة او تضليل ثم لا يقوم تقويما .. مصر محتاجة الى شيء واحد هو النضال العام الواعى الدائب .

والذى أقطع به لاننى لا أملك سواه هو أن « مصر فى كل كلمة وفى كل نفس يتردد » .

وبها ولها وحدها أرضى ضميرى .. وأمانة القلم . »

غير أن « الرقابة » اعترضت على أجزاء من هذا المقال — الذى أنشره بنصه وبحرفه لأول مرة فى هذا الكتاب — وطلبت حذفها أو لا ينشر بصورته تلك .

وناقشتها واوضحت وجهة نظرى من ان المقال ينبغى أن ينشر كما هو لأنه « كل لا يتجزأ » .

اعترضت « الرقابة » على الحديث عن « هيئة النظام » وكأن ذاتها مصونة لا تمس ، مع أن الكلام عنها كان — كما هو واضح — رقيق ومهذب وتأكيد لسيادة القانون . واعترضت « الرقابة » على

ان الرئيس السادات سوف يعفو ، ولست ادرى ما الضير فى أن يقال انه عفا كثيرا وسوف يعفو كثيرا .. فهذه هى السمات البارزة والكريمة للسادات ، والتى ثبت انها تحققت بالفعل فى هذا الصدد . واعترضت الرقابة على الاشارة الى « التقارير البوليسية » مع أنها من سياق المقال ـ وهى فى الواقع كذلك ـ حقيقة نأمل فى البرء منها . والتقارير البوليسية لا تعنى اتهاما لوزير الداخلية مثلا ، فوزير الداخلية ـ فيما أعلمه شخصيا وفيما ثبت للجميع ـ كان موقفه ولا يزال كريما وانسانيا ومتفتحا واشتراكيا . غير أن حقيقة « التقارير البوليسية » ـ على المشهور ـ منسوبة الى « جهاز مجهول » يحاول ان يؤثر ويكيد ويطيح لأهواء تختار « الأوقات المناسبة » !

و « زعمت » الرقابة اننى ـ بالمقال المذكور ـ أهاجم هيئة النظام ! وعبثا حاولت توضيح وجهة نظرى من أننى لم أهاجمها ، مع انها ـ على العموم ـ ليست قوة اسطورية فوق القانون .

والنتيجة أن الرقابة اعترضت كما أسلفت ، وأن المقال لم ينشر ، ورفع من الصفحة فى الساعة العاشرة والنصف من مساء الجمعة ١٦ فبراير ٧٣ ووضع مقال آخر بدلا منه كان يوميات « عادية » مؤجلة ليست بقلمى !

● عود على بدء ..

● نغمة « مراكز القوى » ... « الشيوعية » ●

ولم ييأس « أصحابنا » بل ربما زادوا « هيجانا » و « هبشا » وضراوة فى النصف الثانى من فبراير ٧٣ .

وربما خالوا الطريق ممهدا ليرتاحوا من هـذا « العقبـة » مرة .. والى الأبد .

هناك « ملاحق » للقوائم الأولى .. ولا بد ان تتضمن اسم هذا « المحجب » .. وبأى ثمن !

وراحوا يفتشون ..

فجأة .. اكتشفوا انني كنت قد كتبت مقالا طـويلا عن التجربة الاشتراكية فى بلغاريا من واقع زيارتى لها فى ربيع سنة ١٩٧٢ . وكان عنـوان المقال « ماذا صـنعت الاشـتراكية فى بلغاريا ؟ ! » .

كان مقالا « مصريا » مائة فى المائة مع اعجاب بنجاح ملحوظ للتقدم الصناعى الزراعى الذى حققتـه بلغاريا فى ربع القـرن الأخير ، يشاركنى فيه كل من زار هذا البلد الصديق .

غير أن هذا الحـديث فى أعين البعض وفى القلوب المغرضة التى بها مرض كان « خطيئـة » كبرى .. و « شيوعية » مـع انى ـ مع ايمانى بحتمية الحل الاشتراكى الذى ارتأته مواثيقنا والذى يناسب بلدنا وظروفه الناميـة ـ من أبعـد النـاس عن الشيوعية بطبيعة تكوينى سواء كتبت هذا ـ وقد كتبته كثيرا ـ أو لم أكتبه .

ورحت اسمع فى « الكواليس » حكاية مقال بلغاريا هذه وتهمة الشيوعية التى أرادوا الصاقها بى .. بعد ان تذكروا فجأة المقال المذكور وكأنه « السهم المسموم الاخير » فى أيديهم !

ولم الق بالا الى كل ما يدور فى الـكواليس من هـذه الأقاصيص وما يحاك وما يضاف اليه من « تطريز » !

ولكن واحدا ـ سواء كان تابعا أو شريكا أصليا ـ سن قلمه وأعاد نغمة المتاجـرة بعبارتى « الخـلايا الشيوعية » و « مراكز

القوى » ، وبعث بها الى المدعى العــام الاشتراكى يحــرض على شخصى الذى ينفر بطبيعته من ان يكون او ينصــاع للخــلايا أو لمراكز بالمعنى المستخدم للقوى وللضغط !

غير ان المدعى العام الاشتراكى بعث الى بنص كتاب الموتور المذكور لأبدى فيه رأيى . وهكذا لم يتح « رجل القانون » الفرصة لكل من هب ودب ـ من العاملين فى الظلام ـ الا يسمحوا باضاءة الشموع !

فى ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، أى بعد اسبوعين من القوائم الأولى التى أسقطت فيها العضــوية من الاتحــاد الاشتراكى عن عــدد من الصحفيين وابعدوا ، انتهز الفرصة ـ والحديد حام ـ واحــد من هذه النماذج أراد أن « يوقع بى » ـ بأى كلام وبكل الإلغام ـ وكتب هذا «النهاز» للمدعى الاشتراكى يقول :

« أن بقايا مراكز القوى فى دار التحرير تتمثل فى العديدين الذين يشكلون شبه تنظيم خاص » .

« انه قد حدث مع الأسف الشديد استغلال للجو الديمقراطى الذى يرعاه الرئيس أنور السادات فى دار التحرير بالذات ، فقد اثبتت هذه الأحداث الأخيرة ان اليسار المنحــرف تمــركز بدار التحرير بالذات .. وان الاجتمــاعات كانت تعقد علنــا بجريدة الجمهورية بعلم وتحت بصر رئيس المؤسسة الحالى الى الحد الذى دفع لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى الى اصدار قرارها باسقاط عضوية بعضهم من الاتحاد الاشتراكى ، الأمــر الذى ترتب عليه ابعادهم عن حقل الاعلام . ولكن هذا الاجــراء نراه مــع الأسف الشديد اجراء ناقصــا لأن رؤوس الفتنــة ما زالت باقية فى مراكزها .. وهو ما لا ينبغى السكوت عليه بأى حال من الأحوال . ان الحقيقة المؤلمة هى أن دار التحرير ما زالت تسيطر عليها بقايا القوى السابقة وعناصر مختلفة من اليسار المنحرف التى تضرب كل القوى الوطنية . ونحن فى انتظار اجرائكم الحاسم » !

وببساطة أجبت بعرض حال صاحبنا ـ وبالأسانيد ـ من الألف الى الياء ، ثم علقت بما يلى :

« ان حق الشكوى والتظلم مبدأ مشروع بل مقدس ، وان كانت القداسة ينبغى أن تلقى عليه مسئولية الحفاظ على الموضوعية والتجرد . ذلك أن الحرص الجاد على هذه القيم يخدم أى قضية حتى لو كانت خاصة ، كما يخدم هذا المبدأ الجليل » .

« واذا كان الشاكى يتصور انه يمكن انتهاز الفرصة بعد قرارات هيئة النظام ليختم شكواه بما ختمه بها مشيرا اننى رأس فتنة مطالبا بتطهير الدار من هذا الرأس وأمثاله ، فانه ليس عندى ما أعقب به ـ بعد ما اوضحت ـ الا أن اقول : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وآه .. من « حفنة الجنيهات » المنشودة التى تحرك ، ومن « حفنة الواغش » التى تتربص .

على أن المدعى العام الاشتراكى اذا كان قد تصرف فى هذه الشكاية ـ والفتنة المزعومة التى جعلت منى رأس فتنة مطلوب قطعه وبتره ـ على هذا الوجه وطوى صفحاتها ، فان ثمة جهات أخرى كانت تفتح صدرها وتحتضن أمثال هؤلاء وتتأثر بهم ، وربما ترتاح الى همساتهم وتقاريرهم ، ثم تحاول بدورها ان تستجيب وأن تؤثر .. وأن « تبتر » هكذا جزافا !

وبالفعل ـ وفيما علمته من بعض الثقاة ـ نجحت « الحملة المدبرة » بعض الوقت وكادت تصل الى هدفها الحاقد ـ الذى استماتت من أجله ـ ووضع اسمى فى كشف المنقولين الى مصلحة الاستعلامات . وفى اللحظة الأخيرة وعندما علم الرئيس انور السادات أن اسمى مدرج فى القائمة المذكورة ـ وقبل أن تصدر

القائمة فى ٤ مارس ٧٣ ـ أمر بأن يرفع اسم الفقير الى الله تعالى من كشف المنقولين .. (وهذا ما أكده لى واحد من كبار الصحفيين المتصلين بسيادته) ».

لم يكن الرئيس يعلم بأن « الرقابة » قد تسببت فى منع نشر مقال لى أقول فيه « ما يخلص ضميرى » واقف مع مصر ، واقف معه . ولكنه كان كانما يعرف ويقرأ ما فى ضميرى ».

ولقد شرفنى الرئيس فى ربيع ١٩٧٣ وأبلغنى بلسان مستشاره الصحفى فى ذلك الحين ـ الدكتور أشرف غربال ـ تقديره لبعض ما كتبت . على أن امتنانى للسادات قد زاد بالتأكيد وبالعرفان عندما علمت بهذه الواقعة الكريمة التى منع بها « كتاب التقارير » من أن ينالوا منى ، ثم زاد امتنانى للرئيس أضعافا فى هذا المجال الصحفى الذى ينصف الصحفيين ، عندما عفا ـ أكرمه الله ـ عن الصحفيين المبعدين ـ وعن الشباب ـ فى أخطر خطبه التى مهد بها لمعركة العاشر من رمضان و ٦ اكتوبر » وأعادهم الى أماكنهم . فكانت علامة التعبئة المدنية الحقيقية للمعركة ، وكانت الوحدة الوطنية ، وكانت الروح الشفافة الصافية التى تمهد للمرحلة الجديدة المباركة الحاسمة ».

● محاولة « غير مفهومة » مع رفع الرقابة عن الصحف ! ●

وجاء ٦ اكتوبر .. جاء العاشر من رمضان »

وجاء العيد بعد العاشر من رمضان »

وكان العبور عيدا لمصر وللأمة العربية ، وكان عيدى الشخصى ».

ولا اظننى سعدت بشىء فى حياتى ــ علم الله ــ منذ أن تفتحت عيناى على الحياة مثلما سعدت بالعبور وبزحف القوات المصرية فوق حطام خط بارليف وتقدمها فى سيناء . ذلك اننى لم « أوجع » ولم « أتمرر » بشىء فى حياتى مثلما توجعت وتمررت بهزيمة ٥ يونيو .

وعشت المعركة مثل كل المصريين والعرب بكل وجدانى . وجدنا أنفسنا . وجدت نفسى . وكنت كلما أعطى عملى مزيدا من الجهد والوقت لا أبرح احس بأن الذى أقدمه وأشارك به هو اقرب الى « العدم » وأنا أشهد هؤلاء الذين يبذلون أرواحهم فى سبيل مصر وكرامتها وتحريرها ، فأعطى المزيد والمزيد .

وهان وابتعد كل ما عانيته على المستوى القومى وعلى المستوى الشخصى .

وانفعلت وكتبت ــ وكتب غيرى كثيرون .. زملاء أحباء رفاق المعركة ــ كل يوم وكل ساعة بكل نبضة من نبضات القلب لا القلم . وكانت مشاركة الصحفيين الذين ابعدوا ثم أعيدوا قبيل المعركة باسبوع واحد .. مشاركة عظيمة وفعالة ومتصورة وبالغة الوطنية . كانوا هم ــ على وجه التخصيص ــ من أهم دعامات المعركة الاعلامية المستنيره .

ولا يهم ما اذا كان ما كتبته « ثمانية على عشرة أو « ثلاثة على عشرة » . المهم انه كان خالصا لوجه الله ولوجه الوطن ، وانه غاية ما استطيع .

ولم اطلب ولم ارد جزاء ولا شكورا .

وفى اول يناير ٧٤ أصدرت كتابى « كلام عنا وعن اسرائيل من ٥ يونيو الى ٦ اكتوبر » .. ولان القضية حامية فقد نفد فى ايام قليلة ، وصدرت الطبعة الثانية قبيل نهاية يناير ٧٤ .

ولكن ـ كما قدمت ـ اذا كانت « القمة الاولى » للصراع قد بدأت فى النصف الاول من سنة ١٩٧٣ ، فان « القمة الثانية » للصراع بدأت مع النصف الاول من سنة ١٩٧٤ وكانت شديدة الالحاح والنعومة والخبث والضراوة بأمل ان تصبح الجولة الاخيرة والضربة القاضية !

فى ٩ فبراير ٧٤ امر الرئيس أنور السادات برفع الرقابة عن الصحف . وكانت فرصة حقيقية . وكان انجاز وعد . وكان انفتاحا يتفق مع انفتاح السادات للحريات وايمانه الصادق الاصيل بدور الصحافة وحرية الكلمة والتزامها معا .

غير انه حدث شيء بدا لى « شاذا » مع رفع الرقابة عن الصحف ، وبعد جهد جاد متصل بذلته فى العمل الصحفى .

قال لى واحد من « الكبار » أن الاتجاه هو أن فلانا يكون رئيس التحرير . قلت سأعهد اليه بمهمة تنفيذية وفرصة اكثر فى التحرير .

وفى اليوم نفسه عاد هذا الاتجاه الشاذ غير المفهوم ليقول لى هذا الفلان أن رأى هذا الكبير هو ان الفلان يصبح رئيس التحرير فى حين احتفظ أنا بمنصب رئيس مجلس الادارة « للتنسيق » !!

وعلى الفور وبغير تردد قلت لهذا الفلان الذى يبلغنى « رأى » كبيره :

ـ اسمع .. الذى عيننى هنا هو الرئيس السادات . اذا رأى السادات ـ وهو رئيس الاتحاد الاشتراكى مالك الصحف ـ ان يعين عشرة رؤساء تحرير لهذه الجريدة له ان يأمر بطبيعة الحال . اذا رأى السادات أن ينقلنى الى أى عمل خارج هذه الدار فهذا حقه . ولكن الرئيس السادات ، لا غيره .. فاهم ؟!

و « بلعها » المذكور و « خـرس » ، ولم يعد الاتصالات ..
ولم تتكرر المحاولات ، لأن النطق كان عن الهوى !
وتراجعت الموجـة ـ فى مرحلتهـا الأولى ـ التى أرادت « اكتساحى » بغير مناسبة .

ولم اتمسك بأى شيء حبا فى سلطان أو خوفا على منصب ؟ فالله اعلم ما الذى أكابده . قـد أكابده بشغف أو بمتعـة ولكنها مكابدة ـ ربما ليس لها نظائر كثيرة ـ على أى حال ! وانما تمسكت ووقفت وتصديت حفاظا على « الشرعية » .

وتساءلت بينى وبين نفسى : علام كل هذا ؟ وهل «الكرسى» الذى أوقدوا حوله نارا وجمرا يستأهل كل هذا التكالب والتآمر ؟ بل هل « الدنيا » نفسها تستأهل الحرص والترامى ؟

وربما تنازعنى شعوران .

شعور يقـول كما أبـدع عبقرى الشـعر العـربى « الشريف الرضى » .

وما المغبون الا من تولى   وما المغبوط الا من تخلى

أو كما قال عبقرى الشعر العربى الآخر « المتنبى » !

انى بما أنا باك منه محسود !

وشعور ينادى : حرام وعيب أن تتخـاذل وان تستسلم لذى هوى كبيرا أو صغيرا ، وان « تؤكل » على « مـائدة اللئـام » !
وانتهيت بين الشعورين الى أن المسائل ـ على أى حال ـ ليس من المألوف ولا المقبول أن تتم على هذه الصورة.. وبتلك البساطة .
ولم افزع . ولم أجز أى اتصالات .. فقط .. توكلت على الله .
وقلت لنفسى كذلك أن ثمة « غلابة » قد يكونون أمانة فى عنقى ، وان

كنت كثيرا ما اردد بالقلب واللســـان « يا ربـ...ـه ده آنا غلبـــان غلب » !

وجاء « الفلان » فى اليوم التالى يدعى الرضـــا ــ وهو غير راض ــ ويقول انه مستعد للعمل فى اى موقع كأصغر جندى ! كلام .. وما أرخص الكلام !

على أن « الفرصة التى أفلتت » منه لم أكن ادرى انها تفقـد الاتزان والتصنع ، وتطير العقل !

● سباب وسعار فى الهواء !! ●

وفى النصف الثانى من مارس ١٩٧٤ عاد الالحـــاح وعـدم الرضا .

قلت له :

ببساطة اننى لا أعمل رئيس مجلس ادارة مؤسسة استهلاكية بل مؤسسة صحفية ومهمتها السياسة والاعلام والرسالة الوطنية وأمانة الكلمة بالدرجة الأولى . ومن هنا تأتى مسئوليتى كرئيس للتحرير . اننى رئيس تحـرير الجـريدة المسئول أمـام الدولة مسئولية مباشرة . مسئول فى هذا وحدى .

واردفت قائلا :

ثم اننى ــ والحمد لله ــ أروض نفسى على التجـرد . على الحياد . لا اغلب طائفة على أخرى . ليست لى شلة . لا أمكن فلول اليمين الرجعى ، ولا أمكن أحدا من اليسـار المغامر .. اذا حاول . ولدى الحاسة الصحفية والسياسية والوطنية التى تجرد

اى كلمات من السموم ومن الجموح . وتنصح . وتوجه . لا يقيدنى شىء الا الالتزام .. ولعلى أفهم تماما معنى الالتزام . أننى لست أعمل لحساب أحد ولا لحساب اى جهة من الجهات . انما أعمل لمصر ولقضية العرب وللحرية والسلام .. وحسب .

كان كلامي واضحا ومباشرا وحاسما ، ولم يستطع ان يرد . انما وقفت الكلمات « كالغصة » فى حلقه ليفجرها بعد أيام سبابا وسعارا .. وكيف ، وأين ؟ غمزا ولمزا و « تلقيحا » في الجريدة التى أرأس تحريرها !

وقرأت « البروفة » قبل الطبع . وكنت أستطيع ان امنعها ، ولكنى لم أشأ ولم أفعل . كان يمكن أن أعتبرها « مهاترة » لا تليق . كان يمكن ـ وليس بالتسلط ـ أن أنظر اليها كاعتداء من مرؤوس على رئيس ومحاولة « لتحقيره » أمام الزملاء ولكنى لم أنظر اليها هكذا ، فضلا عن ان هذا « الفلان » ليس هو الذى ينظر اليه نظرة جادة ، و « التحقير » من جانبه مردود .. فلأترك له حرية الكلمة حتى لو كانت كاذبة مضللة مسمومة !

هذا فضلا عن اننى كنت مشغولا بشىء آخر اكثر أهمية . كنت مشغولا بقضية بالغة الخطورة تصديت لمواجهتها . وهكذا ظهرت كلماته التى لم يهتم لها أحد « فنحر » مرتين : الاولى بهزيمته فى اللقاء « المفحم » ، والثانية بأن كل محاولاته لتشويه الصورة ذهبت هباء .

ماذا قال هذا المضلل الطامع لحساب نفسه وحساب غيره ، الذى يكشف عن « سوءته » ويلقن كلاما لا يفهمه ولا يؤمن به ، والذى ربما يصدق عليه المثل « اذا جاء العيب من أهل العيب .. مش عيب » !

قال

« ما أحوجنا ـ جميعا ـ لأن نعى كل ما قاله انور السادات ، بعد حرب ٦ اكتوبر ! ما أحوجنا لأن نستوعب معانيه ، ونستخلص اتجاهاته ومؤشراته ! ما أحوجنا لأن نبتعد بفكرنا عن شوائب كثيرة ، وأوهام كثيرة ، ما زالت عالقة به ، وما زالت تدمى كثيرين وتعزلهم !

واخيرا .. ما أحوجنا لأن ندرك ـ جميعا ـ اننا نعيش مناخا جديدا ، لا تربطه بأى مناخ سابق ، سوى الذكرى والعبرة !

ورغم كل ما يجرى من تعديلات للأساليب المشينة التى اتسمت بها مراحل سابقة .. ورغم كل ما يتخذ من خطوات ، فى اتجاه تصحيح الاخطاء .. ورغم كل القرارات التى تتخذ على أعلى المستويات ، للقضاء على آفة الآفات فى حياتنا : المركزية ! رغم كل هذا فما زال البعض يعيش على أمل اعادة التاريخ الى الوراء .. ويكدس السلطات والاختصاصات ـ بلا مبرر سوى الفزع ـ فى يده ويتجرأ صائحا : « أنا .. وفقط » !

ان مثل هذه النماذج ، يجب الا نترك للدولة أو التنظيم السياسى ، أمر مقاومتها .. انها جراثيم تقتضى مقاومة شعبية ، بلا تخاذل أو استرخاء !

وما دمنا نتحدث عن الآفات ، والجراثيم : فالنماذج التى يمكن أن تقدم ـ فى هذا المجال ـ كثيرة !

هذه النماذج ، لا تفلح معها الا وسيلة واحدة : مصحات التطهير !

والمناصب الكبيرة ، لا تخلق الرجال ، ولا تنمى شخصياتهم ولا تطور كفاءاتهم .. ولكنها ـ ببساطة ـ تكشف احجامهم !

وما أكثر من يتحـدثون عن الشرف ، ويصنفون أنفسهم بين الشرفاء .. رغم عوراتهم الواضحة ، امامهم ، وأمام الجميع !

وهناك من يتظاهـرون بالايمـان والتقـوى ، بينمـا تمتلىء قلوبهم بالحقد والكراهية .. ولا يعملون تفكيرهم ، الا فى الايذاء والظلم ! » .

وهكذا ظن أنه شفى غليله .. ولم يشف ، وانه نال منى .. ولم ينل !

ولقد تكون « صغرنة » ينبغى الا يرد عليهـا حتى لا يعتبر الرد « صغرنة » على صفحات الجريدة ، ولكننى — آخر الامر — لم أشأ أن « أفوت » الحكاية — وكم فوت له الكثير من قبل مما لا موجب لان اعرض له هنا — بغير أن أتناولها بكلمتين .. واحذره ايضا !

وفى اليوم التالى كتبت هاتين الكلمتين المختصرتين الخالصتين عن « بتاع الجرائيم » و « بتاع التحريض ومصحات التطهير » :

« لا تغضب اذا اتهمك أحد بأنك تدعى التدين ، وتتظاهر بالتقوى والصلاح ، وانك « تصـلى الفرض وتنقب الأرض » ! لا تحزن اذا راح هذا الأحد « يقنع » بسلطة الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيقول : هذا مؤمن قد حسن ايمانه واسلامه ، وأنت غير مؤمن ! اذا كنت من المتظاهرين المنافقين — وأعيذك ان تكون — فمت كمدا انك « انكشفت » ! واذا لم تكن الا انت ، وكنت تخشع لله وحده ، وتجأر أن يصبح ما بينك وبينه عامرا ، وتعلم ان حساب الايمان والعمل الصالح عنده — عز وجل — وانك لا تقدم الحساب لغيره .. فدع هذا الأحد يمت كمدا . او اقول لك ما هو افضل : سامحه وامض فى سبيلك ، فالتسامح

من جوهر الايمان وروحه والعمل الصالح ، وصلى الله على النبى الكريم محمد .. وقد أوذى من قومه واتهم بما اتهم به فقال : اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون ».

طيب .. وماذا اذا أخذ أخوك الصغير ـ ولعلك كنت حتى عهد قريب بمثابة « ولى أمره » أو ربما كنت تعطيه «مصروفه» ـ أخذ يتهمك « بالحقد » ـ يا سبحان الله ـ لأسباب غريبة و « غير مفهومة » ، وقد تكون «هبلاء» أو «مهتبلة» ، ومؤداها أنه يريد ـ هكذا ـ أن يصبح « هو الكبير » و « أنت الصغير » ؟! هل تقول له : عيب يا ولد ؟! أم « تشد اذنه » ؟ أم تتهم نفسك بأنك لم تعرف ان تربيه ؟ !

ربما كانت نصيحتى ان تعتبرها « فلتة لسان » مؤقتا ، وتضحك ! نعم .. حتى لو كان شر البلية ما يضحك ! » .

غاية الأمر اننى اكتشفت فى تلك المرحلة ـ أى النصف الثانى من سنة ١٩٧٤ ـ اننى فى أعماقى « مقاتل » .. والمقاتل لا يمكن ان « يتاكل » بارادته ! وبدت كانها عدوى من مقاتلينا فى الجبهة ! وقد كان هـذا الاكتشـاف ـ وممارسته ـ أشـد ما أدهش و « فرس » وخلخل حسابات الكائدين المتآمرين !

● تعالوا الى كلمة سواء ●

قلت فيما تقدم اننى كنت مشغولا بقضية بالغة الأهمية .. فيما ارى . واننى كنت قد أعددت مقالا لاواجه به موجة غمز ولمز وطعن لا مجال للمقارنة بينها وما تمثله من مخاطر ، وبين

هذا الغمز الصغير الذى كان « يتحدقن » به « الصغير » !
الفرق هو بين السماء والأرض . من اكون ؟ لا شيء مذكوراً على سبيل التأكيد أصلا ، ثم من باب أولى بالمقارنة بقضية الثورة والوحدة الوطنية ومصر والعروبة وكل المعانى الجليلة التى كان يتهددها اللاعبون بالنار .

كنت أعد مقالا لينشر فى اليوم نفسه الذى نشر فيه هذا « الصغير » على الناس « طوية نفسه » ، يعلمنى – على آخر الزمن – ما هو الايمان بروح ٦ اكتوبر ، وكأنه عاشها بأحاسيسه كما فعل المناضلون الحقيقيون وكما فعلت الغالبية الساحقة من الشعب المصرى والعربى التى كانت تترقبها كالمهدى المنتظر ، وكما فعلت ..

كان مقالى يحمل عنوان « تعالوا الى كلمة سواء » وهو المنشور فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

كتبته لوجه الله تعالى ، وحبا فى مصر وحفاظا على الثورة وعلى قائد الثورة .

لم تكن ثمة رقابة . ولكن ربما كان ثمة « خيانة أمانة » تتربص وتتواطأ وتحاول أن تؤجل النشر او تمنعه . ومن هنا فلعلى لا أذكر انني « فرضت سرية » على مقال نشرته أو حتى خبر الا فى تلك الليلة التى أعددت فيها هذا المقال للنشر .

ووالله ما تصورت ان فى كتابته مخاطرة من جانبى . كلمة شجاعة .. ربما . كلمة مطلوبة .. مؤكد . ولكن أن اسمع من البعض بعد نشره قولهم : لقد خفنا عليك بعد أن قرأنا ما كتبته ؟ خافوا من ماذا وممن ؟

ووالله ما تصورت انه سوف يحدث هذا الأثر الواسع والصدى البعيد . ربما جال فى خاطرى بعد نشره مباشرة انه

سوف يقرأ بعناية واهتمام وانه سوف يتقبل . اما ان يلقى كل هذا التأييد والحماسة والتناقل والتعليق فى كل مكان فهو ما لم يرد على خاطرى وما لم اقصده . انما قصدت شيئا واحدا : ان أحاول وقف « الموجة الملعونة » رحمة ببلادنا وبتاريخنا وبثورتنا وبجيلنا . وفي هذا أعتقد أن « توقيت » نشر المقال لعب دورا حاسما ، وهو بالفعل ــ اى التوقيت لا الاجادة ــ مع الصدى الواسع والتجاوب أهم معالم المقال التى اكسبته قوة ضاربة دخل بعدها المتآمرون الشقوق !

والغريب ان التعليق الوحيد « للصغير الموتور » على مقال « تعالوا الى كلمة سواء » ــ وقد أحس تماما بأثره .. وكم أوجعه واغاظه ــ انه قال لى ذات مرة وبعد أيام من نشره :

ــ ان طلبة الجامعات قد علقوا مقالك على مجلة الحائط !

هكذا النفوس الصغيرة ، وكيف تفكر وكيف تومىء وكيف تتمنى أو تحاول أن تدبر !

ويا ساتر .. يا رب !

وليس من قبيل التفاخر أن أقول ان مقالى نشر ــ بعضه أو كله ــ فى معظم صحافة العالم .. وبالأخص البلدان العربية ، وطيرته وكالات الأنباء على الفور .

ولا هو من قبيل التفاخر أن أقول أن عدد المحادثات التليفونية او البرقيات والرسائل التى تلقيتها تأييدا للكلمة السواء قد بلغت الآلاف ، وكان بعضها يتحدث باسم مجاميع وآلاف ..

ولا من قبيل التفاخر ايضا أن « الجمهورية » اكتسبت معه احتراما اكثر ومتابعة .

وكان لا بد أن أكتب فى الاسبوع التالى عن هذا الصـدى ؛ فكتبت الكلمة التالية باسم الجمهورية لأن « الكلمة السواء » لم تكن ذاتية بقدر ما كانت تعبيراً عن راى الجمهورية وراى الجموع . كتبت بعنوان « وأثمرت الكلمة .. » ما يلى :

« فى يوم ٧٤/٣/٢١ دعت « الجمهورية » الى كلمة سـواء خالصة لوجه الله ولخير الوطن ..

ولم يكن هذا الذى حاولت أن تحسمه « الجمهورية » غريبا عليهـا ولا « بالغ الجـرأة » كما وصفـه البعض ، فلعلها كانت ستكتبه حتى لو أن « الرقابة » كانت قائمة على أى حـال ! ذلك أن هذه الجريدة المناضلةكانت وسوف تظل دائما ـ بمشيئة الله ـ جريدة الشعب والحـرية والاشتراكية والوحـدة .. أو ليست « الجمهـورية » ابنـة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . أو لم يكن الذى أسسها هو عبد الناصر ، والذى رأسها منذ البداية وفى أخصب سنواتهـا الأولى هـو السـادات ؟ فـكيف ـ بالله ـ لا تقف « الجمهورية » الى جانب الحق والشعب والثورة وعبد الناصر والسادات ؟

على أن الدعـوة « الى الكلمـة السـواء » ما كادت تنشر ، وتتلقفها القلوب قبل الايدى والأبصار والأسماع حتى وجدت بعد وأكرم صدى فيما يتذكره العاملون « بالجمهورية » منذ سنوات طويلة ..

ولا تريد « الجمهورية » أن تسترسل فى الحديث عن آلاف ـ نعم آلاف الآلاف ـ الاتصالات والمحادثات والبرقيات والأحاديث والتعليقات والرسـائل الكريمـة من كل مـكان ومن كل فئات الشعب وقطاعاته التي تسـامعت ـ لا قـرأت فحسب ـ والتى

تجمع على الكلمة السواء . قد يكون من نافلة القول ـ بل من عدم مناسبته ـ أن نعرض « للتحايا » وكم كانت كثافتها وسخاؤها من جانب القراء كل القراء ، و « للامتنان » من جانب « الجمهورية » ، ذلك لأن المسألة اذا اطالت فى هذا الشأن ربما بدت « حملة دعائية » بينما لا هى ولا « الترويج المصطنع » مستهدفان ـ ولا مشتبه فيهما ـ ابتداء وانتهاء . أن الدعوة ـ ببساطة ـ لم تخرج عن كونها تلاقى مايجيش فى صدور الشعب مع منبر يحاول ان يعبر عن احاسيس الشعب وضميره .. وان بقى « للجمهورية » ـ ولزم ـ ان تقول للقراء الأعزاء : اهلا .. وشكرا .

غير أن « المهم » بالفعل هو انحسار موجة الغمز والطعن فى ثورة ٢٣ يوليو وفى جمال عبد الناصر بالسفاهة والعدوان .. حسمت القضية ، وكان الفضل الأكبر لحسمها هو للرئيس السادات الذى القى بتصريحاته القاطعة لمجلة « التايم » « دشا باردا » على الذين حاولوا التفريق بين ٢٣ يوليو و ١٥ مايو ، وبين عبد الناصر وبينه ، فى حين أن الثورة واحدة ومصححة ، والقيادة ممتدة ومتطورة . وكان نصيب « الجمهورية » أن تضع النقط على الحروف وعلى « بلاطة » ، وان تدعو الى كلمة عادلة ثورية تحريرية سواء . ولعل الكلمة أثمرت . ولست أريد أن أضرب « نماذج » للتحول الذى طرأ على بعض الأقلام « الشاردة » ، فهو لا يغيب عن فطنة القارىء . كما اننا نتجنب الخوض فى التفاصيل حتى لا يلوح « احراجا » أو « منا » بينما قصد السبيل ـ والكلمة السواء ـ هو التوصل الى الجو النقى والوحدة الوطنية فى ظل معارك تحرير الأرض التى لم نفرغ منها بعد ..

وبورك فى هذا الشعب المصرى والعربى ، وفى ثورته وآماله ، وفى قائد ثورته وآماله ... » .

● ملحـــوظة عامـــة :
الـكاذب الأكذوبة !! ●

قد يلتقى المرء فى حياته بكذابين عديدين ، ولكن لعل كثيرين من الكذابين ليسوا هم انفسهم أكاذيب ، أو لعل كل كاذب هو فى نفس الوقت اكذوبة ! لعله يستعين بالكذب ليصنع من نفســه شيئا مذكورا ووعميا فى حين انه لا يمثل شيئا .. لا طاقه حميدة ، ولا مواهب ذكية ، ولا قدرة محترمة . قد يمثل « هنكره » . قد يضع فى فمه « السيجار » ليبدو أنه مهم أو من كبار القوم أو من العارفين العليمين ببواطن الامـور . قد يحــاول شراء الناس بالكذب مـرة وبالوعــود مــرة اخرى . قد يدعى براعــة « الحرفية » .. والحرفية عنده قد تستند الى خواء فهى والعدم ســواء ! . قــد « يمثــل » انه « حيثية » من حيث انه مجــرد « اكــذوبة » تكشف الايــام ان وجــوده كعــدمه . أو ربمـــا كان وجوده من المعــوقات . فبغيره الشمس تطلع .. أو لعلهــا تكون أكثر اشراقا وأكثر اجــادة فى اداء رســالتها ! الشمس لا تغيب لغياب احد مهمــا يكن ، فكيف اذا كان هــذا الاحد من العاملين فى الظلام ؟ !

ما علينا . هذه قد تكون « فلسفة » أو « تفلســفا » ربما ليس هنا موضعه ، وربما كانت هذه الصفات من صميم صفات كثيرين ممن يحاولون اطلاق الرصاص واطلاق الشائعات واطلاق الاوهام انهم على صلات !

● ودارت الأيام ●

ودارت الايام . « الصغير » يتحــالف مع « المقهــور » فضــلا عن « سنيدة » وربما « مهيجين » من الخارج ! الهدف واحــد !

كيف يمكن القضاء على هذا الذى ابتلوا به ؟ !

بالاشاعات ؟ خذ اشاعات بغير حساب .. ولكن لا فائدة ؟

« بالتشنيع » .. خذ تشنيعات « بالويبة » ـ والخيبة بالويبة ـ فمثلا يجلسان ليشنعا اننى هبطت بتوزيع الجريدة الى الحضيض . هكذا جهارا نهارا « عينى عينك » بغير حياء ، وانما بكل الحقد المرتد الى نحورهم لأن الأرقام معروفة ومعلنة ورسمية ومتصاعدة .. ولكن ماذا تقول فيمن فى قلبهم مرض ؟ !

بمحاولة الحصول على ما يتصوورونه « مستندات » ظنوها خروجا على الخط الرسمى للدولة ، وبالتالى يمكن أن توقع وتودى بى ؟ لا يستطيعون .. لسبب بسيط هو اننى لم اخرج عن الخط الرسمى والسياسى للدولة .

بتصوير تأشيرات داخلية وادارية ؟ اننى لم أخجل ابدا من اى « تأشيرة » ، وليتها تنشر على الملأ ! بل أن بعض الاصدقاء عرض ان أعطيه حق نشر كتاب طريف يحوى هذه التأشيرات !

ولكن لا بأس من الافتعال ثم تقديم تقرير ملتو عسى أن ينفعهم أو يتخذوه سندا ! ولربما لاح لهم هذا الخاطر من واقعة أو « وقيعة » حدثت فى مؤسسة أخرى فى النصف الثانى من مايو ٧١ وادت الى لبس وسوء فهم انتهيا باقصاء رئيس مجلس ادارة المؤسسة المذكورة فعلا !

ولأول مرة يكتب « الصغير » كلمة على بروفة مقال ـ وليس على ورقة منفصلة ـ يطلب الرأى فيه .

المقال كان مقالا متفتحا واشتراكيا لواحد من كتاب « الجمهورية » ، وكان قد رؤى تأجيل نشره فى الاسبوع السابق لضغط اخبارى ملأ الصفحات .

كتب « الصغير » على بروفة المقال ما يلى !

« ارجو الافادة بالراى بالنسبة لهذا المقال المؤجل » .

واردت ان « احبس دمه » كما « أحبس دم » الجهات « غير المسئولة » التى يمكن أن يقدم اليها البروفة وأفكاره المتحفظة « الحريصة على مصلحة الدولة » ثم « تأشيرتى » والتى سيقدم بها جميعا تقريرا ـ فيما يمكن أن ينتويه ـ بغية « المتاجرة » و « الاطاحة » و « الوصول » .

واشرت بما يلى :

« لن تكون « الجمهورية » فى ظل حرية الصحافة اقل مما تمثله دائما فى تاريخها من ابداء الرأى والذى هو فى اطار مواثيق الدولة وثورة يوليو . وقد نشرت مؤخرا آراء قريبة من ذلك فى « الاهرام » وفى غيرها . لذلك أوافق على نشر هذا المقال » ووقعت ولكنى لم أقع !

كان هذا هو الأسلوب « الناعم » الذى تخصص فيه « الصغير » . والنعومة غالبا ما تكون مداهنة وخبثا وتربصا ..

اما الأسلوب « الغليظ » الذى « يتشنج » به « المقهور » فلن اطيل فيه كثيرا .. فقد عرضت لجانب منه فيما تقدم . وبقى أن اتناول هنا قصة التقارير العلنية ـ لا الخفية ـ التى يهدد بها !

طاح « المقهور » وقذف في عدد من كتاب الجمهورية . وكان من حقهم أن يردوا .

ونشرت التعقيب والتوضيح . وفى « العدد » نفسه عادالمقهور ـ مرة أخرى ـ ليكيل السباب لمن اعتدى عليهم أول مرة .. ولكنى بطبيعة الحال وجدت أن الجريدة على غير استعداد أن تجعل من هذا الخلاف شبه الشخصى « حلقات مسلسلة » وذلك

حفاظا على كتابها وعلى القراء وعلى الجريدة نفسها . لا اعتراض على الأفكار الموضوعية ، فالحرية فيها مكفولة ولا مصادرة عليها فى أطار سيادة القانون ومواثيق الثورة . ومن هنا ـ وبغير تعنت ابتداء وانتهاء ـ لم أوافق على أن يعود مرة ثالثة فيكتب فى ذات الموضوع ويهاجم زملاءه بعد أن أتحت له ـ آسفا ـ فرصتين ولم أتح لهم سوى فرصة واحدة . ومنعت الجزء من مقاله الذى تناول فيه بالقذف ـ للمرة الثالثة ـ الزملاء ، وأبلغته بذلك .

وكتب « المقهور » الى خطابا يتوعدنى !

قال :

« تقررون ـ بما لكم من سلطة ـ حذف الجزء الأكبر من مقالى بدعوى انكم اغلقتم باب المناقشة ، ولما كان هذا الحذف يسىء الى المعنى ، كما يسىء الى أسمى ، كما يسىء الى مبادىء الحرية الصحفية التى قررتها سلطات الدولة ومؤسساتها الدستورية ، فقد رايت أن أسحب المقال كله محملا اياكم مسئولية هذا التصرف الشخصى الغريب ، محتفظا بحقى فى عرض الموضوع برمته أمام الجهات المسئولة » .

الجهات المسئولة ؟ اى جهات تلك التى كان يريدها ! قبل ٢٣ يوليو أم بعد ٢٣ يوليو ؟ قبل ١٥ مايو أم بعد ١٥ مايو ؟

وحكاية المهاترات والتعريض بالأسماء ـ حتى بالحق ـ فى الصحف والمجلات غير مقبولة كثيرا ، وليست مناسبة على علاتها . انها اذا جرت فى الصحف السيارة ، وبالذات فى نفس الصحيفة الواحدة وبين كتابها ، . فأمر غير مألوف وغير حميد .

وفى مرحلة التحالف بين « الصفير الموتور » وبين « الغليظ المقهور » حدث شىء طريف حقا .

« نفخ » الغليظ فى الصـغير فاخرجه عن نعومته .. وعلا صوته لاول مرة « ليفرض » مكانا متصـدرا للغليظ لم اكن قد وافقت عليه لأن ما جاء فيه لا ينبغى أن يتصدر !

وقلت للصغير :

ـ لقد سبق وقلت انني لا أوافق على ان تكون « الشكل » هكذا .

فأجابني على التلفون .. والغليظ الى جواره « يهيجه » :

ـ ولكنى انا موافق ..

قلت :

ـ لا يهم أن تكون موافقا ، لانك لست المسئول . واذا أردت تصعيد الخلاف فانى مستعد الى أبعد مدى ..

وعندما فشلت هذه المواجهة من جانبه وخشى أن يـكون « مش قدها » ، لجأ الى اغرب اسلوب شديد الجهل والجهالة ولكنه يسفر عما تريد « اصطناعه » هذه الشاكلة من الخلق .

قال الصغير منفعلا أو مدعيا الانفعال :

ـ انت تكتب علىالبروفة « لقد سبق أن أشرت بأن ينشر هذا المقال فى صفحة ٥ وليس صفحة ٣ » . ان كلمة « أشرت »هذه لا يقولها سوى رئيس الجمهورية !!

واجبته فى صوت هادىء وحاسم :

يا سلام ؟ من هذا الذى علمك آداب اللغة العربية ؟ من هذا الذى دربك على الصفة الوحيدة التى يظن بعض الزملاء انك يمكن ان تعمل فيها : وهى كتـابة الأخبـار ؟ بل من هـذا الذى يمكن ان يوضح لك ويفهمك الفرق بين الاسلوب اللطيف فى

المخاطبة والاسلوب الحاد ؟ هل تظن أن كلمة « اشرت » محجوزة لرؤساء الدول ؟ وما هو الدافع لك لان تقحم صفة رئيس الجمهورية فى هذا الموضوع ؟ تهديد .. مثلا ، دون أن يكون ثمة مناسبة أو حتى لياقة للزج باسم السيد رئيس الجمهورية فى الموضوع ؟ هل تريد أن « تلبسنى » تهمة مثلا ؟!

وهل اذا قلنا مثلا ان الرئيس قد ادى صلاة الجمعة فمعنى هذا اننا لا نقول عن غير الرئيس انه يؤدى صلاة الجمعة ؟ وهكذا تناول طعام العشاء الخ ؟! وما الذى يفعله مستشار مثلا؟ افهموا .. ان كلمة « أشرت » التى كتبت اليك هى البديل الرقيق لكلمة « أمرت » أو « أصدرت تعليماتى » ، ولعلى أملك أن آمرك ، وأن أصدر اليك التعليمات !

وانتهى الحديث التلفونى الغريب . واجتمع على الخط الآخر « المتعوس على خايب الرجا » وهما يضربان أخماسا لاسداس ، وليعود الصغير فى اليوم التالى الى نصومته ، وليستأنف المقهور غلظته !

● وبلغ السيل الزبى ... ●

وتعير « المسرح » فى الثلث الأخير من ابريل ٧٤ !

ولن ادخل فى تفاصيل ما جرى مع تغيير المسرح ولا قبيل رفع الستار الجديد ، ولا كيف أراد من أراد أن يوقف حركة عقارب الساعة ، أو يتعبد فى محراب « صنمه » ويضع صورته فى اطار واسع قليل الذوق عديم الفهم أو التقدير !

لن ادخل فى رواية ذلك كله ، فقد كان صغارا صغارا ، وفجاجة فجاجة !

غير أنه مع ذلك ووفقا لمبادىء « الانتهاز » الشهيرة ، فان البعض لا يستحون اذا فاتهم « عنب الشام » أن يهرولوا ليدركوا « بلح اليمن » ! وعادة ينتهى بمثل هذا النوع من الناس أن يصدق عليه مثل « لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن » !

والحيلة التقليدية « للانتهاز » هى الكذب والنفاق والدس !

وتحاك « حكاية خيالية » ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا « تشبه » لطبيعة من حيكت ضده ، ولكن القصد هو استفزازا من يراد استفزازه ضده ، فمن يدرى ؟ ربما ! .. نعم .. ربما « يغمز الطعم » هذه المرة ، وينجح التشويه الخفى الجديد مادام لم يفلح التشويه القديم خفيا كان أم علنيا !

وتناقلت الألسنة الحكاية .. وباستغراب شديد !

ولكن أراد الله لها أن تنكشف وأن تفتضح سريعا .. وأن يتبين « الافك » أمام كل الأطراف المعنية !

لماذا بالله كل هذا « التهالك » ولحساب من وماذا ؟ ولماذا لا نسلم الأمر لله ؟ لماذا لا نؤمن به حق الايمان وحده لا شريك له ؟ فما أعظم وما أسمى التوحيد الخالص .

وفى « التوحيد » وقبل أن أعرف « حكاية الأفك » الذى صدق فيها قول العزيز الحكيم « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم » .. قبل هذه الحكاية بأيام قليلة كنت قد كتبت « فى كلمتين » بالصفحة الدينية ما يلى :

« لو فهم الناس « التوحيد » كما يجب أن يفهم ، ولو آمنوا بالله عز وجل ايمانا خالصا لا يشركون به أحدا ، ولا تشوب ايمانهم شائبة طمع فى انسان او خوف من انسان آخر او تسلق ووصولية

باليشر — لو حدث هذا لشفينا من كثير من امراضنا الاجتماعية .. ان لم نشف منها كلها ! ومن هنا كان التوحيد قمة الايمان واصفى حلاوته . هناك الشرك الاكبر الذى قال عنه تعالى فى محكم تنزيله « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. وهناك الشرك الأصغر الذى تقترفه النفوس الضعيفة اللهوفة .. ولا اريد أن اقول عنه اكثر من انه يثير الاستهجان ، كما ان أسلوبه يؤكد يوما بعد آخر انه لا يفيد .. بل ينقطع وينفصل آخر الأمر شأن كل ما كان لغير الله !

أولاد البلد يقولونها : « كن مع الله » .. أى لا تكن محسوبا أحد بل كن مخلصا لعملك الصالح وتوكل على الله . ويضيفون « من كان رزقه على الله فلا يحزن » . واتباع هذه الأقوال الحكيمة — على صعوبته — ليس أمرا مستحيلا ، بل هو ممكن ومريح لمن القى السمع وهو شهيد !

ولا اكتب هذا من فوق منبر وعظ متعال . ولا ابرىء نفسى . ان هى الا « محاولات تسامى »

لم عرفت الحكاية

تأكد لى أن « الصغير الموتور » كان قد نزع « برقع الحياء » تماما ، ولم يعد يطيق الصبر على من صبر عليه . عرفت انه « حرق الزرع » ! حرق المراكب والكبارى ! « تمزق » .. ثم « روج » أننى « مزقت » ما لم أمزقه ! ثبت انه أراد لى أن « أؤكل » على المائدة « الجديدة » !

وكان أول رد فعل أن امسكت بالقلم وكتبت « للصغير » رسالة شخصية اقول فيها :

« لم اكن اود او اتصور ان تصل الامور الى هذا الحد .. حاولت جهدي أن أروض لديك نوازع التطلع والسيطرة وتعجل الوصول بأي ثمن ، وبالتالي الإطاحة بي ، ولكن ذهبت كل محاولاتي وجهودي سدى .. للأسف الشديد ، ويبدو أنني كلما كنت أتسامح بل انصح في محاولة تناسي ما يجرني ، واعطي الفرصة تلو الاخرى ، وارغب في أن يشيع صفاء الأنفس ، كان الأمر يقابل منك بامعان في التوحش المستور والجهير ، حتى وصل الى حد من التدهور والبشاعة لا يمكن السكوت عليه ، بل لا يمكن معه أن تؤتمن .. »

غير انني لم اكمل تلك الرسالة ونحيتها جانبا .

كان قد « بلغ السيل الزبى » ، بحيث لا يصلح معه الا المواجهة المباشرة والشاملة !

ولمدة ساعة وفي هدوء شديد ، جرت واحدة من اغرب المواجهات المباشرة المفحمة التى عرفها التاريخ .. أو تاريخ الصحافة المصرية على الأقل !

قلت :

لقد تبين لى — وربما متأخرا جدا — انك لم تعرف الصفاء معى طيلة سنوات تسع ! هل أسأت اليك ؟ بالقطع لا ! هل احسنت اليك ؟ اظن — وبغير من — أننى فعلت .

وتناولت الاساءات من جانبه عبر السنوات وبالأخص فى المرحلة الأخيرة . وعرضت لما قدمته له عبر السنوات من رعاية — وحتى من حماية — وذلك حتى النفس الأخير الذى اراد ان يكون نفسى الأخير فعلا !

ووقفت طويلا عند اليوم الذى أنفعل فيه وكتب على صفحات الجريدة ما كتب من شتائم يقصدنى بها .

■ لا افهم روح ٦ اكتوبر !

■ اتجزأ وأصيح « أنا وأنا وحدى » .. ومثلى « جرثومة » لا يصلح معها الا القضاء عليها بالمقاومة الشعبية !

■ ادعى التقى والصلاح وقلبي ملىء بالظلم والحقد الخ .. الخ .

وفى كل فقرة كنت أتلوها عليه من « كتاباته المحمومة » كان يصاب بحمى جديدة يحاول أن تكون « عكسية » ، ويقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يكن يقصدنى بأى كلمة مما كتبها !

وأعيد عليه فيعيد القسم !

واقول : لست ساذجا لتخفى مقاصدك عن عينى وعن عقلى

ولكنه يصمم ويحلف ويحلف اننى لم أكن مقصودا بما كتب

ثم أضعه فى « كورنر » :

ـ اسمع يافلان . لقد كتبت ما كتبت فى أعقاب نقاش دار بينك وبينى حول « سلطاتك » وافهمتك اننى رئيس التحرير المسئول أمام الدولة وقلت لك بالانجليزية اننى فى هذه المسئولية المباشرة the one and only وأنت تقول فى كلماتك « الذين يتجزأون ويصيحون : أنا وأنا وحدى » . فهل يمكن أن تقصد بعد هذا الحديث احدا سواى ؟

ووقع فى الفخ و « زنق » فى « الكورنر » ، فلم يجد بدا من الاعتراف !

قال :

الحقيقة اننى قصدتك بهذا الكلام ! اننى « استفززت » كنت قد قلته لى !

قلت :

آه ! قصدتني بهذا الكلام ! اذن فلنا « الجـرثومة » التي لا يصلح معها الا القضاء عليها بالمقاومة الشعبية ! لماذا ؟ لأنني احسنت اليك ! لأنني طوعت لك حـرية الحركة ! لأنني ـ فيما أتصور ـ لم أضرك بشيء !

واضفت :

ومع هذا فيشاء السميع العليم أن كل محاولاتك للطعن في شخصي والتباهي بقـدراتك « وذكائك » الذي تتخيـله .. كل هذه المحاولات فوتها عليك ـ وبالمصادفة البحتة ـ مقالي الذي كتبته ونشر في نفس العـدد الذي أفصحت فيه عن خبايا نفسك وأردت تشويه صورتي ولم أمنع محاولاتك ، ولكن الله وحده هو الذي يعطي ويمنع.لم يلتفت كثيرون لما كتبت. عني الجميع بهذا المقـال الذي صـدر ونشر في الصفحـة الأولى وترحلت بقيتـه الى الصفحة الخامسة ثم بقيـة الى صفحـة الوفيات . وربما كنت رئيس التحرير الوحيد الذي داب على نشر الجزء الأكبر من مقالاته في صفحة الوفيات وبالبنط الصغير وبغير أن « أفـرد لها » مع الصفحة الأولى الصفحة الثالثة ! ومع هذا .. « مش عاجب » ! « مش عاجبك » !

واستأنفت الحديث في « القمة الدرامية » . قلت :

انني لا أستهدف صيتا أو شهرة .. ليست الصحـافة عندي سبيلا الى جاه أو سلطة . انني فقط أحاول أداء خدمة لوطني ورسالة . ولست « باقيا » على شيء ! لم أقم لنفسي قصرا منيفا أو فيللا متواضعـة أو حتى « شقـة تمليك » ! ما زلت أسـكن بالايجار في الشقة نفسهـا التي كنت أسكن فيها قبـل الثورة .. لا أريد لنفسي شيئا . ولست حريصا على موقعي في الصحافة

فلشد ما عانيت وتعبت . غير اننى ـ على أى حال ـ مقاتل
ولا أؤكل بسهولة او باستسلام ارادة ! واذا كانت المصلحة العامة
تقتضى أن اترك مكانى فى الصحافة واستريح ما بقى لى من عمر
فلا غضاضة . على أنك أردت الاساءة الى ولكن الله لم يرد .
« فرقع » مقال « تعالوا الى كلمة سواء » الذى كتبته لوجه الله
والوطن والثورة وقائد الثورة ، واصبح حديث الناس فى كل
مكان ، دون قصد منى أو تدبير . ولم « يفرقع » ما كتبته أنت .
ربما تكون أنت الذى « فرقعت » ! طيب . ماذا أصنع فى ذلك ..
وما حيلتى ؟ اقول كما يقول أولاد البلد ويكتبونها على سيارات
النقل والأجرة « لا تتعجب .. فانها قدرة الله » !

ومضيت أستعرض الوقائع ..

وهو يتمتم ببضع كلمات كأن يقول : ستثبت لك الأيام مدى
الصداقة التى أحملها لك !

صداقة ؟!! انها موجودة والخير كثير فى دنيانا أكثر مما
يتصور كثيرون ، ولكن فى هذا الموقف يمكن أن يعلق المرء
بقول « يا للغول والعنقاء والخل الوفى » !

ثم انتهيت « بحكاية الافك » الحاسمة !

وقلت : أظنك بعد هذا كله تعذرنى اذا كنت اقول لك اننى
لم أعد اطمئن اليك .

قال : أعذرك !

وأضاف :

ـ اننى أقبل أى قرار تتخذه تجاهى ! هل أقوم باجازة ؟
هل أستقيل ؟

قلت : لا اطالبك بأجازة أو باستقالة . انني عملت بنفسي وبزملاء عديدين ، ولسوف أعمل بنفسي اكثر وبالزملاء العديدين .
وعاد يؤكد ثلاث مرات :

ــ انني اقبل اى قرار تتخذه سيادتك !

وكان القرار الذى لا بد منه ولا غنى عنه ولا خيار ، والذى اراده .. بل وربما استهدف ما هو ابعد منه !

غير أن « القبول » الذى « أكده » لم يكن واردا ، وانما هو مجرد « فك مجالس » وتصور « وضع كمائن » !

● انــذار على يــد محـــام ...
« بانحدار الى حضيض العدم » ●

فى تلك الآونة كان هناك ما « يبيت » !

لقد بلغت الموجة أوجها وقمتها !

موجة « ممـــوهة » مخططـــة مصممـــة الا تنتهى الا وقد « اكتسحتنى » ورأتنى « أنحدر الى حضيض العدم » !

وشجع عليها « الصفير » .. و « تشجع » ، ونسى اللون الباهت والأصفر الذى امتقع به خلال الســـاعة التى أنصت و « أفحم » بها أمامى ، والتى انتهى فيها .. وانتهى منها بقبول اى قرار من « سيادتى » !

وكان يفرك يديه وينتظر !

وفى أثناء ذلك « لا مانع » من أن « يتسلى » باطلاق « القذائف الموجهة » !

لقد تجاوزت واعتبرت قذائفه السابقة « فلتة لسان » .. وذلك « مؤقتا » ، وقلت : فلأضحك .. وأن كان شر البلية ما يضحك !

أما هذه المرة فليكن أكثر وضوحا واصرارا بغير « فلتات لسان » وانما بلسان محام « مظلوم معه » .. وعلى صورة انذار !

■ زعم أن « قرارا » صدر بتعيين هذا الموكل « الصغير » « رئيسا للتحرير » وابلغت به ! وان الذى عين المذكور « يملك ذلك » ! (ولقد « عدد » وعدد حكاية رئاسة التحرير « الأملة » هذه و « المرموقة » و « غير المتنازع عليها » فى انذاره خمس مرات بالتمام والكمال !) .

■ قال : أعطيتم لانفسكم – بغير سند – صفة رئيس التحرير فى ذيل القرار ، واسبقتموه بذكره فى صدر الجريدة !!

■ قال : ويبدو أن سيادتك تظن أن لك من السلطة فى النقل النوعى ما لم تملكه ، وأن تعيينك لنفسك رئيسا للتحرير أيضا لا تملكه !!

فهل يمكن فى تاريخ « المحاجاة » – ولا اقول الانذارات هنا – والأوضاع المعكوسة أن يكون ثمة شىء اغرب من ذلك ؟!

طيلة ثلاث سنوات تصدر الجريدة حاملة اسم رئيس تحريرها فى صدرها – وما علينا من سنوات طويلة سابقة عليها – ولكن الفرض الذى هو مرض رأى أن كل ذلك « بغير سند » !

ولماذا « السكوت » على هذه المخالفة التى لا تستند الى شىء ؟

هل هذه الجريدة نشرة سرية لا يراها أحد من المسئولين في الدولة وفي الاتحاد الاشتراكي العربي الذي يملك الصحف ؟

وبدا كأنني خلال سنوات متصلة مجرد « غاصب » و « واضع يد » و « متطفل » !

أما « الشرعية » ـ بغير غصب ولا تطفل .. بل « بالسند » كله ـ فهي مجرد « تلميحة » يومىء بها واحد من الناس ممن رأوا شخصيا ما رأوا أن الاتجاه هو أن هذا « الصغير » يكون رئيس التحرير .. الشيء الذي لم يعتمده أحد والذي قلت فيه ما قلت ـ شفاهة وعمليا ـ ما تقدم ذكره !

ولله يا قانون .. ولله يا زمرى !

ولقد طلب « الصغير » ـ بلسان وكيله ـ التعقيب على الانذار !

وجاء التعقيب بعد ٤٨ ساعة . جاء به الله سبحانه من فوق سبع سماواته .. ولا معقب لأمره !

● وكفى بالله وكيلا ●

نص قانون نقابة الصحفيين الصادر في سنة ١٩٧٠ على عدم قبول أي أحد للاشتغال بالصحافة الا أن يكون حاصلا على مؤهل عال ، فجعل بذلك « العلم الرسمي المعتمد » شرطا للقبول في عضوية نقابة الصحفيين ، ولم ير ـ بطبيعة الحال والعدالة ـ أن يمتد نطاق هذا الشرط بالأثر الرجعي .

وهو اتجاه صحي ومنطقي وعملي بغير شك ، يتفق مع تقدم العلم ـ وضرورته ـ ومع تطور الحضارة .

فمن غير المعقول أن تكون « الهـواية » وحـــدها ـ وحتى « الفهلوة » أحيانا ـ هى سبيل الاشتغال بالصحافة . ومن غير المقبـول أن يكون « ســاقطو الشهادات » أو حمـلة الشهادات المتوسطة هم حملة الأقلام فى الصحافة المصرية فى مرحلة العلم والتخصص والاجادة والجدية .

وربما ـ وحتى قبل صدور القانون المذكور وشرطه هذا ـ كان عدد حملة الشهادات العليا من أعضاء نقابة الصحفيين قد تكاثر فرجحت كفتهم .. بل كان هذا هو ما حدث بالفعل وبطبيعة الامور .

وربما ـ بل من المؤكد ـ كان من بين أعضــاء النقــابة غير المؤهلين بالشهادات العليا من هم أساتذة كبار وأعلام حقيقيون ورواد عظام . ولكن ذاك زمن .. وهذا آخر !

غير أن « الزعماء » من بين « الواغش » الصحفى ـ وعدد الواغش قليل جدا ـ تغلب عليهم صفة انعدام الشهادات وانعدام الضمائر ! وهؤلاء بالذات من « ابطال » العمل فى الظلام..وهم الذين تولوا كبر المؤامرات التى حاولت أن تدبر لى ولغيرى . ومن الغريب أنهم ـ ويا سبحان الله ـ يقولون عنى فى ندواتهم الصغيرة : هذا الضابط !

وخلال شهر أبريل ١٩٧٤ وقف أحـد منهم أمام ميكروفون الاذاعة يتحدث عن الصحافة فى مرحلة الحرية والانفتاح ورفع الرقابة . وسألوه ـ لا فض فــوه ! ـ ما هو الشىء الذى تراه واجبا فى هذه المرحلة ؟ قال : « الشىء الوحيـد المطلوب هو أن تكون قيادات المؤسسات الصحفية .. مدنية أى غيرعسكرية » ! ياسلام ! ظريف جدا !

وبمناسبة رفع الحد الأدنى للاجور الى ١٢ جنيها وهو القرار الذى اتخذه الرئيس السادات فى عيد العمال ـ أول مايو ٧٤ ـ كتبت ما يلى :

« عملت أول ما عملت ضابطا بالقوات المسلحة ١٢ سنة ، ثم اشتغلت بالمحاماه فالصحافة منذ سنة ١٩٥٥ . ورغم أن الصحافة هى مهنتى المفضلة ، ورغم ما « ينفث » به نفر من « ساقطى البكالوريا » فى الوسط الصحفى .. وكانما الانتساب الى الجيش فى مرحلة هو « وصمة » « تشجب » العمل الصحفى .. مع انه بالتأكيد شرف كبير ، فان أعز أيامى وذكرياتى سوف تظل دائما هى تلك التى أمضيتها بالجيش فى باكورة الشباب . وعندما أعلن الرئيس السادات اول امس أنه قرر رفع الحد الادنى للاجور الى ١٢ جنيها « سرحت » فى هذا الرقم .. فقد كان هو مرتب « الملازم الثانى » لدى تخرجه فى الكلية الحربية ولمدة سنوات ، وظل كذلك ـ فيما أذكر ـ حتى عام ١٩٥٠ ! ومع تسليمى بارتفاع تكاليف الحياة فى ربع القرن الأخير ، فكيف لا نحيى رئيس الجمهورية الذى رفع الحد الأدنى لأجر أى عامل صغير الى مستوى مرتب الضابط الصغير .. أيامنا ؟! » .

غير أن الشهر نفسه ـ شهر مايو .. وبقدرة الله عز وجل ـ شهد هزيمة المتآمرين من ساقطى البكالوريا وأشباههم ..

والسجود لله آناء الليل وأطراف النهار لا يكفى شكراوتسبيحا « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. وكتبت فى ختام الشهر تلخيصا لما كان يجرى وللموقف فى كلمتين ما يلى :

« قالوا له : أنت لا تعلم ماذا كان يكيد لك من يكيد بالباطل والغيظ و « الوصولية » .. و « بالهلضمة والحشكلة والحنجلة » !

قال : الله اكبر ... وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

قالوا : ولا تدرك مدى الضراوة الغريبة التى كانت « تغلى » فى الخفاء حتى لتكاد تتمنى أن تراك جثة هامدة !

قال : فوضت أمرى لله . و « أن الله يدافع عن الذين آمنوا » وأرجو أن أكون منهم .

قالوا : وقد اجتمعوا ودبروا و « أشاعوا » و « أوشكوا » ..

قال : « الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

قالوا : سلاح « حسبنا الله ونعم الوكيل » عظيم ، ولكن الا ترى أن تفتح عينيك وتتنوع بأسلحة أخرى ؟!

قال : عيناى وعقلى وقلبى ـ والحمد لله ـ دائما في « انفتاح» وأما اضافة أسلحة أخرى ، وانا ادعو دعاء خالصا أن يكون الله عز وجل وكيلى ، فلو أن لى ملء الأرض اموالا ـ ولا اطمع في شيء منها ـ وملء الأرض قوة ـ ولا اريد ولا استطيع . كما لا يستطيع احد ـ فالجواب هو سؤال الرحمن الرحيم القادر المهيمن : « أليس الله بكاف عبده » ..

وكفي بالله وكيلا .. وكفي بالله وكيلا .. وكفي بالله وكيلا !!

وعندما « انحسرت » الموجة ، وتشنج من تشنج ، وهبط من هبط ، هدأت المسائل وتراجع من تراجع ... صغر أم كبر (وربما الى حين ... ليس يهم ! فالله أكبر) ...

. . . .

. . . .

وكان هذا مسك الختام ... وتعقيبا آخر « بشريا » على

« الصغير » ووكيله اللذين ارادا التعقيب على « الانذار الرهيب » ! كان الله العلى القدير بالمرصاد .

● اعترافات .. واعتذارات !! ●

الآن وقد انتهيت من كتابة قصة التجربة الساخنة التى يمكن ان تسمى « كواليس فى الصحافة المصرية » أو « كوابيس فى الصحافة المصرية » فى صراحة قد تكون جاوزت الحد ، ووضعت كثيرا من النقاط فوق الحروف وأغفلت نقاطا وحروفا أخرى ، فلابد لى من الاعتراف والاعتذار !

■ اعترف أننى كنت « جريئا » فى العرض جراةغيرمالوفة وربما أكثر مما يجب .. واعتذر .

■ أعترف اننى كنت منفعلا فى تناول ما جرى من كيد وتعويق واستفزاز ودس رخيص احاط بى وبزملاء مفترى عليهم من حولى ، وقد أكون معذورا فى رد فعلى المنفعل عندما امسكت بالقلم وكتبته ، فى حين اننى كنت طبيعيا ـ خلال ما كان يحدث ـ اقرب الى الهدوء والاتزان اعالج الموقف بشىء من الحكمة وبكثير من السخرية والابتسام ، كأنما حين رحت أجمع خواطرى وذكرياتى فى هذا الباب من الكتاب كان قد « فاض بى » فكان ما يشبه « الاحتدام » .. غير أن الأمر ـ على اى حال ـ قد يقتضى أن أعتذر .

■ أعترف أننى قد لا اكون بدوت « منفعلا » فحسب وانما تجاوزت لشبه القسوة و « السخرية المرة » التى عرضت بها لهذه النماذج ، وربما بدا نوع ما كتبت فى هذا الباب من الكتاب مختلفا كثيرا أو قليلا عن نوع ما تعودت كتابته فى الابوابالثلاثة

السابقة . ولو علم القراء مدى القسوة الضارية التى تعرضت لها خلال شهور طويلة وسنين - ولعلهم يكونون أدركوها مما كتبت - وأرادت أن « تشيبنى » أو « تشنقنى » ربما عذرونى .. ومع هذا فمن شطحات القلم .. أعتذر .

■ أعترف اننى - وربما لم يكن هناك مفر - بدوت «شخصيا» فى كثير مما جاء فى هذا الكتاب ، ولكنها « قصة حقيقية » لا تتكامل الا بأن « يتواجد » فى سياقها راويها نفسه بذاته فى طابعه الشخصى والعام . اننى اواجه « ظاهرة » اذا لم تكن « متفشية » - والحمدلله - فانها قائمة وينبغى أن تسلط عليها الأضواء . واقوى تسلط عليها هى الأضواء وليس على شخصى لأننى - وأشهد الله على ما أقول - بعيد وعازف عن الأضواء ، وسوف أحرص على ذلك ما حييت . على أننى فى هذا كله - و « بعشم » فى قراء هذا الكتاب - مطالب بالاعتذار .. وأعتذر .

■ اعترف اننى نتيجة «الناحية الشخصية» التى أشرت اليها فى الفقرة السابقة قد ألوح مهتما بذاتى أكثر من المألوف ، أو معجبا بها حتى ليظن اننى شديد الاعتزاز بها أو الاغترار . والعكس صحيح - والله أعلم بالسرائر - فاننى بالغ الاهمال لنفسي ، ولا احتمل أن يمضى أصدقاء أو زملاء فى الثناء على أى موقف لى فأغير الموضوع على الفور . قد أكون شديد الاعتزاز بكرامتى ... ولكن هذه قضية أخرى . ولمن يظن أننى أسرفت و « تنرجست » .. أعتذر .

■ اعترف اننى أطلت كثيرا ، وتطرقت الى جزئيات وتفاصيل قد يرى البعض أنها «مملة» أو «غير هامة» أو « غير مناسبة» ، ولكنى تصورت أنه بغير هذه التفاصيل الدقيقة لا تتكامل الصورة مع أن القصد هو أن ألم شتات هذه الاحداث بكثير من جزئياتها

وخلفياتها حتى تتكامل الابعاد وتتضح الصورة. هذه، كما قدمتها قصة حقيقية ولا كذب . عشتها وعناصرتني ــ وعصرتني ــ وعاصرتها ، ثم جمعتها وصفتها بأسلوب قد يكون صحفيا أو روائيا أو شاعريا أو تحليليا أو حادا محتدما أو ساخرا أو بسيطا او ذاتيا أو خليطا من ذلك كله . قد تكون اقرب في صياغتها وأسلوبها الى موضوع من « أهم » الموضوعات التي طرقتها وكان « اعترافات » على صورة يوميات نشرت في سنة ٧٢ ، وحملت عنوان « كل شيء ولا شيء في الخمسين » بمناسبة بلوغي سن الخمسين . فهذه هي أيضا أقرب الى الاعترافات واليوميات ، وهي أيضا يمكن أن تسمى « كل شيء ولا شيء عن الصحافة المصرية » ! فاذا قال قائل : وماذا يهم الناس من أمرها ، ومن تفاصيلها ، وحكاياتها الجانبية ، و « ديالوجاتها » الخ ، فلربما كان الرد عليه : اذا لم تؤخذ على انها مفيدة للمجتمع ــ والهدف أن تفيد ــ فهلا يمكن أن تؤخذ على انها رواية أو دراما قد تحوى لمحات من الفن الروائي ــ اذا حوت ــ كبعض ما ينشر من قصص وروايات طويلة ؟! على انه لمن يرى ما يرى من انني تجاوزت بالتفاصيل ، أو شغلت الناس بما قد لا تكون ثمة ضرورة له أو فائدة منه .. اعتذر .

■ اعترف انني ركزت على السلبيات التي التقيت بها والتي ترصدتني في الكواليس ، في حين أن الايجابيات والعناصر المضيئة أرجح وأوفر وأكثر حركة ، ولولاهم ما احتملت.. ولولا وقوفي الى جانبهم ووقوفهم الى جانبي ما مضيت على الطريق . هم اذن الأصل .. والثناء عليهم وضرب الأمثلة والحديث عن النماذج الطيبة التي يمثلونها ــ على اهميته ــ قد لا يكون محتاجا الى أن يذكر كالتعبير الانجليزي it goes without saying ولكنني على اي حال قد أرى أن في كشف و « تعرية » العناصر السلبية والسيئة القليلة الاخرى « خدمة كبرى » « للتفاح غير »

المطوي ». ولقد كنت في أوائل سنة ١٩٧٣ وعدت ـ أو تمنيت ـ أن أكتب كتابا كاملا عن جريدة الجمهورية : « قصتها . كفاحها . الحملات التي شنتها . الحملات التي تشن عليها . تياراتها . المحصلة التقدمية الاشتراكية التي مثلتها وسوف تمثلها دائما . تحليل مادتها وكتابها واتجاهها . ظروفها ومشكلاتها . الذين يكيدون لها من الخارج ومن الداخل . الذين يتفانون في حبها وفي التعاطف معها ولا يكفرون بها أبدا . ابناؤها الصابرون الأوفياء البررة من عمالها ومحرريها وموظفيها . الداخلون والخارجون . المتسلطون البغاة . العقلاء الحماة الايجابيون . لماذا يرتفع توزيعها حتى يصل الى أكثر من ضعف توزيع أي جريدة أخرى ، ولماذا ينخفض . الطرائف . القفشات . الحواديت . الخ الخ » . ويبدو انني سبقت بشريحة ـ كانت ملحة ـ من الجانب السلبي .. ولو كان في العمر متسع فلسوف أعكف بمشيئة الله على كتابة قصة جريدة الجمهورية مع تركيز خاص على عشرات ومئات المخلصين المتفانين الايجابيين .. وبالأسماء . ومن هنا ولعدم العرض التفصيلي لايجابيات القاعدة العريضة في هذا الباب .. أعتذر .

■ أعترف انها ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يكتب فيها « بابا عريضا من كتاب » رئيس تحرير صحيفة عن الصحيفة التي يراس تحريرها حتى الآن . وانه قد تكون صدرت كتب أو مقالات تمثل ذكريات رؤساء تحرير عن مرحلة سابقة في صحيفة راسوها وتركوها او ما زالوا فيها ، ولكنها ذكريات موغلة في القدم . أما أن يكتب رئيس تحرير بابا من كتاب عن أحداث طازجة ـ وما زالت ساخنة ـ فجديدة .. وغير مالوفة ! وربما كتب محررون عن رؤساء تحريرهم قدحا او مدحا .. أما أن يكتب رئيس تحرير عن « بعض » ممن التقى بهم وحاولوا « ايذاءه » ـ وايذاء غيره كثيرين ـ من الداخل أو من الخارج ..

فجديدة ايضا وغير مألوفة . وما أحسبنى « متهما » أمام الرأى العام او امام الرأى الخاص حتى يظن اننى أحاول ابراء ساحتى . انما حاول المعتدون والمتهمون الحقيقيون أن يخرجوا من « القفص » ـ ومن الجحور ـ ليجلسوا فوق « المنصة » وليضعوا القانون بين أيديهم .. لولا سيادة القانون ، ولولا قدرة الله . ومن المؤكد أن قصد الكتاب ليس هو « التشهير » ـ بصرف النظر عن أنى تجنبت الاشارة الى أى اسم ـ وانما هو مساهمة فى محاولة « التطهير » . واقول التطهير .. وليس الفصل أو الأبعاد .. فكل نفس بما كسبت رهينة . والأمل فى وجه الله واسع فى أن يثوب من يثوب .. و « ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فالى هؤلاء الذين يظنون أن فى هذا الباب من الكتاب خروجا عن المألوف أو نشر لغسيل « غير نظيف » ، مع انه محاولة تنظيف .. أعتذر ..

وبعد ...

لقد اقتبست فى مقدمة هذا الباب حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام . وقلت ان القابض على مسئولية فى الصحافة كالقابض على الجمر . وأردفت ان ما أعرض له من « حكايات » صريحة هو امعان فى القبض على الجمر .

واذا كنت فيما تقدم قد اعترفت واعتذرت ، بما اعترفت به واعتذرت عنه ، فقد بقى أن أقول كلمة أخيرة فى هذا المجال هى بالفعل « سر » هذا الباب المنشور على الناس فى كتاب .

لا أحسبنى فيما أصدرت من كتب ونشرت من دواوين شعر الح على مثل هذا الاحساس الذى ملكنى وكأنه « هاتف غالب » أو كما يقال بالانجليزية obsession كما حدث معى

فى هذا الكتاب ، وبصفة خاصة فى بابه الرابع عن التجربة الساخنة !

كأنما اردت قبل أن يدهمنى الموت ـ والموت حق فى أى لحظة ـ ان أفصح بما عندى . الا اكتم الشهادة . ان « ابرىء ذمتى » . ان أقول كلمتى وامشى . أن أحكى حكاية التيارات المختلفة الغريبة وغير الغريبة داخل الوسط الصحفى . أن ارفع الستار من واقع التجربة التى عايشتها وتحملتها ـ وعايشها غيرى وتحملها أو دفع ثمنا غاليا ـ عن جوانب خفية فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة . أن أكون كما احب وكما تعودت أن اكون ـ ولو كان فى هذا بعض الاسراف أو المخاطر ـ « ما فى قلبى على لسانى » . ان « اجمع » الطلقات « الفارغة » التى صوبت على كثيرين من الابرياء المظلومين وهى تشير الى بصمات مطلقيها .

ولا استطيع ان أعتذر لنفسى بأى شىء اذا احجمت عن هذا كله أو اجفلت . لا عذر لى فى الكتمان . حرام ان اتصور أن امامى « داء » ثم لا اشير اليه واكشف عنه حتى لا يستفحل . وقد يرى من يرى ـ بتفكير عكسى ملتو ومغرض أو غير ملتو وغير مغرض ـ ان الداء كامن عندى وليس هو ما أشرت الى نماذجه فى هذا الباب من الكتاب . ولا ضير . المهم أن تضاء الأنوار وتظهر القضية ، ثم الحكم للجماهير ... وللتاريخ .

التجربة الساخنة لا تزال ساخنة . وكما قد يقال أن الكتابة عن مثل هذه التجربة أمر « غير مسبوق » ، فقد يقال أيضا أنه « سابق » على أوانه . بل قد يتساءل سائل : هل رسالة الصحافة المصرية فى هذه المرحلة ـ وفى غير هذه المرحلة ـ تستحق الكتابة عنها ؟ أو بعبارة أخرى : هل « العناء » فى الصحافة يستأهل « عناء الكتابة » عنه ؟

وانني اعتقد ان رسالة الصحافة – شأن مناحي الحياة المصرية الأخرى – جزء من المعركة . بمواجهتها النكسة . بأوضاعها . بنضالها . بتضحياتها . بعيدها الذى جاء بعد العاشر من رمضان . بامتدادها . بكونها لم تنته بعد . بأنها صراع اجيال . ببلورة المبادىء فيها والقيم . بأن نميز فيها الخبيث من الطيب . بكثير من الأرض المشتركة لأنها الأرض المصرية العظيمة نفسها التى ظلمت والتى يجب أن تصلح وتنتصر . وكما يجب ان تسجل تجربة المعركة ، فلعله ينبغى أن تسجل كذلك تجربة الصحافة . ولا « احتكار » فى هذه أو تلك ، فمجال الكتابة والتسجيل والاجتهاد والتحليل مفتوح للجميع بلا قيد ولا شرط فى ظل الحرية .

وعزائى .. اذا كنت قد تنكبت الصواب فيما كتبت ؟ ورضاء نفسى .. اذا كنت قد أصبت ، انما هو القصد الذى يجيش فى ضميرى : وهو اننى فى هذا الكتاب – وفى هذا الباب – على باب الله . كلمات اكتبها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى ، وأتعبد فى محرابه داعيا لمصر الغالية حقا ، وللأمة العربية التى ستظل مصر دائما قلبها النابض وقلعتها الحصينة الأمينة .. ولقومى .. وللصحافة ورسالتها التى وهبت مصر من خلالها زهرة العمر بقدر ما استطاع أن يثمر .

واننى لأعلم أن الصعاب التى تنتظرنا جد كثيرة ومتفاقمة فى التحرير وفى التنمية والبناء والتعمير والرخاء .

لقد جاء العاشر من رمضان لعام ١٣٩٣ – السادس من اكتوبر ١٩٧٣ – بأول « عيد نفسانى » لمصر وللأمة العربية كانت فى اشد الحاجة اليه ، منذ هزيمة يونيو ٦٧ ، لاستعادة الثقة بالنفس . وتلك « شحنة » هائلة هى أشبه « بالشرارة » التى تشعل صاروخا

دقيقا محكما حميدا « متعدد المراحل » ولا بد أن يصل الى هدفه .

والله يعلم أن الهدف النضالى لهذه الأمة المصرية والعربية هو الحرية الشاملة والسلام الشامل .. العدالة الشاملة والرخاء الشامل .

والأمة المصرية والعربية تنطلق « باشعاع النقاء » السكامن لتجاهد نفسها ، وتستقتل بضرورة و « حق البقاء » لتجاهد أعداءها .

وهي فى هذا كله تتوكل على الله العزيز الحميد القوى القاهر .. وتعمل .

وكفى بالله وكيلا ..

المحتويات

صفحة

تقــــديم ٧

الباب الاول : الذين جاءوا بالعيد بعد العاشر من رمضان ... ١٥

قاتلوا بشجاعة .. وتحدثوا ببساطة ١٧

العام الذى شهد الحدث الكبير ٢٣

وكلهم أبطال ٣٨

شهور خلف خطوط الأعداء ٤٣

من يدفع الثمن ؟ ٤٨

هكذا جاء يونيو الجديد ٥٧

الباب الثانى : الحرية والاشتراكية والوحدة ٦٧

كلام عن حرية الصحافة ٦٩

كيف نعالج أمراضنا الاجتماعية ؟ ٧٦

تعالوا الى كلمة سواء ٨٥

أيها العرب اتحدوا ٩٧

قراءة فى ورقة أكتوبر ١٠٧

توجيهات فى الصميم ١١٩

الأمل قائم .. ولسنا نخدع أنفسنا ١٣٠

الباب الثالث : المعركة لم تنته ١٣٩

الفصل بين القوات بداية ١٤١

التعمير والتحرير ١٤٨

معانى خطاب شجاع حصيف ١٥٠

لم يعد يونيه يوجعنا ١٦٥

جاء نيكسون .. ثم ماذا ؟ ١٦٩

الباب الرابع : تجـربة ساخنة فى الصحـــافة المصرية .. ١٨١



عبرنا الهزيمة
وحققنا النصر

المقاولون العرب

عثمان أحمد عثمان وشركاه





رقم الايداع ٤٠٤٣/٧٤
مطابع شركة الاعلانات الشرقية

بعد العاشر من رمضان

المقاتلون البواسل الذين صنعوا النصر